

علي بن زباد الطرابلسي

ودوره في نشر المذهب المالكي
في القرن الثاني الهجري

تأليف

الدكتور محمد مسعود جبران

رئيس قسم اللغة العربية
 بكلية الدعوة الإسلامية



WORLD ISLAMIC CALL SOCIETY
Association Mondiale de L'Appel Islamique

علي بن زياد الطرابلسي
ودوره في نشر المذهب المالكي
في القرن الثاني الهجري

علي بن زياد الطرابلسي

ودوره في نشر المذهب المالكي

في القرن الثاني الهجري

تأليف

الدكتور محمد مسعود جبران

رئيس قسم اللغة العربية بكلية الدعوة الإسلامية



علي بن زياد الطرابلسي ودوره في نشر المذهب المالكي في القرن الثاني الهجري
الدكتور محمد مسعود جبران

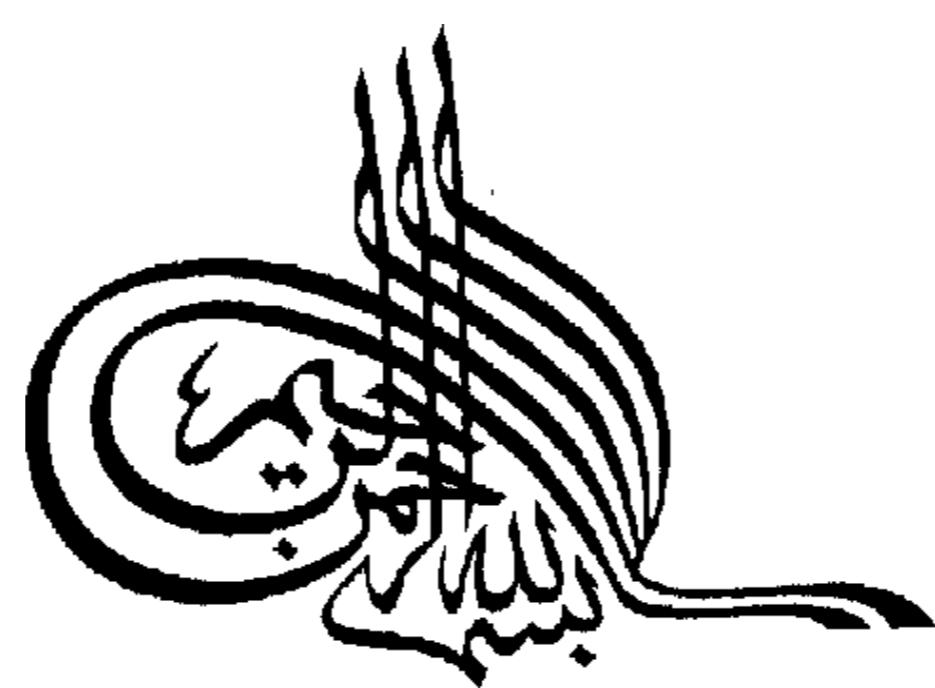
منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية
طريق السواني - طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى
هاتف: 65 - 4808461 - بريد مصور: 4800293 - ص.ب: 2682 طرابلس
Website: www.islamic-call.net
E-mail: media@islamic-call.net



الطبعة الأولى: 1378 من وفاة الرسول ﷺ (2010) مسيحي
الرقم المحلي: 209/2009 دار الكتب الوطنية - بنغازي
الرقم الدولي: ردمك 7-234-28-9959 ISBN: 978-9959-28-234-7

«يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع
والتسجيل المرئي والسمعي والحسوبي وغيرها من الحقوق
إلا بإذن خططي من جمعية الدعوة الإسلامية العالمية»

حقوق الطبع محفوظة لجمعية الدعوة الإسلامية العالمية



الإهداء

إلى أجناد الله الفاتحين الذين عمرت حرارة الإيمان قلوبهم، فامتنعوا متون العادات، الجياد، وقطعوا بعدها وضبها النجاد والوهاد، وهم يحملون أنوار الحقيقة الصريحة، ولواء العقيدة الكاملة الصحيحة، دين الله القيم الإسلام: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾⁽¹⁾؛ فتفع الله بإيمانهم البلاد، ويخلاص خلفهم الصالح العباد أهدي بجهدي البحثي في ترجمة الفقيه طرابلسى علي بن زياد، أحد الأئمة الصلحاء من أبناء الأجناد.

أ. د. محمد مسعود جبران

(1) سورة آل عمران، الآية: 19.

الرموز المستخدمة في الكتاب

- 1 - تر = ترجمة وتعريف.
- 2 - تحق = تحقيق.
- 3 - ج = الجزء.
- 4 - س = السنة.
- 5 - ع = العدد.
- 6 - لا ب = لا بلد.
- 7 - لا ت = لا تاريخ.
- 8 - مخط = مخطوط.
- 9 - م. ن = المصدر أو المرجع نفسه.

تقديم

للأستاذ الدكتور الصديق بشير نصر

ليس ثمة ما هو أشّق على المرء من أن يتحدث عن شخصٍ يُحبه، ويُ يكن له أعظم الاحترام، مخافةً أن يُوصف قوله فيه بأنه كلامُ مُحبٌ، فيصدق فيه قول الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلةٌ ولكن عين السخط تُبدي المساواة
وإذ أكتبها هنا تقديماً لهذا الكتاب الذي بين أيدينا وتعريفاً بصاحبه
يتتبّني هذا الشعور، ويتملّكني هذا الإحساس، فأتهيّئ الكتابة. أكتب بقلبِ
المُحب أم بعقلِ التّاقد، والنقدُ عقدُ، والمحبةُ والتقديرُ من العواطف النّبيلة التي
ينبغى للمرء أن يتحلى بها مع ما في ذلك من مخاطرة الواقع في مهاوي
الاعتراض ومجانبة الإنصاف. وإذا قلبي يُحدثني: هذا هو جبرانُ الأديبُ
والإنسانُ الذي تحملُ له أكبرَ معاني المودة والإكبار، يقولُ لي عقلّي: لا شرطَ
عليك إن فعلتَ. فهذا جبرانُ كاتبُ حصيفٍ، وباحثٌ منصفٌ فيتبّني شيءٌ من
السکينة والهدوء، حيث اجتمع قلبي وعقلي معاً على علوّ مكانة هذا الرجل.

في هذا التقديم أسوقُ كلمةً عجلّى في حقّ الكاتب، وأخرى في حقّ
الكتاب. أما الأولى: فالدكتور محمد مسعود جبران الذي عرفته، أو (جبران)

كما أحب أن أناديه أو كما اعتاد صحبه أن ينادوه به، كتلة من الأخلاق النبيلة، والقيم الرفيعة، تسير بين الناس على قدمين. وقد لا أراني مبالغًا إذا قلت إنه إجماع بين من عرفوه بأنه نموذج فريد، وعمله قل نظيرها في هذه الأيام.

والناس أكيس من أن يمدحوا رجلًا مالم يروا عنده آثار إحسان
فأنت لا تُبصره إلا هاشاً باشاً، لا تقاد الابتسامة تفارق وجهه. ويشهد الله
أنني ما رأيته قط غاضبًا فضلاً عن أن يكون غضوبًا. فلا يشعر محدثه أبدًا بأنه
مُتبرّم أو ضَحِّر، ولو كان صدره يعتمل بذا أو ذاك.

عرفت (جبران) محمد مسعود قبل نحو ثلاثين عاماً، وكنت آنذاك حديث
عهده بالخرج في الجامعة، وقد زرته يومئذ على غير موعد، بمعية الشيخ
الفاضل والعالم القدوة الدكتور محمد الطاهر. كان لقاء جميلاً توطّد بعده
صلتي بالدكتور جبران، جبران التواضع والذوق الرفيع. وقد دفعني ذلك إلى
استكشاف عالمه الأدبي والفكري الرحيب، فشرعت أقرأ كل ما يكتب، يشدّني
إليه: بيانه المشرق ولغته المتينة، ومنهجيته الصارمة في البحث. كان أول ما
قرأت له مؤلفاته عن محمد كامل بن مصطفى، وسليمان الباروني، والشاعر
مصطفى بن ذكري.

إن أهم صفتين خلقيتين يتصف بهما (جبران)، فضلاً عن صفاتٍ أخرى:
التواضع الجم، والأدب الرفيع، ورحم الله عبد الله بن المبارك إذ يقول: «نحن
إلى قليل من الأدب أحوج مما إلى كثير من العلم».

وهو بتواضعه المعهود كأنه يعمل بنصح الشاعر:

شواضع تكن كالبذر لاح لنظرٍ على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تك كالدخان يغلو تجبراً على طبقات الجو وهو وضعٌ
(جبران) ذو لغة شاعرة، وصاحب تراكيب لغوية فنية رفيعة قد تكون أحياناً
مهجورة، ولكنه يبعث فيها الحياة فتصير مأنوساً حتى ليختيل للنظر للوهلة الأولى

أنها صناعةً جديدةً، وهذا لا ريب من براعة الأدباء والكتاب الذين لا يهجرون الجميل القديم لجديدٍ قبيح كما يصنع بعض المتأدبين اليوم ممن ينحتون الفاظاً غير معهودة، يحسبون أنهم يجددون بها شباب اللغة، وهم في حقيقة الأمر يأتون بفواجع ومنكرات لها وقع على الأذن ثقيل أشبه ما يكون بطحون القرون.

قلم (جبران) محمد مسعود يذكرني بالرافعي، والزيارات، وعلى الجارم، ومحمود تيمور، ومحمد شاكر وأخرين من أرباب البيان في العصر الحديث ممن أيقظوا في العربية وأدبها روح التجديد.

إن ما يُقال عن (جبران):

قليلٌ لا يفي بحقّه أبلغَةُ ولولا ضيقُ لأطنبنا في ذكر مناقبه وأما ما ينبغي قوله في حق كتابه (علي بن زياد الطرابلسي)، فإنه دراسة موضوعية التزم فيها المؤلف الحيدة والإنصاف، ولو لم يكن لهذا الكتاب من فضيلة إلا أنه صحيح خطأً تاريخياً وقع فيه العلماء المتقدمون والمتاخرون على السواء في نسبة ابن زياد، أحد أشهر رواة الموطأ، لغير موطنه الأصلي طرابلس الغرب، لكفاه صنيعه ذلك شرفاً.

وقد برهن الدكتور جبران في كتابه هذا على أن المتأخرين من العلماء والباحثين ممن ترجموا ابن زياد في مصنفاتهم لم يعدوا ما كتبه المتقدمون، ولم يغادروه قيد أنملة. وبهذا يعود الفضل للدكتور جبران في تصحيح نسبة هذا الإمام الجليل، والقطع بأنه طرابلسي المولد، وأنه تلقى علومه الأولى على يد أشياخها وعلمائها. ثم رحل إلى المشرق وتلقى على يد إمام دار الهجرة مالك ابن أنس الأصبحي، وروى عنه الموطأ، ثم عاد إلى بلده، ورحل منها إلى تونس، ودُفن بها هناك، فحسب جميع من ترجم له أنه تونسي، والحق إنّه ليبي المولد والمنشأ، وتونسي المدفن.

لقد ساق الدكتور جبران الأدلة التي تبرهن على صدق دعواه، وفند مزاعمَ من ذهب إلى غير مذهبة، وعلق على أدلةهم واحداً واحداً، ولم يُبقي من شبهة

سيقت حول نسب هذا الإمام إلا وأتى على أُسْتها بالهدم، فيحقّ في عمله هذا ما جاء في المثل السائِر: قطعت جهِيزَةُ قولَ كُلَّ خطيبٍ.

لقد شاع في بعض البلدان، وفي عقول بعض الباحثين أنّ طرابلس الغرب ليست حاضرةً علميّةً لتنجّب أمثال ابن زياد، وهذا افتياط على الحقيقة. وربما لو قالوا: لم يعتن أهل هذه البلاد بتراث أسلاقهم، ولم ينقبوا عن مآثرهم، ولم يذوّنوا لصدقوا. ومن هنا يعود الفضل لأنّي (جبران) لاعتنائه بالحياة الثقافية في ليبيا خلال حقب زمنية متّعاقة، وهو بصنيعه هذا يبرهنُ على أنّ موطننا ينجّب أمثال ابن زياد، وموسى القطّان، وعبد السلام بن عثمان التاجوري، والخطاب الجد والابن والحفيد، وابن غلبون، والنائب الأنصاري، ومحمد كامل بن مصطفى، وعبد الرحمن البوصيري، وينزل بها جهابذة العلماء من طبقة: الإمام الحافظ القدوة أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن صالح الكوفي العجمي صاحب كتاب (الثقات)، الذي نزل بطرابلس الغرب ودُفن فيها وكان يرتحل إليه طلبة الحديث من أقصى الأمصار، وقد ذكر ابن الفرضي في (تاريخ علماء الأندلس) كثيراً من ارتحلوا إلى طرابلس الغرب للأخذ من هذا الإمام الجليل، ومن طبقة الإمام العارف الفقيه أحمد زروق البرنسى الفاسى دفين مصراته. ولو كانت هذه البلاد خاملةً ما أقام بها أمثال هؤلاء وما ارتحلوا إليها من أقصى الأرض.

والدكتور محمد مسعود جبران بكتابه عن (ابن زياد الطرابلسي) وبكتبه الأخرى عن أعلام ليبيا يُسدي خدمةً جليلةً للمكتبة الليبية خاصةً، والمكتبة العربية عامةً. وهو بهذا يُمثّل حلقةً في سلسلةٍ من العلماء والباحثين الأجلاء الذين أخذوا على عاتقهم خدمة تراث هذا البلد من أمثال: الشيخ الطاهر الزاوي المفتى، وشيخ المؤرخين الأديب النقاده على مصطفى المصراتي، والأستاذ الشاعر المحقق والمؤرخ خليفة التليسي، وثلةً من الجيل الجديد الذي وُبِّرَ الواعد أمثال: الأستاذ عمار جحيدر، والدكتور عبد الحميد الهرامة وآخرين.

أخيراً، ها هو ذا كتاب (علي بن زياد الطرابلسي) بين يدي القراء، وفيهم،

بلا ريب، العالم المُدققُ الذي لا يقبلُ الكلام على عواهنه، وطالبُ العلم الشغوف الذي لا يفتأ يطلبُ المزيد. ولهؤلاء الحكمُ وفصل الخطاب. الحكمُ للكتابِ أو عليه في غير ترددٍ ولا ارتياح.

الدكتور الصديق بشير نصر

هارو، لندن

2008 / 11 / 8

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم: ﴿الَّذِي عَلَمَ إِلَّا إِنَّمَا مَا لَهُ يَعْلَم﴾⁽¹⁾ والقائل في محكم نظم قرآن العزيز: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لَيَنْفِرُوا كَافَةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ يَتَّهِمُ طَائِفَةٌ لِّمَا تَفَقَّهُوا فِي الَّذِينَ وَلَيُنَذِّرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾⁽²⁾.

والصلوة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب خيرة خلقه، وصفوة أنبائه ورسله، وأله الطاهرين، وصحبه الطيبين إلى يوم الدين، القائل في جوامع كلمه: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»⁽³⁾ أما بعد:

فهذا العلم الرائد الذي ترجم له، بل تؤسس هذه الترجمة المطولة والمحللة لحياته وأطوارها، هو الفقيه المالكي أبو الحسن علي بن زياد الطرابلسي⁽⁴⁾ من خيار العلماء، ومن أبناء مدينة طرابلس الغرب وأصلاثها في

(1) سورة العلق، الآية: 4 و 5.

(2) سورة التوبة، الآية: 122.

(3) البخاري علم 10، 13 مسلم إمارة 175 الترمذى علم 1 قدر 8 زهد 75.

(4) نسبة إلى الإمام مالك بن أنس الأصبهني (ت 179هـ) أحد الأئمة الأعلام، أصحاب =

القرن الثاني الهجري، ومن أعلامها الأول الذين تعتز بإنجابهم وتنشئتهم، وتباهي بدورهم الفاعل في نشر الدين الإسلامي الحنيف، وفي تأصيل المذهب السنوي المالكي، ونشر فقهه الحديثي في ريوغ مسقط رأسه طرابلس الغرب، وفي المشرق، ثم في مهجره الأثير الأخير بتونس، وفي الغرب الإسلامي بعامة فعلي بن زياد – كما أجمعـت كـملة مـترجمـيه – من أوائل طلـاب الـعلم والـفقـه والـحدـيث في الغـرب الإـسلامـي الذين ضـربـوا آبـاطـ الإـبلـ إـلـى بلـادـ المـشـرقـ قـصدـ الاستـفـادةـ منـ أـعـلامـهـ الـكـبارـ؛ منـ أمـثالـ الـإـمامـ مـالـكـ، وـالـأـئـمـةـ سـفـيـانـ الشـوـرـيـ⁽¹⁾ والـلـيـثـ بنـ سـعـدـ⁽²⁾ وـابـنـ لـهـيـعـةـ⁽³⁾ وـغـيرـهـمـ منـ الشـوـامـخـ؛ لـلاـسـتـزـادـةـ منـ عـلـومـهـمـ، وـتوـثـيقـ سـنـدـهـ الـمـعـرـفـيـ بـهـمـ وـبـإـجـازـاتـهـمـ، كـماـ عـدـ فيـ الطـلـيـعـةـ منـ أـعـلامـ الغـربـ الإـسلامـيـ الـذـينـ لـازـمـواـ إـمامـ الـمـذـهـبـ الـمـالـكـيـ، وـصـاحـبـوهـ، وـأـخـذـواـ الـعـلـمـ عـنـهـ، وـتـحـمـلـواـ موـطـأـ وـقـاتـوـيـهـ، وـرـوـواـ عـنـهـ ذـلـكـ بـرـوـاـيـةـ مـتـمـيـزـةـ، وـأـدـخـلـوهـ صـحـيـحـاـ موـثـقاـ

المذاهب الفقهية السنوية الكبرى، وهو كما سنوضح – شيخ مترجمنا علي بن زياد، عرف بالفقه والحديث، ولـه كتاب «الموطأ» المعـروـفـ بـصـعـحتـهـ، وـالـذـيـ قـالـ عـنـهـ الـإـمـامـ اـبـنـ تـيمـيـةـ فيـ «ـمـجـمـوعـ الفتـاوـيـ» 20 : 320 : «ـفـلـاـ رـيـبـ عـنـدـ أـحـدـ أـنـ مـالـكـاـ» - رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ - أـقـوـمـ النـاسـ بـمـذـهـبـ أـهـلـ الـمـدـيـنـةـ روـاـيـةـ وـرـأـيـاـ»، وـقـدـ تـرـجـمـ لـهـ كـثـيرـ مـنـ الـعـلـمـاءـ الـقـدـامـيـ وـالـمـحـدـثـيـنـ مـنـهـمـ: اـبـنـ عـبـدـ الـبـرـ فـيـ الـاـنـتـقـاءـ فـيـ فـضـائـلـ الـثـلـاثـةـ الـأـئـمـةـ الـفـقـهـاءـ، وـجـلـالـ الـدـيـنـ السـيـوطـيـ فـيـ «ـتـزـيـينـ الـمـمـالـكـ بـمـنـاقـبـ سـيـدـنـاـ مـالـكـ» وـعـيـسـىـ بـنـ مـسـعـودـ الزـوـاـريـ فـيـ «ـمـنـاقـبـ سـيـدـنـاـ مـالـكـ» وـابـنـ فـرـحـونـ فـيـ «ـالـدـيـبـاجـ المـذـهـبـ» وـالـقـاضـيـ عـيـاضـ فـيـ «ـتـرـتـيـبـ الـمـدارـكـ وـتـقـرـيـبـ الـمـالـكـ» وـمـنـ الـمـحـدـثـيـنـ الشـيـخـ أـمـيـنـ الـخـوليـ وـالـشـيـخـ مـحـمـدـ أـبـوـ زـهـرـةـ وـغـيرـهـمـ، وـسـيـأـتـيـ مـزـيدـ مـنـ التـفـصـيلـ عـنـ حـيـاتـهـ وـدـورـهـ.

(1) سـفـيـانـ بـنـ سـعـدـ بـنـ مـسـرـوقـ الشـوـرـيـ (97هـ - 161) أـمـيـرـ الـمـؤـمـنـيـنـ فـيـ الـحـدـيـثـ الشـرـيفـ، وـيـشارـ إـلـيـهـ بـأـنـهـ سـيـدـ أـهـلـ زـمـانـهـ فـيـ عـلـمـ الدـيـنـ وـالـفـتـوـيـ وـلـدـ وـنـشـأـ فـيـ الـكـوـفـةـ، وـسـكـنـ مـكـةـ وـالـمـدـيـنـةـ، لـهـ كـتـابـ الـجـامـعـ الـكـبـيرـ وـالـصـغـيرـ وـكـتـابـ الـفـرـائـضـ.

(2) هوـ الـلـيـثـ بـنـ سـعـدـ بـنـ عـبـدـ الرـحـمـنـ الـفـهـمـيـ بـالـلـوـاءـ، وـكـنـيـتـهـ أـبـوـ الـحـارـثـ، إـمـامـ أـهـلـ مـصـرـ حـدـيـثـاـ وـفـقـهـاـ، أـصـلـهـ مـنـ خـرـاسـانـ، وـمـولـدـهـ فـيـ قـلـقـشـنـدـهـ، وـوـفـاتـهـ فـيـ الـقـاهـرـةـ، وـانـحـصـرـتـ حـيـاتـهـ مـاـ بـيـنـ سـيـتـيـ (94 - 175) حـلـةـ الـإـمـامـ الشـافـعـيـ بـقـوـلـهـ «ـالـلـيـثـ أـفـقـهـ مـنـ مـالـكـ، إـلـاـ أـنـ أـصـحـاـبـهـ لـمـ يـقـوـمـوـاـ بـهـ».

(3) عـبـدـ اللـهـ بـنـ لـهـيـعـةـ (97 - 174) مـنـ عـلـمـاءـ مـصـرـ وـفـقـهـائـهـ، قـالـ عـنـهـ الـإـمـامـ أـحـمـدـ بـنـ حـنـبـلـ «ـمـاـ كـانـ مـحـدـثـ مـصـرـ، إـلـاـ أـبـنـ لـهـيـعـةـ» وـقـالـ عـنـهـ الـذـهـبـيـ «ـكـانـ أـبـنـ لـهـيـعـةـ مـنـ الـكـتـابـ للـحـدـيـثـ وـالـجـمـاعـيـنـ لـلـعـلـمـ وـالـرـحـالـيـنـ فـيـهـ».

إلى ديار الغرب الإسلامي الثلاثة (الأدنى) طرابلس الغرب وتونس و(الأوسط) الجزائر، و(الأقصى) المغرب والأندلس⁽¹⁾، فأفاد منه خلق كثير من علمائها المعروفين والمغمورين.

وقد كان الإمام سحنون⁽²⁾: «لا يفضل أحداً من أهل المغرب على علي ابن زياد»⁽³⁾ فهو - كما ذكر القاضي عياض السبتي في تركيبة مثل ذلك القول: أول من دخل الموطأ وجامع سفيان المغرب، وفسّر لهم قول مالك، ولم يكونوا يعرفونه⁽⁴⁾، وهو ما حمل المؤرخ الأديب صلاح الدين الصفدي في كتابه «الوافي بالوفيات» على تسميته مراعاة لهذا الدور الرائد الذي قام به في المغرب الإسلامي بـ «شيخ المغرب»⁽⁵⁾ ثم تبعه في اعتماد هذه التسمية أو التحلية أيضاً المؤرخ الليبي أحمد النائب الأنباري، فسماه، «شيخ المغرب»⁽⁶⁾.

وبالرغم من عظم هذا الدور المعرفي والديني في نشر الإسلام وتعاليمه خلال القرن الثاني الهجري؛ فإنّ هذا الفقيه السباق في هذا الدور لم يحظ بالعناية الكافية لترجمته، وبيان أطوار حياته، وإظهار قيمة علمه وتأثيره المعرفي تجلّى في تأصيل المذهب المالكي ونشره، وفي رواية الموطأ وبثه، وفي الإفتاء بمعتمده وأصوله، كما تجلّى في إعداد تلاميذ كبار أجلاء، تولّوا بعده الأخذ بمنهجه وطريقه، وقد أخبر أبو زيد عبد الرحمن الدباغ في كتابه «معالم الإيمان» أنّ أباً بكر التجيبي قد ألف مصنفاً في التعريف بابن زياد⁽⁷⁾، ويبدو أنّ هذا المصنف قد ضاع ولم يرد ذكر ما فيه في غيره من المصادر.

(1) يراجع ما كتبناه في «البعد التعريفي للغرب الإسلامي» ضمن كتابنا «أبحاث وتحقيقات من تراث الغرب الإسلامي» من منشورات دار المدار الإسلامي، ومجلة كلية الدعوة 24، 25.

(2) أحد تلاميذ الإمام علي بن زياد، وأحد أبرز رواة أخباره، وعارضي فضله، وستائي ترجمته.

(3) ترتيب المدارك وتقريب المسالك 1: 327، رياض النفوس 1: 346.

(4) طبقات علماء إفريقيا: 98، 99.

(5) الوافي بالوفيات 21: 82.

(6) نفحات النسرین والريحان: 66.

(7) معالم الإيمان في معرفة أهل القبروان 1: 276.

ومن عجب أنَّ التقصير الظاهر في التعريف بابن زياد، والتنويه بعلمه وفضله، لم يكن مقصوراً على السالفين من العلماء فحسب؛ بل شمل الخالفين أيضاً، وهو ما اشتَدَّ به الأَسْفُ؛ قال الشيخ محمد الشاذلي النيفر - رحمه الله - مستشعراً هذا المعنى من الإهمال: «لَكُنْ هُنَا حَقِيقَةً مَرَّةً نَقُولُهَا شَاهِدِينَ بِالْحَقِّ، وَهِيَ أَنَّ عَلَيَّ بْنَ زِيَادَ أَضَاعَهُ طَلْبَتِهِ، فَمَا سَلْفُهُ، وَأَضَاعَهُ الْبَاحِثُونَ، فَهُوَ الرَّجُلُ الْأَوَّلُ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ تَنْصُرَ فِي الْدِرْسَاتِ وَيُعْنِي بِهِ أَشَدُّ الْعَنَايَا؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْمُكَيْفُ لِلْعُقُولِ بِالسُّنْنَةِ الصَّحِيحَةِ، وَالْمُرْشِدُ إِلَى الْفَقْهِ فِي الدِّينِ»⁽¹⁾.

والحقُّ أَنَّ الفقيه ابن زياد كانَ عَلَى هَذَا الْوَصْفِ، وَعَلَى هَذِهِ التَّحْلِيةِ بِجَدَارَةٍ، وَالْحَقُّ أَيْضًا أَنَّهُ لَوْ تَمَسَّ لِأُولَئِكَ الْطَّلَبَةِ وَالْبَاحِثِينَ الْقَدَامِيِّيِّ وَالْمَحْدُثِينَ الْعُذْرُ فِي ذَلِكَ التَّقْصِيرِ فِي عَدَمِ الْقِيَامِ بِهِ وَبِآثَارِهِ الْمَشْكُورَةِ؛ فَلَا يَمْكُنْ بِحَالٍ أَنْ يُعْذَرَ أَهْلُهُ وَذُووَّهُ الَّذِينَ خَاصُوا بِهِذَا الْوَجْبِ الْمَهْمَمِ فِي التَّعْرِيفِ بِهِ وَالإِشَادَةِ بِفَضْلِهِ.

وَلَا نَكْرَانَ الْبَتَّةِ فِي أَنَّ جَمْلَةَ مِنَ الْمَصَادِرِ وَالْمَرَاجِعِ التَّارِيْخِيَّةِ وَالْفَقَهِيَّةِ فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ قَدْ عَرَضَتْ فِي نُبُذٍ قَصِيرٍ مَكْثُوفٍ لِتَرْجِمَةِ هَذَا الْفَقِيهِ الرَّائِدِ بِقَطْوَفٍ مُختَصَّرَةٍ، وَإِيمَاءَاتٍ مُبَتَّسِرَةٍ⁽²⁾.

(1) قطعة من موطأ ابن زياد: 37.

(2) نذكر من هذه المصادر والمراجع التي أفادت بقطوفها وومضاتها: طبقات علماء إفريقيا وتونس لأبي العرب التميمي، وطبقات الفقهاء لأبي إسحاق الشيرازي، ورياض النفوس للمالكي، والانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء لابن عبد البر، والإكمال لابن ماكولا، وتاريخ الإسلام للذهبي، وترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض السنّي، والوافي بالوفيات للصفدي، ووفيات الأعيان لابن خلkan، والديباج المذهب لابن فرحون، ونيل الابتهاج لأحمد بابا التنبكتي، وتوسيع الديباج للقرافي، وأزهار البستان في طبقات الأعيان والوفيات لابن قنقد والونشريسي وابن القاضي، والحلل السنديسة في الأخبار التونسية للوزير السراج، وإتحاف أهل الزمان لابن أبي الضياف، وشجرة النور الزكية لمحمد مخلوف، وغيرها من المصادر التي استعنا بها وأثبناها في تصانيف الكتاب وهوامشه.

ونذكر من المراجع التي كتبها العلماء المحدثون: كتاب تونس وجامع الزيتونة للعلامة محمد الخضر حسين، وورقات من الحضارة العربية بإفريقيا وخلاصة تاريخ تونس ومجمل =

وعلى الرغم من تلك الوفرة من تلك الإلماعات في تلك المظان القديمة، والتي نقلتها عنها المراجع الحديثة المذكورة ضمن ثبت مصادر هذا الكتاب وغير المذكورة، فإنَّ الفقيه المحدث علي بن زياد لم يُخَص بترجمة اجتهادية موسعة وشاملة، تستوحي تلك الإلماعات والإشارات، وتستقرئ بتأنٍّ أخباره وأثاره، وتدلُّ على آطوار حياته المغيبة، وتكتشف المجهول والمخبأ فيها، وتُظهر من خلال ذلك كله أبعاد الدور المعرفي الذي أشعاعه في عصره في ربوع الغرب الإسلامي خلال القرن الثاني الهجري.

ولا خفاء في أنَّ آراء الدراسين والباحثين قد أجمعوا على أنَّ المعلومات والحقائق التي جاءتنا متصلة بأخبار وعلي بن زياد وأثاره قليلة ونادرة بل في الكثير من الأحيان مكررة مُعادَة، وحسبُك في إدراك ذلك أنَّ الذين حاولوا الكتابة عنه من أمثال العلامة محمد الفاضل ابن عاشور والعلامة محمد الشاذلي النifer، والدكتور الصيد محمد أبو ديب وغيرهم، لم تتجاوز كتاباتهم في سيرته وترجمته نطاق البحوث القصيرة، والفصول الوجيزة فقد كتب العلامة المبرور الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور ترجمة لعلي بن زياد ضمن كتابة «أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي» لم تتجاوز بالرغم من قيمتها العلمية عشر صفحات، وكتب الشيخ العالم محمد الشاذلي النifer ترجمة لابن زياد لم تتجاوز مع متنها العلمية التحقيقية خمس عشرة صفحة، كذلك كتب الدكتور الصيد أبو ديب بحثاً بعنوان «علي بن زياد من علماء ليبيا في القرن الثاني الهجري» لم ت تعد صفحاته أكثر من خمس عشرة صفحة.

ولم ي الجانب الصواب الدكتور الصيد محمد أبو ديب حيث قال ذاكراً قصور

= الأدب التونسي وكتاب العمر وكلها للعلامة محمد الخضر حسين، وأعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي، والمحاضرات المغربية وومضات فكر، للعلامة محمد الفاضل ابن عاشور، وقطعة من موطأ ابن زياد بتحقيق الشيخ محمد الشاذلي النifer، وحضار العمر، ودراسات في التاريخ والترااث للأستاذ الباحث أبي القاسم محمد كرو، و«مشاهير التونسيين» للأستاذ محمد بوذينة.

الكتابة عن علي بن زياد: «وفي الحقيقة إنَّ الكتابة عن (علي بن زياد) وعن فقهه، لا تزال قاصرة، لم تستوف حَقَّه بعد، ومن ثُمَّ فتحن في حاجة ماسة إلى بحث علمي دقيق، يتحدث عنه من نواحٍ مختلفة، مثل الحديث عن أسرته وطفولته ونشأته الأولى... عن حياته في صدر شبابه، وعلاقته بالمجتمع الذي كان يعيش فيه من الناحية السياسية والمذهبية، باعتباره أحد رجال القرن الثاني الهجري»⁽¹⁾.

وأحمدُ الله تعالى على أني جعلت هذا الغرض الشريف - ضمن أهداف مشروع الباحثي الذي أنفقتُ فيه جُلُّ سنتي عمرى وفاءً لوطني العزيز ليبيا⁽²⁾، ولم أتجهم التقدّم في خوض عبابه الراهن، فقد حملني ما رأيته من هذا التقصير الملحوظ في التعريف بعلم رائد من أعلام طرابلس الغرب علي بن زياد والتغريط الظاهر في حَقِّه من طلابه ومعاصريه، وأيضاً من الباحثين الفضلاء الذين جاؤوا بعدهم إلى عصتنا هذا، على أن تستقرئ تلك الومضات والإلمعات المتفرقة في المظان، وأنْ أجمع شتات ما تفرق، لأكتب هذا الكتاب الذي أمل أن أهتدى فيه، بالرغم من بضاعتي المزحة إلى التوفيق والصواب في ذكر ما يتصل بأخباره وآثاره من حقائق، تشي - إن شاء الله تعالى - هذا الجانب الخفي المطوي من حركة حياتنا الفكرية في ليبيا وفي الغرب الإسلامي بعامة.

ولا أخفى على القارئ الكريم أنَّ هذا الكتاب الذي عنونته بـ «علي بن زياد ودوره في تأصيل المذهب المالكي ونشره في القرن الثاني الهجري» كان في الأصل بحثاً قدّمه إلى أعمال الندوة العلمية التي دعت إليها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم «الالكسو» بالتعاون مع اللجنة الشعبية العامة للإعلام

(1) بحثه «علي بن زياد من علماء ليبيا في القرن الثاني الهجري» نشر ضمن أعمال ندوة التواصل الثقافي بين أقطار المغرب العربي: 423.

(2) يراجع ثبت المؤلفات والتحقيقات في آخر الكتاب، المتضمنة الآثار التي تناولت فيها الحركة الفكرية والأدبية في ليبيا وأعلامها.

والثقافة بليبيا، واستضافتها كلية الدعوة الإسلامية بطرابلس، تحت «دور طرابلس في نشر الثقافة العربية والإسلامية»، ضمن احتفالية طرابلس الغربية عاصمة للثقافة الإسلامية سنة 2007⁽¹⁾.

وقد اقتصرت من فصول هذا الكتاب في مسافات أبحاث تلك الندوة على مجرد فصله الأخير، المعنون بـ «علي بن زياد الطرابلسي ودوره في تأصيل المذهب المالكي»⁽²⁾.

ثم أتيح لي أن أوسع النظرة والرؤية بل التصور في تطوير الفصول، وإثراء المباحث بالرجوع إلى المظان والمصادر القديمة والحديثة المهمة مما ذكرناه، وما لم نذكره، وانفسح من معطياتها الوفيرة مجال القول في حياة هذا الفقيه الطرابلسي الرائد المعمور؛ فأفضى ذلك الانفاسح إلى شيء من التحقيق والتأمل، إذ تشكلت منها عقد فصول تألف منها هذا الكتاب التعريفي الوجيز، وانضافت خلاله حقائق لا ترد، وصححت أخطاء وهفوات تسربت في ثانياً بحوث السابقين الأجلاء.

وقد كسرتُ الكتاب الذي أرجو أن يكون موضوعياً منصفاً لهذا الفقيه المحدث، مفيداً في الترجمة له ولعصره وفي التعريف بموطنه طرابلس الغرب - بناء على ذاك التصور - بعد المقدمة - على ثلاثة فصول رئيسة مشتملة في داخلها على عدّة مباحث، فتتمثل هيكلاته الكلية على النحو التالي:

هذه المقدمة أو الطالعة التوضيحية، ثم تلتها الفصول الأربع بمباحثها الداخلية:

الفصل الأول: آفاق الحياة العامة وهو في ثلاثة مباحث:

(1) عقدت الندوة بتاريخ 5 - 7 فيفري سنة 2008.

(2) نشر هذا البحث ضمن بحوث الكتاب الذي نشرته منظمة الالكسو بعنوان «دور طرابلس في نشر الثقافة العربية الإسلامية».

المبحث الأول: الأفق التعريفي الجغرافي والاجتماعي.

المبحث الثاني: الأفق التاريخي والسياسي.

المبحث الثالث: الأفق المعرفي والفكري.

الفصل الثاني: الحياة الخاصة وأطوارها، في خمسة مباحث:

المبحث الأول: أولية ابن زيد واسمه وبلده.

المبحث الثاني: الطور الأول من حياته.

المبحث الثالث: الطور الثاني من حياته.

المبحث الرابع: الطور الثالث من حياته.

المبحث الخامس: أخلاقه ووفاته، وثناء العلماء عليه.

الفصل الثالث: تأصيله ونشره المذهب المالكي، في أربعة مباحث:

المبحث الأول: روایته الموطأ.

المبحث الثاني: أسمعته وفتاویه.

المبحث الثالث: تكوينه المركزين الفقهيين.

المبحث الرابع: تلاميذه الفقهاء.

وختُم الكتاب بالملحق الذي تضمن في قسمه الأول نقولاً وقطوفاً مختارة من موطأ ابن زيد بتحقيق الشيخ المحقق العلامة محمد الشاذلي النمير⁽¹⁾، وقد اكتفينا من ذلك بالمتن دون التعليقات، وفي قسمة الآخر أثبتنا صوراً ومشاهد من المدينة القديمة بطرابلس الغرب، وهي توحى - وإن كانت متأخرة زمنياً عن عصر ابن زيد - بملامح من الأجواء التاريخية التي عاشتها هذه المدينة العريقة وأهلها.

(1) صدر عن مركز البحوث في تونس في السنيات، ومن أسف أنَّ الكتاب لم تعد طباعته.

ولا أُخفي أنني كتبت فصول هذا الكتاب التعريفي بابن زiad الطرابلسي ومباحثه بروح البحث المنصف المزاوج بين الموضوعية المنهجية، وأوضاع التأثيرية العاطفية، المتعلقة بحب بلاد قومي، وهي التي عبر عنها قبل المجنون العامري بقوله :

أَحْسُ إِذَا رَأَيْتَ جَمَالَ قَوْمِيِّ وَأَبْكَى إِنْ سَمِعْتَ لَهَا حَنِينًا
سَقَى الْغَيْثُ الْمَجْدُ بِلَادَ قَوْمِيِّ وَإِنْ خَلَتِ الدِّيَارُ وَإِنْ بَلَيْنَا
وَإِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَنْ يَكُونَ عَمْلِي هَذَا - مَعَ هَذَا الْحَبْ - مَتَّلِبِسًا
بِتَعَصُّبٍ وَطَنِي قَمِيءٍ، أَوْ تَحِيزٍ مَذْهَبِي مُقْبِتٍ، إِذْ الْغَرْضُ وَالْقَصْدُ فِيهِ إِنَّمَا هُوَ
نَشْدَانُ الْحَقِيقَةِ، وَالتَّارِيخُ لِلْحَرْكَةِ الْفَكِيرِيَّةِ وَأَعْلَامُهَا فِي لِيَبِيَا.

وفي الوقت الذي أشكر فيه المناسبة السعيدة «الاحتفالية طرابلس الغرب عاصمة للثقافة الإسلامية سنة (1429/2007) التي قدحت زناد الفكر للبحث عن مجاهل هذه الشخصية الإسلامية الرائدة المغمورة، وفي القرن الثاني الهجري الذي عاشت فيه، وبيان دورها المتأثر والمؤثر في نشر الإسلام الحنيف، والفقه المالكي، في القرن المذكور في ربوع الغرب الإسلامي، وبخاصة في المغرب الأدنى مسقط رأسه طرابلس الغرب، ومهجره تونس.

كذلك أُسدي أتسام الشكر بليلة شذية لصديقنا العالم الأديب الأستاذ الدكتور : الصديق بشير نصر الذي تفضل مشكوراً بمراجعة الكتاب مراجعة علمية أفاد بها جوانب من فصوله ومباحثه، كما تفضل متكرماً بكتابه تقديم بليةع، عبر بأريح عبقه عن ألق طواياه، وبشذى نفحه عن إنصاف سجاياه، أعده - خفياً به مع الدعاء له بال توفيق - من الأعلاق النفسية التي أباها بها وأسر.

والشكر موصول أيضاً للجنة العلمية المؤقة وأعضائها الفضلاء، ومكتب الإعلام والنشر في جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، الذين اعتمدوا إصداره ضمن منشوراته العلمية القيمة، وأيضاً للأستاذ محمد عمران الحكيمي. مندوب

جمعية الدعوة الإسلامية العالمية في منظمة «الالكسو» بتونس الذي أمنني بصور ضريح علي بن زياد. والله تعالى نسأل أن يكتب بفضله الأجر والثواب على هذا الكتاب، ويعولى - بمنه - النعمة والتوفيق إلى الصواب، إله جلّ وعلا خير مسؤول، وأعظم مأمول.

أ. د. محمد مسعود جبران
محله الأمل الأخضر بطرابلس
2008 / 5 / 23

الفصل الأول

آفاق الحياة العامة

المبحث الأول

الأفق التعريفي والاجتماعي

كانت طرابلس أو اطربلس، وطن مترجمنا الفقيه المحدث علي بن زياد الطرابلسي تعني في التاريخ الإسلامي الدلالة على قصبة مدينة طرابلس الغرب عاصمة البلاد الليبية في الوقت الحاضر، كما كانت تعني أيضاً وإلى ما قبل سنة (1321/1903)⁽¹⁾، وقبل أن تُرزاً بالغزو الإيطالي البغيض سنة (1911/1329)⁽²⁾ مشمولات ليبيا بمدنها الكبرى بنغازي وفزان وما يتبعها من القرى والأرياف.

وقد كان الكتاب والمؤرخون والجغرافيون المسلمين القدامى يميّزونها في الرسم والكتابة عن شقيقتها في المشرق «طرابلس الشام» بزيادة ألف فارقة؛ فيرسمنها هكذا «اطربلس» وهو الاسم الذي كتبت به في جواب الفاتح العظيم عمرو بن العاص الذي أرسله إلى الخليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بعد فتح مدينة شروس في الجبل الغربي .

(1) تسمية ليبيا قديمة، ترجع إلى الألف الثانية قبل الميلاد في عهد الدولة القديمة في مصر ولكنها كانت تطلق على سكان غرب دلتا النيل واستمر ذلك خلال العهد الفينيقي والروماني ثم أطلقت التسمية على ولاية شمال إفريقيا الرومانية يراجع كتاب «الحضارة الفينيقية في ليبيا» للدكتور عبد الحفيظ المئار.

(2) يراجع : كتاب «ليبيا قبل الاحتلال الإيطالي» للدكتور أحمد الدجاني وكتاب «حاضر العالم الإسلامي» للوثروب ستودارد، وبحوث ودراسات في التاريخ الليبي لمجموعة من الباحثين.

ومن الروايات القديمة التي وردت بعد ذلك التاريخ في توكييد صورة رسم اسم هذه المدينة «اطرابلس» ما جاء على لسانه الفقيه القاضي سحنون بن سعيد وابنه محمد في القرن الثالث الهجري - كما سوف يأتي فيما بعد حيث قال محمد بن سحنون: «وقال لي أبي؛ إذا أردت الحج، تقدم اطربلس، وكان فيها رجال مدنيون ومصريون»⁽¹⁾ وهو ما أكدته أيضاً الفقيه سليمان بن سالم التونسي أحد تلاميذ الإمام سحنون أيضاً⁽²⁾.

والاسم على هذا الرسم ورد كذلك في كتابات المؤرخين في العصور اللاحقة، قال اليعقوبي من علماء القرن في وصفها بهذه الكتابة: «اطربلس مدينة قديمة جليلة على ساحل البحر عامرة آهلة»⁽³⁾.

كما ورد الاسم بالرسم المأثر المتداول إلى اليوم «طرابلس الغرب» تمييزاً لها - جغرافياً وجهويًا - عن طرابلس مدينة الشام في المشرق، الواقعة حالياً ضمن مشمولات سوريا.

وطرابلس الغرب، وهي - كما تشير كتب التاريخ والجغرافيا - مدينة استراتيجية أزلية ذات شهرة تاريخية في العهود الإسلامية منذ عهد الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب (ت 23هـ) - رضي الله عنه - وأيضاً قبل العهود الإسلامية، أي في العهود الفينيقية والبيزنطية والرومانية، كانت تطلق تسميتها لشهرتها وبخاصة في التاريخ الإسلامي على جميع مشمولات أراضي ليبيا في الوقت الحاضر على أراضي طرابلس الغرب نفسها وأراضي فزان وأراضي برقة.

وتقع أراضي طرابلس الغرب، ومدينتها العاصمة التي ينسب إليها الفقيه علي بن زياد الطرابلسي بحدودها الحالية في الشمال الغربي من خارطة البلاد

(1) معالم الإيمان 2: 83، ترتيب المدارك 1: 326 – 329 رياض النفوس 1: 353.

(2) رياض النفوس 1: 353.

(3) كتاب البلدان، نقلأً عن «ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات» 11 كما أورده الحموي في معجم البلدان 4: 25.

الليبية، يحدّها من الشمال البحر الأبيض المتوسط، ومن الغرب تونس، ومن الجنوب فزان، ومن الشرق سرت.

وقد أَسَسَ هذه المدينة تاريخياً الفينيقيون في الألف الأولى قبل الميلاد، ولقبوها «أُويَا» (وهي إحدى المدن الثلاث التي استوطنها كموناء لحركتهم التجارية، وإلى الشرق منها أَسْتَ مدينة لبدة عند مصب وادي لبدة، حيث أقيمت على أنّها مركز تجاري يؤمّه الفينيقيون الذين يجوبون بسفنهم البحر المتوسط من سواحل سوريا الحالية، وحتى سواحل إسبانيا، وذلك منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد⁽¹⁾).

وقد ظلت هذه المكانة الحيوية لمدينة طرابلس في العصور والعهود التي ولّت العهد الفينيقي إلى العهد البيزنطي والعهد الروماني وبقيت مطردة إلى القرنين الأول والثاني الهجريين من العهد الإسلامي اللذين شهدهما ابن زياد الطرابلسي، ومن قبله سلفه.

وقد انقسم سكان المغرب بعامة، وفيهم سكان اطربلس، أو طرابلس الغرب قبل الإسلام إلى طوائف ثلاثة هي:⁽²⁾

- 1 - الروم، وهم البيزنطيون.
- 2 - الأفارق أو الأفارقـة: ويراد بهم بقايا شعب قرطاجنة، والأهالي المتأثرون بالحضارة الرومانية والبيزنطية وغيرهم.
- 3 - الأهالي، ويقصد بهم السكان الأصليون، وهم الذين يطلق عليهم اسم «البربر»، كما ينضاف إليهم السكان الزنج أيضاً، أصلاء هذه القارة السمراء.

(1) «طرق القوافل الرئيسية» د. دنيس كورديل نقلأً عن بحث الدكتور الصديق العاقل - التعريف بجغرافية ليبيا، معالم الحضارة الإسلامية في ليبيا.

(2) تاريخ المغرب للدكتور السيد عبد العزيز سالم: 41، 42 وتاريخ المغرب الكبير لمحمد علي دبوz.

ثم تمازجت مع هذه التركيبة السكانية الموجودة قبل الفتح الإسلامي - كما هو معروف - الأعراق العربية الوافدة من الجزيرة، والتمثلة في طبقة الأجناد أو الخيل الإسلامي الذين حملوا راية الإسلام وهديه، ومن هذه الطبقة سلف مترجمنا علي بن زياد الطرابلسي، الفارسي الأصل، العبسي العربي بالولاء - كما سيأتي.

وما من ريب في أن تلك الأعراق والأجناس قد تصاهرت - على اختلافها، وامتزجت أنسابها وتعارفت تصديقاً لقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَرَّةٍ وَأَنْشَأْنَاكُمْ شَعُونا وَبِإِيمَانٍ لِتَعْرَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتُنَّكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِحَيْثُ أَنْتُمْ﴾⁽¹⁾ ليتشكل منها - بعد فتح الإسلام طرابلس الغرب بخاصة، ولبيا بعامة المجتمع الإسلامي المتوحد.

وما من ريب أيضاً في أن هذا المجتمع الطرابلسي الذي عاش في كنفه ابن زiad وسلفه قد استفاد في عيشه في القرنين الأول والثاني الهجريين - من الموارد الطبيعية والزراعية التي عرفت بها هذه البلاد في عهد الرومان من قبل، ثم في عهد الإسلام، والتيحظى من العهدين بالتشجيع والرعاية⁽²⁾.

وبخاصة في طرابلس الغرب التي شهدت انتشار الزراعة بإنتاج الشعير والقمح وزيت الزيتون، والخضروات والفواكه والثروة الحيوانية، وقد ظلت هذه الزراعة والثروة الطبيعية على ذلك الانتشار والازدهار إلى أن أضررت بها - في بعض العهود - كما سنوضح القلاقل الشديدة، والفتنة الدامية، والأحداث التخريبية المدمرة، إلى أن استقرت الأوضاع في هذه الربوع في أواخر القرن الأول، وفي جزء من أوائل القرن الثاني الهجريين⁽³⁾.

(1) سورة الحجرات، الآية: 13.

(2) ليبيا منذ الفتح العربي لصالح مفتاح: 195 – 205.

يراجع: تاريخ ليبيا الإسلامي للبرغوثي: 492 مدينة طرابلس عبر التاريخ 30 – 31.

(3) يراجع: تاريخ ليبيا الإسلامي للبرغوثي، ولبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر لصالح مصطفى مفتاح.

وقد شهدت حياة مترجمنا طبيعة هذه الحياة الاجتماعية المتقلبة في سنوات من النصف الأول، وسنوات من النصف الثاني من القرن الثاني الهجري الذي عاشه.

* * *

المبحث الثاني

الأفق التاريخي والسياسي

من المعروف أنَّ الفتح الإسلامي الظافر لطرابلس الغرب بقيادة الفاتح عمرو بن العاص قد تمَّ - على الراجح سنة (642هـ/22هـ) وجاء تاليًا لمرحلة الحكم الروماني الجائرة على هذه البلاد، والتي ضاق أهلها ذرعاً بفسادها السياسي، وظلمها الاجتماعي اللذين جرّا عليهم ويلات الجور والعسف التي زهقت بها النفوس.

وقد فصلت طرابلس في آخريات تلك المرحلة - التي سبقت الفتح الإسلامي - عن إفريقيا وألحقت مثل برقة بمصر⁽¹⁾.

ومن المعروف أنَّ القائد المسلم الفاتح عمرو بن العاص فتح البلاد المصرية، ومنها مدينة الإسكندرية سنة (641هـ/21هـ)، ثم أتبعه - بعد ذلك - فتح برقة الذي تلاه فتح طرابلس الغرب، الذي تم في سنة (642هـ/22هـ)⁽²⁾.

وغير خاف أنَّ الفتح الإسلامي لبرقة وطرابلس الغرب بقيادة عمرو بن العاص وأعوانه عقبة بن نافع ابن أخيه، وبسر بن أرطأة.

(1) يراجع في ذلك: تاريخ المغرب العربي لمحمد علي دبوز، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي للدكتور عبد العزيز سالم، فتح العرب للمغرب للدكتور حسين مؤنس.

(2) البيان المغرب 1: 2345.

كان مسبوقاً بحملة عسكرية استطلاعية قام بها في مشمولات الدولة الرومانية بشمال إفريقيا عقبة بن نافع، وصلت كما يحدّث المؤرخون إلى تخوم برقة، ولكنَ ابن عذاري انفرد بذلك وصولها إلى زويلة⁽¹⁾.

ويبدو مما ذكره المؤرخون أنَّ فتح مدينة طرابلس بعد ذلك، وكانت – كما أجمعوا الروايات – مدينة محصنة بأسوار وحصون وكان أهلها يعتنقون دين النصرانية، ويحكمهم حكام ظلمة مستبدون، بحيث لم يتم لعمرو بن العاص فتحها بيسير، ولا سيما عندما استعان أولئك الحكام في مجابهة أجناده وجيوشه بقبيلة نفوس البربرية التي دخلت هي الأخرى مثل أهل طرابلس عهدها في النصرانية، واعتنقوا جميعاً عقائدها وتعاليمها⁽²⁾.

ومن هنا كانت هذه الديانة – مع وشائج أخرى – جامعاً لهم في مجابهة زحوف الجيوش الإسلامية الفاتحة.

ويخبرنا التاريخ – في التأكيد على هذا المظاهر الجامع أنَّ الفاتح العظيم عمرو بن العاص، بقي – نتيجة تلك المجابهة القوية – محاصراً مدينة طرابلس مع جنده زمناً دون أن يتمكنوا من فتحها، والولوج إليها إلى أن اهتدى بدهائه إلى حيلة عسكرية شغل فيها نفوسه في الجبل الغربي عندما سير إليها أولاً حملة عسكرية بقيادة بسرىء أرطأة الذي فتح جبل نفوسه وودان؛ فتهيأ له بذلك إشغالهم عن أن يخفوا إلى مساعدة سكان المدينة أو المدن في الساحل، ومنع المسلمين من الانصراف الفعلي للانفراد بالمدينة، والتركيز الفاعل لفتحها واحتواها⁽³⁾.

ومن الطرائف وغرائب المدد أن التاريخ والمؤرخين يذكرون حدوث تلك المصادفة، بل تلك اللحظة التاريخية المساعدة التي ساعدت على نجاح هذا

(1) البيان المغرب 1: 2345.

(2) يراجع في ذلك: تاريخ المغرب الكبير لمحمد علي دبوز.

(3) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم: 296.

الفتح الإسلامي الظافر، والمتمثلة في تعرّف أحد الجنود المسلمين، وهو رجل من بني مدلع على ثغرة رأها شاغرة في أسوار مدينة طرابلس المحصنة من جهة البحر؛ فاهاهبتها الجيش الإسلامي فرصة لفتحها⁽¹⁾، والسيطرة عليها، ودحر جند الرومان فيها فآل أمرها بعد انتصار الجنود المسلمين إليهم، حيث بسطوا نفوذهم على مشمولاتها، ثم مضوا بعد ذلك إلى فتح مدينة صبرة الواقعة في المنطقة الغربية من طرابلس، ثم إلى مدينة شروس في الجيش الغربي فبسطوا لواء الإسلام وحكمه عليها وعلى مناطق أخرى من أرض طرابلس⁽²⁾.

وقد سيرَ أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه بعد وفاة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والذي تم فتح طرابلس في عهده، جيشاً ضمّ طائفة من كبار الصحابة، وخيرة شباب أهل البيت وفتياهم وأبناء المهاجرين تحت إمرة عبد الله بن سعد واليه على مصر؛ فمضى هذا الجيش ظافراً في فتح وتقوية النفوذ الإسلامي على برقة وطرابلس الغرب وما إليهما، وامتدَ سلطانه إلى أن وصل نهاية المغرب الأدنى «تونس» التي افتتحت في عهد الخليفة الثالث في سنة (647/27)⁽³⁾.

ولم يكتب للمغرب الأدنى، وفيه مشمولات تونس أن ينعم بمظلة الإسلام وعدالته وأمنه ومسواته منذ الفتح الإسلامي الأول على يد الفاتح عمرو بن العاص (642هـ/22هـ) وغيره بل تقلّبت أحوالها السياسية والأمنية والعقدية بتأثير من طموحات الزعامات المحلية، بين الاستسلام والانقياد لحكم الفاتحين تارة، والثورة عليهم وعلى ما جاؤوا به من دين تارة أخرى، مما جعل حركة الفتوحات والغزوات الظافرة ضد جحافل الكفر والتمرد تتواتى عبر عقود القرن الهجري الأول الذي شهد سلف مترجمنا بعض أحداثه.

(1) م. ن: 295.

(2) فتوح مصر وأخبارها: 296.

(3) المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس: 26، رياض النفوس 1:8 ومن المعروف أن المسلمين رجعوا إلى فتح إفريقيا وتونس سنة (45هـ/665).

فكانت الحملة الأولى المعروفة في نشر الإسلام وهدى به قيادة عبد الله بن أبي سرح سنة (27هـ/647) والثانية سنة (29هـ/649)، تلتها حملة معاوية بن حدیج سنة (34هـ/654)، وحملة شريك بن سمي الغطيفي سنة (40هـ/660) ثم تلتها حملة عقبة بن نافع الأولى سنة (41هـ/661) والثانية سنة (43هـ/663) والثالثة سنة (49هـ/669) والأخيرة في سنة (62هـ/681) ثم جاءت بعد ذلك حملات أخرى، وفتحات لنشر الدين القويم، والإخراج سكان هذه الديار المغربية من الظلمات مثل حملة زهير بن قيس سنة (69هـ/688) وحملة حسان ابن النعمان سنة (82هـ/701) وحملة موسى بن نصير على المغرب والأندلس سنة (85هـ/704) وفي سنة (95هـ/713) وغيرها من الحملات الإسلامية⁽¹⁾ التي استغرقت القرن الأول الهجري⁽²⁾، إلى أن استقر وظهر نور الإسلام الباهر على ظلام الكفر الطامن الدامس، واستظللت أرض طرابلس الغرب بظلال القرآن، وسنة خير الأنام، وبأنسام الهدایة الإسلامية المنعشة التي انبعثت بها من النفوس والربوع غيوم الديانات المحرفة الفاسدة، وقتمة سحب الزعامات الرومانية المستبدة الظالمة؛ فعاش أهلها ومن جاء إليهم من جنود الفتح الإسلامي في إخاء غامر، وتصاهر وانسجام عابر⁽³⁾.

وكان من هذا الجيل الذي عاش هذه الأجواء المفعمة بالروح الإسلامية والمودة – كما تدلُّ القرائن، جَدُّ مترجمنا الذي ينسب إليه والذي لا نزال نجهل أحواله ووظائفه، وإن كنا لا نجهل أنه أحد جنود المسلمين الذين فتحوا طرابلس الغرب في إحدى الحملات الإسلامية المذكورة، ثم استقر فيها وأقام إلى أن أدركته المنية، كما عاشها بعده ابنه والد علي بن زياد، الذي تزوج كسلفة – على

(1) يراجع في هذا: المؤنس في تاريخ إفريقيا وتونس لابن أبي دينار العبر لعبد الرحمن بن خلدون، أعمال الأعلام لابن الخطيب فتوح مصر لابن عبد الحكم، البيان المغرب لابن عذاري.

(2) يراجع: رياض النفوس، والمؤنس في أخبار إفريقيا وتونس وتاريخ المغرب العربي للدبوز، وتأريخ المغرب في العصر الإسلامي للدكتور السيد عبد العزيز سالم.

(3) يراجع: المصادر والمراجع المذكورة.

الراوح - إحدى بنات الأسر الطرابلسية في المدينة، والتي أنجب منها ولديه «علياً» وأخاه «يحيى» - كما سندكر.

بيد أنَّ الذي يعنينا من ذكر تلك الأحداث التاريخية في طرابلس، ما يتصل مباشرة بالقرن الثاني الهجري الذي ولد فيه علي بن زياد الطرابلسي، وواكب بعض سنواته وظروفه ودوله في بلاده طرابلس الغرب، وفي مهجره تونس وكلاهما دخلان ضمن المغرب الأدنى.

وخلالصَّة القول في هذا العهد السياسي، أنَّ مترجمنا عاشَ خلاله - كما سنبين - في ظلٍّ ولاة دولتين كبريين هما: الدولة الأموية من سنة (40هـ/660) إلى سنة (132هـ/749)، والدولة العباسية (132هـ/749) إلى سنة (665هـ/1266).

فقد تزامنتْ بدايةً فاعلية ابن زياد مع عهد الخليفة الخامس عمر بن العزيز⁽¹⁾ - رضي الله تعالى - عنه والذي ولَّ في المحرم من سنة (100هـ/718) على إفريقيا واليه إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر⁽²⁾ والذي كان من فضائله في خدمة الإسلام دعوته البربر إلى اعتناق دين الله وتوحيدِه، حتى قيل إنَّ بقية البربر أسلمت على يديه، وأنَّه لم يبق في ولايته أيٌّ مئذٌ من البربر أحدٌ إلا وقد أسلم⁽³⁾.

ومن الحكام الذين عُيِّنوا على طرابلس الغرب بعد أبي المهاجر، وأيضاً بعد وفاة الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز الوالي الأموي، «يزيد بن مسلم» الذي عينه الخليفة يزيد بن عبد الملك، وبشر بن صفوان وعقبة بن قدامة التجيبي اللذان عينهما الخليفة هشام بن عبد الملك، الذي كتب في حدود سنة (115هـ/733) إلى عامله في مصر عبد الله بن الجبّاح، يأمره بالمسير إلى المغرب

(1) يراجع المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس لابن أبي دينار الدولة الأموية للدكتور علي الصلايبي.

(2) معالم الإيمان 1: 203 فتوح مصر وأخبارها: 143 البيان المغرب 1: 148.

(3) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم: 143، ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية: 63.

الأدنى طرابلس الغرب وتونس، فنهض بتقسيم الولاية على بنيه وأنصاره في المغارب الثلاثة، واتخذ على الأندلس عامله عقبة بن الحجاج السلوقي، واحتفظ لنفسه بإفريقيا لقربها من ديار المشرق⁽¹⁾.

والحق أن بعض الولاة الأمويين في إفريقيا والأندلس قد جاروا - بعد وفاة الخليفة عمر عبد العزيز - على السكان واستطعوا في جورهم من حيث الإسراف في جعل الضرائب، وغزو البربر ونبي نسائهم، مما حضر هؤلاء على الثورة، وبخاصة ثورة عكاشة بن أبيه الفزاروي التي أتبعتها ثورات متفرقة في بلدان المغرب مثل ثورة ميسرة المدغري وغيره مما جعل الحاكم الأموي هشام بن عبد الملك، يستدعي عامله عبيد الله بن الحبحاب سنة (740هـ/123)، ويأمره بالفتكت بأصحاب تلك الثورات، مما نتج عنه الفتن الشديدة، والحروب المدمرة التي أزهقت فيها الأرواح، وأسالت الدماء، ودفعت الناس إلى الهجرة عن أوطنها، والرحيل منها إلى أماكن متفرقة ومختلفة في المشرق والمغرب⁽²⁾. وقد رجحنا أن مترجمنا الفقيه علي بن زياد نفسه، قد تأذى من هذا الوضع التاريخي السياسي الذي عاشه في طرابلس الغرب، ثم في تونس؛ فحملته شدة هذه الأزمة إلى الهجرة إلى المشرق، حيث أقام - كما سنين - زمناً في مصر والعراق والحجاج.

أما من حيث نظام الإدارة الإسلامية في القرنين الأول والثاني الهجريين اللذين أدرك الأول منهما سلفه، أي جده ووالده - على الراجح - كما أدرك مترجمنا جل القرن الثاني الهجري، فقد حافظت فيه الدولة الإسلامية: الخلفاء الراشدون وبنو أمية على نظام الإدارة الموروث عن الأنظمة السابقة، «إلى أن رسخ الحكم الإسلامي»؛ فبدأ بإدخال التعديلات والتغييرات التنظيمية والإدارية

(1) يراجع في ذلك: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي للدكتور السيد عبد العزيز سالم، وتاريخ المغرب العربي الكبير لمحمد علي دبوز وفتح العرب للمغرب للدكتور حسين مؤنس.

(2) تراجع المصادر والمراجع السابقة.

التي تتفق ومتطلبات العقيدة الإسلامية من ناحية، ومصلحة الشعوب الإسلامية من الناحية الأخرى»⁽¹⁾.

ومن الملاحظ أنَّ عليَّ بن زياد الطرابلسي كما أدرك وعاش في القرن الثاني الهجري الدولة الأُموية التي بسطت نفوذها في طرابلس الغرب وتونس، أدرك وعايش أيضاً في ذلك القرن الدولة العباسية التي عاش في ظلّها في ذنيك البلدين، وأيضاً في بلدان المشرق التي هاجر إليها كما سنوضح.

فقد تولَّ بنو العباس الحكم بعد العهد الأُموي، وألت إليهم الخلافة، وأظهروا الاهتمام بإفريقيا، فكان من ولاتهم عليها الوالي يزيد بن حاتم الذي ولاه أبو جعفر المنصور سنة (155/771) وعندما تولَّ الخلافة هارون الرشيد (170 - 193هـ) وجَّه ضمِّن عنایته بالشمال الإفريقي «روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب» في سنة (171هـ/787) كما كلف بقضاءها عبد الله بن عمر بن غانم المتوفى عام (190/805) وكان - رحمه الله (فقيهاً ورعاً وعالماً متقدماً مع فصاحة لسان وحسن بيان، وبعد بالعربية ورواية الشعر»⁽²⁾.

وقد تعاقَبَ بعد وفاة الوالي العباسي روح بن حاتم عام (174/790) جملة من الولاة العباسيين، يكفي أن نذكر منهم نصر بن حبيب المهلبي (174/177) والفضل بن روح بن حاتم (177/179هـ) وهرثمة بن أعين (179/181) ومحمد ابن مقاتل بن حكيم العكي (181/184) الذي توفي على بن زياد في عهده، وقد وصف هذا الوالي العباسي على إفريقيا بأنه «لم يكن بال محمود السيرة، فاضطربت أمره، واختلف جنده»⁽³⁾ ووقعت الثورة عليه من عامله بتونس تمام ابن تميم التميمي وانتهى الانفاض بعزل العكي، وتولية إبراهيم بن الأغلب على تونس سنة (195/800)⁽⁴⁾ أي بعد ستة تقريباً من وفاة ابن زياد.

(1) تاريخ ليبا الإسلامي للبرغوثي: 66.

(2) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب 1: 103.

(3) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: 86 - 92.

(4) م. ن.

المبحث الثالث

الأفق المعرفي الفكري

منذ أن دخل الإسلام الحنيف إلى ديار طرابلس الغرب وريوعها العامرة، صار أهلها يمتحنون، من معين علومه الثرّة، ويشربون من أمواه فهو مه الغزيرة، ويكونون من نمير ثقافته الخصبية المتنوعة؛ فقد أخذوا هذا التراث الراهن في البدء عن أجناده **الخمسة** الفاتحين، الذين كان بينهم جدُّ علي بن زياد وغيره من المدنيين، فاستفادوا منهم حفظ القرآن الكريم وروايته رواية الإمام ورش عن نافع التي هي رواية أهل المدينة المنورة – كما سنبين – ونقلوا عنهم السنة الشريفة وضبطوها، وعرفوا العبادات والأحكام من الصحابة والإعلام رضوان الله عليهم، ثم من تابعيهم وتبعي تابعيهم، وبخاصة الفقهاء العشرة الذين مرّوا وأقاموا بهذه الديار الطرابلسية وربو عنها في عهد خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز – رضي الله عنه – الذين بثوا في أوائل القرن الثاني الهجري الدين وعلومه في المغرب الأدنى طرابلس الغرب وتونس، ونشروا معارفه بين أهله وطالبيه؛ فقوى بدروسهم وإفتائهم الدين، وعمّ بمعتقدهم وسلوكهم اليقين يقول أستاذنا العلامة محمد الفاضل ابن عاشور: «وأقبل هؤلاء العشرة فأشاعوا الرشد، ويشوا العلم، وعلموا الحلال والحرام، وحرصوا على الأمن والتآخي والمؤسسة، وبيثوا دعوة الإسلام بين البربر، وضربوا لهم مثل العدل والحق والرحمة والسيرية الصالحة،

فكان إسلام البربر نهائياً من آثار هذه البعثة الكريمة، ومن مفاحر دولة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الذي انتدبه⁽¹⁾.

وما من ريب في أن جماعات أخرى من العلماء والرعاة قد أعقبت مجيء الفقهاء العشرة الذين جاؤوا في العهد الأموي على عهد عمر بن عبد العزيز، وما من ريب أيضاً في أن هذه الجماعات التي وفدت على المغرب الأدنى في أزمان مختلفة إلى العصر العباسي الذي أدركه مترجمنا علي بن زياد، قد أسهمت في إرساء دعائم العلم في المغرب الأدنى طرابلس وتونس، وفي تأسيس المؤسسات والمنائر في ربوعه، وتوسيع دائرة العلماء وحلقهم ودولاتهم، ولئن عرف الناس ظهور المدرسة العلمية في تونس على يد عالمها الشيخ خالد بن أبي عمران⁽²⁾ والذي ربما كان مترجمنا علي بن زياد أحد تلاميذه - كما سوف يأتي -؛ فإن كتب التاريخ أغفلت - في الغالب - ذكر ما ظهر في طرابلس الغرب من حركة فكرية ومعاهد العلم ومدارسه، وسكتت سكتة يكاد يكون تماماً عن ذكر العلماء والصلحاء الذين برزوا فيها خلال القرنين الأول والثاني الهجريين، وبخاصة ذكر العلماء المدنيين والمصريين الذين أقاموا في ربوعها، ونشروا فيها - حسب روایة الإمام سحنون بن سعيد - علوم الإسلام.

على أن ذلك الإغفال والسكوت المقصودين، أو غير المقصودين من المؤرخين وكتاب التراجم القدامى والمحديثين لا يجعلاننا نسلم - بحال من الأحوال - بالقول بانعدام وجود الحركة العلمية والفكرية النشطة والمزدهرة خلال القرنين المذكورين، وبيان دراس معاهد العلم ومدارسه في طرابلس الغرب وطن علي بن زياد، كما أنهما لا يحملاننا على التسليم بخلو هذا الوطن من العلماء الأجلاء فيها خلال ذينك القرنين وذلك لتوافر القرائن والشواهد التاريخية

(1) أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي : 11.

(2) يراجع في ذلك ما كتبه الشيخ محمد الشاذلي التيفري في دراسته وتحقيقه «قطعة من موطن ابن زياد» : 15 وما بعدها.

والشهادات العلمية الكثيرة والوفيرة الدالة يبراهينها على أن طرابلس الغرب كانت تشهد في ذينك القرنين تحولاً دينياً وعلمياً نامياً وتعيش نهضة فكرية نشيطة وخصبة .

فبعد أن ترسّخ في ربوعها دين الإسلام وثقافته بالجند الفاتحين من الصحابة والتابعين الذين كان آخرهم الفقيه العترة وغيرهم من العلماء الذين لا نزال نجهل أسماءهم ، انفتح زناد الفكر في طلبة العلم من أهل طرابلس فازداد شغفهم بالعلم وتحصيله ، وتوسّعوا في طلبه ونشره إلى اتسعت دائرة أهل العلم في وطنهم ، ثم اشرأبوا إلى تحقيق الرحلة العلمية إلى المشرق ، حيث أخذ بعضهم العلم في مصر والحجاج وأخذه آخرون في أراضي العراق ودياره فقد علموا - كما يُحدّث التاريخ - على توثيق السنّد العلمي بأعلام أصحاب المذاهب الفقهية الإسلامية ، وبخاصة المذهبين الإباضي والماليكي من المذاهب السنية السائدين في طرابلس .

فقد رحل الفقيه الإباضي أبو درار إسماعيل بن درار من مدينة غدامس التي هي من مشمولات طرابلس الغربية ضمن وفد علمي في القرن الثاني الهجري ، سُمي في تاريخ المذهب الإباضي «حملة العلم» ، وهو الوفد الذي قصد في رحلته مدينة البصرة⁽¹⁾ بالعراق لتوثيق سنده العلمي الفقهي الإباضي بسنده علماء البصرة الكبار فيها⁽²⁾ .

كما اتجه من فقهاء المالكية عهديز الفقيه علي بن زياد الطرابلسي مع جملة من طلبة العلم إلى مصر أولاً ثم إلى الحجاج والعراق لأخذ الفقه عن إمام المذهب مالك بن أنس وغيره من العلماء من تلاميذه لتوثيق سنده العلمي الفقهي بأسانيدهم العلمية الرفيعة .

(1) يراجع في مدرسة البصرة وأعلامها كتاب «الدولة الأموية» للدكتور علي الصلاibi ، ومحاضرات تاريخ الأمم الإسلامية لمحمد الخضري .

(2) يراجع في ذلك كتاب «الإباضية في موكب التاريخ» للأستاذ علي يحيى وكتاب «دراسات عن الإباضية» للدكتور عمرو خليفة .

ومن الإشارات التاريخية المهمة والمفيدة في هذا السياق الذي يدلّ على حيوية الحركة الفكرية في طرابلس الغرب في القرن الثاني الهجري ما حدثنا به المصادر أيضاً عن عالم آخر كان معاصرًا في الغالب لعلي بن زياد من أهل طرابلس الغرب هو الفقيه محمد بن معاوية الطرابلسي الذي أخذ العلم عن الإمام مالك⁽¹⁾، وكان كابن زياد من رواة موظاه، وقد ضاع موظاه - رحمة الله - ولم يتبقَ منه شيء⁽²⁾.

ومما يؤكد ازدهار طرابلس الغرب، ونشاط الحركة العلمية والفكرية فيها في القرنين الأول والثاني، ويؤكد أنها كانت - على خلاف ما أراده المؤرخون غير المنصفين - بيئة فكرية حاضنة للعلماء الوافدين الطارئين عليها - وأيضاً لعلمائها وطلاب العلم فيها من الأصلاء أنَّ رحلة ابن زياد لم تكن رحلة متفردة من طلاب العلم في اطرابلس الغرب في القرن الثاني الهجري، بل انطلقت معها رحلات أخرى للطلاب والمتعلمين توجهت هي الأخرى إلى المدينة المنورة ومكة لأخذ العلم عن الإمام مالك وغيره من علماء الحرمين الشريفين، ومن تلك الرحلات التي أبرزتها هذه البيئة الولود، رحلة أبي سليمان الطرابلسي⁽³⁾ ورحلة محمد بن ربيعة الحضرمي اطرابلسي⁽⁴⁾.

والحقُ إنَ ازدهار البيئة العلمية، وانتشارها وازدهار المحيط المعرفي والفكري في طرابلس الغرب لم يكن لاحقاً لمرحلة هذه الحالات العلمية التي قام بها فقهاء الإباضية والمالكية، ورحلوا فيها إلى أمصار الشرق، بل كانت - كما قدمنا - سابقة عليها إذ ظهر في أجواها قبل ذلك، وحسب شهادة الفقيه العلامة سحنون بن سعيد⁽⁵⁾، أَحد تلاميذ مترجمنا عليٍّ بن زياد الطرابلسي أعلام

(1) أعلام ليبيا: 356، قطعة من موظا ابن زياد: 79. قطعة من موظا ابن زياد: 63، 71، 79، 80.

(2) ترتيب المدارك وتقريب المسالك 3: 323.

(3) تراجع كتب «علماء أفريقيا» و«رياض النفوس» و«معالم الإيمان» و«ترتيب المدارك».

(4) ترتيب المدارك 2: 197.

(5) ستائي ترجمته ضمن الحديث عن تلاميذ الإمام علي بن زياد، وراجع ترجمته في طبقات =

كبارُ في الفقه والعلم، ورجالاتٌ مشاهيرٌ في علم القوم والحديث والتصوّف، ينتمي بعضُهم في أصوله إلى المدينة المنورة، كما يتّممي مذهبياً إلى الفقه المالكي، ويُعدُّ - حسب شهادته - من رواهاته، قال محمد بن سحنون بن سعيد: «وقال لي أبي: إذا أردتَ الحجَّ تقدم اطربلس، وكان فيها رجال مدنيون ومصريون وفيها الرواة، وفيها فقه مالك»⁽¹⁾.

وقال سليمان بن سالم التونسي، أحد تلاميذ الإمام سحنون بن سعيد المذكور «لما أردت الخروج إلى الحجَّ، قال لي سحنون: إنك تقدم اطربلس، وقد كان فيها رجال»⁽²⁾ وفي رواية «ترتيب المدارك للقاضي عياض» «رجال مدنيون»⁽³⁾ يقصد من أهل المدينة المنورة؛ فقد حكم الإمام سحنون بن سعيد تلميذ الفقيه علي بن زياد في الروايتين اللتين رواهما بابنه محمد وتلميذه سليمان ابن سالم بأنَّ اطربلس كانت على عهده بل قبل عهده مدينة إسلامية، حافلة برجال العلم من أهل المدينة المنورة الذين كانوا يُسمون المدنيين وأيضاً أهل مصر⁽⁴⁾، كما أنَّها كانت حافلة بالبلديين من فقهاء المذهب المالكي ورواته، وآيةُ هذا الازدهار في رواية الموطاً والعنابة بالفقه المالكي في طرابلس الغرب ظهور الفقيه محمد بن معاوية الطرابلسي الذي أشرنا قبل قليل إلى رحلته إلى الحرمين الشريفين، ثمَّ أخذَه العلم عن الإمام مالك في المدينة المنورة، مثل غيره من طلاب العلم في مدينة طرابلس مثل صنوه علي بن زياد.

وقد كانت رواية المحدث والفقیه الطرابلسي محمد بن معاوية هذا معدودة

= علماء إفريقيا: 81، ترتيب المدارك 1: 326، 328 - رياض النفوس 1: 346، 347 معالم الإيمان في أهل القبروان 2: 77.

(1) معالم الإيمان 2: 83. ترتيب المدارك 1: 326 - 329 رياض النفوس 1: 353.

(2) رياض النفوس 1: 353.

(3) ترتيب المدارك 1: 326 - 329، الحلول السندينية في الأخبار التونسية 1: 775.

(4) معالم الإيمان 2: 83.

من ضمن الروايات المعتمدة والمعتبرة في موطن الإمام مالك بن أنس، إذ أخذها عنه كابن زياد الطرابلسي مباشرة، وقد ذكرها ابن طولون في الفهرست الأوسط⁽¹⁾ ضمن أسانيد الموطن الأربع والعشرين، وأثنى الماليكي على رواية محمد بن معاوية الطرابلسي، وقرر أن فيها الزيادة⁽²⁾، مما يدل على اطلاعه على روايته، قال الشيخ المحقق محمد الشاذلي النيفر: «قلت: يدل على أنه من طرابلس الغرب أن القاضي عياضًا ذكره ضمن الأفارقة من الطبقة الوسطى من تلاميذ مالك، ولو كان من طرابلس الشام لذكره من أهل الشام»⁽³⁾.

ولذلك ليس بممكنة أيّ كاتب من الكتاب الذين يحترمون حقائق التاريخ أن يعمد إلى ركوب المركب الصعب، فينفي ظلماً وجوراً - مع وجود هذه الشهادة المنصفة للإمام سحنون بن سعيد التونسي - وكان قريباً عهداً، بل معايشة للبيئة الفكرية والمعرفية في طرابلس الغرب - ومع وجود العلماء الأعلام من أمثال محمد بن معاوية الطرابلسي وعلي بن زياد الطرابلسي وغيرهما في القرن الثاني - استقرار الدين الإسلامي في ربوع طرابلس الغرب أو اطرابلس، وازدهار علومه وفقهه في ربوعها خلال القرنين الأول والثاني الهجريين، ليثبت ذلك كلّه متخيّراً لأمصار أخرى، دخلها الإسلام - كما يحدّثنا التاريخ - في تاريخ لاحق للتاريخ الذي أشرقت فيه شمسه في هذه الربوع اطرابلس.

والحق أنّ مترجمنا لم يقتصر من أجواء الحركة الفكرية والمعرفية على ما استفاده من البيئة العقلية التي كانت سائدة في وطنه طرابلس الغرب، بل استفاد أيضاً - كما يقرّر بعض الباحثين من تونس ومدرستها الفقهية والعلمية التي تأسست بالشيخ خالد أبي عمران التونسي⁽⁴⁾ وذلك قبل رحيله إلى بلاد المشرق

(1) يراجع الفهرست الأوسط: لابن طولون.

(2) رياض النقوس 1: 204.

(3) قطعة من موطن ابن زياد: 79.

(4) ترتيب المدارك 3: 80 قطعة موطن ابن زياد: 32 موسوعة أعلام العلماء: 385: 11، 386.

الذي هاجر إليه بعد عودته إلى وطنه من تونس؛ حيث وجد فيه حياة فكرية ومعرفية خصبة، بل أكثر خصباً وأصالة فاستفاد من ازدهار العلم في مصر حيث أخذ عن شيخيها الليث بن سعد وزميله ابن لهيعة، كما استفاد من خصوبة الحياة العقلية بالعراق بالأأخذ من شيخها المشهور سفيان الثوري وغيره من أعلام المدرسة البغدادية ممن نجهل أسماءهم⁽¹⁾.

أما المدينة المنورة - على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم، والتي يبدو أن أكثر أيام بل سنوات إقامة ابن زيد كانت في ربوعها المباركة، فقد كانت منذ إشراق الإسلام في معانيها من أكثر بلاد هذا الدين خطأً بالهدایة والعلم لكثره عمرانها بالعلماء الأعلام، والصلحاء الأتقياء، والحفظ والرواة الثقات، الذين أخذوا العلم عن الصحابة الأجلاء، وأعلام المدينة الأفذاذ.

وقد أخذ مترجمنا علمه في هذه الأجواء، وتلقى تعليمه عن بعض شيوخها الأمثل المجهولين لدينا، وعن المشهورين المبرزين الذين كان إمام دار الهجرة وعالمها مالك بن أنس في مقدمتهم - كما سنوضح.

بيد أن بغداد وما صاحبها من مدن، والتي رحل إليها أيضاً عليُّ بن زيد الطرابلسي في تاريخ لا نزال نجهله لم تكن أقلَّ خطأً في النشاط العلمي، والعطاء الفكري والفقهي من المدرسة المدنية، فقد كانت حافلة بأعلامها الكثر، و مجالسها العلمية الدفق التي غدت بها بيئة فكرية متميزة، مقصورة بالرحلة والأخذ ليس في المذهب المالكي الذي أصَّلت المدرسة البغدادية أصله وفقهه⁽²⁾، بل في المذهب الإياضي⁽³⁾ وغيره من المذاهب التي أثراها علماء العراق في القرن الثاني بالبحث والتأصيل.

(1) تراجع أسماء أعلام هذه المدرسة في كتاب: «المدرسة البغدادية للمذهب المالكي» للدكتور محمد العلمي.

(2) يراجع كتاب «المدرسة البغدادية للمذهب المالكي» للدكتور محمد العلمي.

(3) يراجع كتاب «الإياضية في موكب التاريخ» وكتاب «دراسات عين الإياضية» ومن المراجع القديمة المهمة، كتاب «السير» للشماخي، و«طبقات الإياضية» للدرجيني.

وقد أَلْفَ الدَّكتُورُ مُحَمَّدُ الْعَلَمِيُّ كِتَابًا قِيمًا جَعَلَ عَنْوَانَهُ «الْمَدْرَسَةُ الْبَغْدَادِيَّةُ لِلْمَذْهَبِ الْمَالِكِيِّ» أَبَانَ فِيهِ عَنْ طَبِيعَةِ هَذِهِ الْمَدْرَسَةِ وَأَعْلَامِهَا وَأَثْرَهَا فِي تَأصِيلِ الْمَذْهَبِ فِي بَغْدَادِ الَّتِي زَارَهَا مُتَرَجِّمُنَا وَمَكَثَ فِيهَا زَمْنًا.

وَعِنْدَمَا عَادَ عَلَيُّ بْنُ زِيَادَ مِنَ الْمَشْرُقِ إِلَى دِيَارِ الْغَرْبِ الْإِسْلَامِيِّ، وَبِخَاصَّةٍ إِلَى طَرَابُلسِ الْغَرْبِ مَسْقُطَ رَأْسِهِ، ثُمَّ رَحِيلَهُ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْهُ إِلَى تُونِسَ، شَهَدَ بِلَا رِيبٍ حَرْكَةَ النَّقلَةِ مِنَ الْعَهْدِ الْأُمُوِّيِّ إِلَى الْعَهْدِ الْعَبَاسِيِّ، كَمَا شَهَدَ عُودَةَ حَمْلَةِ الْعِلْمِ مِنَ أَهْلِ الْمَغْرِبِ إِلَى دِيَارِهِمْ، أَعْنَى أَتَبَاعِ الْمَذْهَبِيْنِ السَّنَّيِّينِ الْمَالِكِيِّ وَالْإِبَاضِيِّ، وَمَا عَمِلُوا عَلَى بَشَهُ وَنَشَرِهِ مِنْ فَقْهِ الْمَذْهَبِيْنِ، فَنَشَطَتِ الْحَرْكَةُ الْفَكْرِيَّةُ وَالْمَعْرِفِيَّةُ فِي عَهْدِهِ بِهَذَا الْحَوَارِ الْفَقَهِيِّ السَّنَّيِّ، وَانْضَافَ إِلَيْهِ مَا تَوَلَّدَ عَنِ الْخَلْفَاتِ الْدِينِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ فِي الْمَشْرُقِ، وَالَّتِي نَشَأتَ عَنْهَا فَرَقٌ سِيَاسِيَّةً وَدِينِيَّةً مِثْلُ الْخَوَارِجِ وَالصَّفَرِيَّةِ وَغَيْرَهَا مِنَ الْمَذاهِبِ الَّتِي وَصَلَّ صَدَاهَا إِلَى الْمَغْرِبِ الْأَدْنِيِّ وَإِلَى مَا وَرَاءَهُ حَتَّى «اَنْتَشَرَتْ حَرْكَةُ الْخَوَارِجِ بِطَوَافَهَا وَأَفْكَارَهَا بِسُرْعَةِ بَيْنِ قَبَائِلِ الْبَرِّ وَحَتَّى بَلَادِ الْأَنْدَلُسِ الَّتِي كَانَتْ فِي ذَلِكَ الْعَهْنِ تَابِعَةً لِإِمَارَةِ الْقِيرَوَانِ»⁽¹⁾ كَمَا ظَهَرَتْ طَوَافَهَا مِنَ الشِّيَعَةِ الَّتِي كَانَ لَهَا أَثْرٌ بَعِيدٌ فِي النَّاحِيَةِ الْدِينِيَّةِ وَالْسِيَاسِيَّةِ فِي الأَقْطَارِ الْمَغَارِبِيَّةِ.

* * *

(1) هذه تونس: 42، 43.

الفصل الثاني

أطوار الحياة الخاصة

إنَّ من الخطأ البَيِّن الذي ظهر في مساقات الدراسات والبحوث التأثُّرية المتهازة، ما أُوحِّت به – دون برهان – من خلال تصوّرها الضيق أنَّ الفقيه علىَ بن زياد الطرابلسي – إذا سلَّمت بطرابلسيته – أنه قد ولد في طرابلس الغرب، وانتقل أو انتقل به منها سريعاً منذ ولادته أو منذ نعومة أظفاره إلى تونس، ثم خيَّل أصحاب تلك الدراسات والبحوث للمتلقين من خلال إشاراتهم العجلُى أنَّ ابن زياد نشأ بعد ذلك في تونس، وتلقى علومه في ربوعها، ثم رحل منها مُدَّة إلى الشرق، ليعود إلى تونس بعد زمن قصير ليُمكِّن فيها وينهض بالتدريس والإقراء والجمع والتَّأليف إلى حين وفاته فيها، فيستهي بِهم هذا المسرد غير الموثق إلى نتيجة واحدة، وهي أنَّ ابن زياد تونسي، تربى ونشأ ثم توفي فيها.

وفي الحقٍّ فإنَّ تلك الدراسات والبحوث التي لا تسندها – كما ذكرنا – الوثائق والأدلة الكافية والمقنعة في ذلك التصوّر المتعجل الضيق الذي غلبت فيه – بتخييلها – زمن المرحلة التونسية على جميع المراحل، وسائل الأطوار في حياة هذا الفقيه المالكي علي بن زياد الطرابلسي، تحتاج منا إلى شيءٍ من المراجعة والتوقف للثبت، وتأصيل أطوار هذه الحياة.

والقول الذي نطمئنُ إليه في تصوُّر هذه الحياة الحافلة ومراحلها، ويحسن

بالمؤرخين والباحثين أن يطمئنوا إليه، وأن يسلّموا أنَّ حيَاةَ ابن زِياد قد مرَّت بثلاثة أطوار متمايزة المعالم، واضحة الضوء بمعطياتها، وقد أسهمت جميعها بمكوناتها في تشكيل فكره ومعرفته، وفي أشكال عطائه وأثره، وهذه الأطوار هي: الطور الطرابلسي والطور المشرقي والطور التونسي.

ولكنا نؤثِّر أن نتحدث عن هذه الأطوار جميعاً بعد التمهيد لها بمبحث نتناول فيه أولية علي بن زياد واسمها ونشأته.

* * *

المبحث الأول

أوليته واسمها ونشأتها

تجمع المظان القديمة، والمراجع الحديثة، وما تهذى إليه بحثنا في أولية هذه الشخصية الرائدة علي بن زياد أن المعلومات حول أوليته، والحقائق المتصلة بسلفه معلومات قليلة وشحيحة بل نادرة، وتکاد تكون منعدمة، لولا إشارات احتفظت بها تلك المظان، وومضات أبقيت عليها المصادر المعتمدة، وهي وحدتها التي عولت عليها الدراسات حول هذه الشخصية في القديم والحديث.

فنحن إلى الآن نجهل الكثير من تلك الحقائق الموضوعية المتعلقة بحياة والد المترجم به وبحياة جده بل أجداده وأخوته، وتكوينهم وما أثروا به في حياته ولكن لا خلاف بين المصادر القديمة والمراجع الحديثة في الكثير من الحقائق المتصلة بشخصية هذا الفقيه الطرابلسي الرائع من حيث اسمه وكنيته، وتكوينه المعرفي ورحلاته والكثير من أخباره وأثاره؛ وإنما الذي ظهر الخلاف فيه: مرجع أعراقه وأصوله، كما ظهر الخلاف المفتعل أيضاً في نسبته إلى الوطن الذي يعود إليه، هل هو طرابلس الغرب أو تونس.

ولا ريب في أن سبب هذا الاختلاف بين أولئك الإخباريين والتاريخيين في القديم والحديث إنما يرجع إلى أهمية هذا الفقيه المالكي الرائد، وإلى عظم

فضله ومكانته. ودوره العقدي والديني مما حفز كل فريق من الفرقاء إلى محاولة ادعائه وضممه إليه.

ولذلك فقد آثرنا أن نبدأ هذا المبحث بالحديث عن المنطلق الذي لا خلاف حوله، وهو اسمه وكنيته وأوليته، ثم ننطلق بعد ذلك إلى غيره، إذ لا خلاف بين تلك المصادر جميعها في أنَّ اسم هذا الفقيه الرائد هو «علي بن زياد»⁽¹⁾ وأنَّ كنيته «أبو الحسن»⁽²⁾ ثم لا شيء يذكر بعد ذلك في أسماء آبائه وأجداده، ولكنَّ الخلاف واقع بين تلك المصادر – كما ذكرنا – في نسب هذا الفقيه وجده، هل هو من أعراق عربية صميمة، أو من أعراق أعجمية فارسية خالصة؟ وأيضاً في أصل موطنه الجغرافي، ومرد مسقط رأسه ومرباءه، هل هو من طرابلس الغرب اعتباراً للمولد والمنشأ، أو من تونس التي استقرَّ فيها في آخريات حياته، وتوفي ودفن في أرضها؟⁽³⁾

فمن الإخباريين والتاريخيين من نسبة إلى أصول أعجمية⁽⁴⁾ فارسية بإطلاق، ومنهم من أرجع نسبة إلى أجدام عربية صريحة بإطلاق.

فمن الدين قالوا بأصله العجمي شرحبيل قاضي طرابلس الذي كلفه سحنون بن سعيد بالقضاء فيها قال أبو العرب في كتابه: «طبقات علماء إفريقيا وتونس» بما يشير إلى ذلك المعنى وحدثني جبلة بن حمود، قال: «سمعت سحنون بن سعيد يسأل شرحبيل قاضي طرابلس عن أصل علي بن زياد، فقال: كشفنا عن أصله، فإذا هو من العجم»⁽⁵⁾.

ومن سلَّم بهذا الأصل صلاح الدين خليل الصفدي حيث قال جامعاً بين

(1) يراجع: ترتيب المدارك 1:326، طبقات علماء إفريقيا: 98 تراجم أغلبية: 21 نفحات النسررين والريحان: 66، أعلام الفكر الإسلامي: 24، طبقات علماء إفريقيا وتونس: 220.

(2) طبقات علماء إفريقيا: 98، ترتيب المدارك 1:326، تراجم أغلبية: رياض النفوس 1:234.

(3) ترتيب المدارك 1:326، طبقات علماء إفريقيا وتونس 1:220.

(4) م.ن. 1:326.

(5) طبقات علماء إفريقيا وتونس: 222، رياض النفوس 1:234.

الأصلين: «علي بن زياد التونسي الفقيه أبو الحسن العبسي شيخ العرب، أصله من بلاد العجم»⁽¹⁾.

كما أشار إلى هذه النسبة أيضاً القاضي عياض في كتابه: «ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك» بشيء من التشكيك والتضعيف حيث قال: «وقيل أصله من العجم»⁽²⁾.

بيد أنَّ الرأي الراجح عند القاضي عياض الذي شكَّل في أجممية النسب، أو النسب الأجممي أنَّ أوليَّة علي بن زياد، وأصوله عربية⁽³⁾.

وقد اعتمد القاضي في ذلك الذي ذهب إليه على ما ذكره ابن شعبان وغيره، حيث قرروا أن نسبته إلى قبيلة «عبس» العربية، فقد صرَّح القاضي عياض بذلك بعد التضعيف لعجمته، والشك فيها بقوله: «هو من عبس»⁽⁴⁾.

وهذا الترجيح هو الذي اعتمدَه أغلب العلماء المحدثين، قال الأستاذ المؤرخ التونسي حسن حسني عبد الوهاب «علي بن زياد العبسي»⁽⁵⁾ وذكر الشيخ محمد الشاذلي النيفر «بأنه عبسي من جهة الولاء»⁽⁶⁾ وقرر أنَّ «الأقرب إلى أنه من عبس غطfan؛ لأنَّ الأكثريَّة في النسبة إليها دون غيرها»⁽⁷⁾.

وقال الشيخ الطاهر أحمد الزاوي «علي بن زياد العبسي»⁽⁸⁾ وقد قرر هذه النسبة أيضاً العلامة المبرور الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور حيث قال: «كان

(1) الوافي بالوفيات 21: 82.

(2) ترتيب المدارك 1: 326، وذكره أيضاً صاحب كتاب رياض النفوس 1: 234 – 237 وصاحب كتاب جمهرة تراجم الفقهاء المالكية 2: 850، 851.

(3) ترتيب المدارك 1: 361، جمهرة الفقهاء المالكية 2: 850.

(4) ترتيب المدارك 1: 326، تراجم أغلبية: 21، 22.

(5) مجلمل تاريخ الأدب التونسي: 38.

(6) (7) قطعة من موطن ابن زياد: 30.

(8) أعلام ليبيا: 260.

أبو الحسن عليّ بن زياد عربياً من قبيلة عبس على ما صرّح به أكثر مترجميه،
واعتمده عياض في المدارك»⁽¹⁾.

وقد ذهب هذا المذهب التوفيقي من القدامى صلاح الدين خليل الصفدي
كما تقدم - حيث قال: «عليّ بن زياد التونسي !! الفقيه أبو الحسن العبسي شيخ
العرب، أصله من بلاد العجم»⁽²⁾.

كما ذهب الشيخ محمد الشاذلي النifer من المحدثين مذهبًا جيداً في هذا
التوفيق والجمع حيث قال: «ويمكن التوفيق بين الأمرين بأنه عبّسي من جهة
الولاء، فإذا ما اشتهر أنه عبّسي، وهو في الحقيقة من العجم لم يكن تضارب
بين الأمرين»⁽³⁾ وقال: «والأقرب أنه من عبس غطفان؛ لأنَّ الأكثريَّة في النسبة
إليها دون غيرها»⁽⁴⁾.

وكما اختلفت الكلمة في النسبة العرقية لمترجمنا، ثم انتهت عند الشيخ
النifer إلى التوفيق المقبول، اختلفت أيضاً في نسبة مترجمنا إلى الإقليم الذي ولد
فيه ونشأ، كما ولد فيه سلفه وأوله ونشأ بعد مجيء جده من شبه الجزيرة العربية
ضمن جند الفتح الظافر المبارك إلى شمال إفريقيا ومنه مدينة طرابلس الغرب،
التي لا خلاف بين العلماء المنصفين في أنه وسلفه منسوب إليها نسبة حقيقية، لا
يمكن أن يماري فيها.

ولكنَّ جملة من العلماء والمؤرخين القدامى والمحدثين لم يتبيّنو تلك
النسبة الصحيحة الصريحة أو حاولوا تجاهلها؛ فنسبوه في آثارهم صراحةً وبلا
برهان مقنع إلى تونس، وأكدوا نسبته إليها «التونسي» معتمدين في تقرير ذلك
على أنه رحل إليها واشتهر فيها، ثم توفي في قصبتها.

(1) أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي : 24.

(2) الروافي بالوفيات 21: 82.

(3) قطعة من موطاً ابن زياد : 30.

(4) م.ن: 30.

وربما كان أول الذاهبين لهذا المذهب من المؤرخين في هذا التنسيب الخاطئ، أبو العرب أحمد بن تميم القيرواني التونسي المتوفى عام (944/333) حيث قال في تعريفه: «أبو الحسن عليّ بن زياد من أهل تونس»⁽¹⁾ وأبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد الخشنبي المتوفى عام (971/361) الذي قال بتونسية ابن زياد مستنداً في ذلك على ما قاله أبو العرب «قال أبو العرب: أبو الحسن عليّ بن زياد من أهل تونس»⁽²⁾. وأبو بكر عبد الله المالكي المتوفى عام (1081/474) الذي كنى ابن زياد وسمّاه ثم نسبه إلى جدهم العربي ثم إلى تونس كالسابقين حيث قال: «ومنهم أبو الحسن عليّ بن زياد العبسي التونسي - رضي الله تعالى عنه»⁽³⁾ ثم سار بعدهم الكثير من المؤرخين الذين عرفوا في القرون اللاحقة بالقول بهذه النسبة الجغرافية إلى تونس، والتي تنوّسّيت فيها طرابلس الغرب مسقط رأس عليّ بن زياد الحقيقي، والذي نشأ فيه وتعلم - اتباعاً لمن سبقهم من المؤرخين التونسيين دون بذل الجهد في التحقّق من مكان ميلاد ابن زياد وحياته التي تقاسمتها مع وطنه طرابلس - كما سُذكر - بعض الدول المشرقة، وأخيراً تونس.

نذكر من هؤلاء المؤرخين - حسب التراتبية التاريخية القاضي عياض السبتي (1149/544)⁽⁴⁾ وأبا محمد التجاني (708/1308)⁽⁵⁾ وصلاح الدين خليل الصفدي (764/1265)⁽⁶⁾ ثم تلاميذه الوزير محمد بن محمد السراج التونسي⁽⁷⁾ وأحمد بن أبي الضياف (1291/1874)⁽⁸⁾ ومحمد مخلوف (1864/)

(1) طبقات علماء إفريقيا وتونس: 220.

(2) طبقات علماء إفريقيا: 98.

(3) رياض النفوس 1: 234.

(4) ترتيب المدارك وتقريب المسالك 1: 326.

(5) رحلة التجاني: 271.

(6) الوافي بالوفيات 21: 82.

(7) الحلل السنديّة في الأخبار التونسيّة 1: 708.

(8) إنعاف أهل الزامن 1: 125.

(¹) 1941 ومحمد النifer (1911/1330)⁽²⁾ ثم من انتهج نهجهم من العلماء والمؤرخين المحدثين من أمثال العلامة محمد الخضر حسين⁽³⁾ المؤرخ التونسي حسن حسني عبد الوهاب (1388/1968)⁽⁴⁾ والشيخ محمد الشاذلي النifer (1419/1998)⁽⁵⁾ والأستاذ أبو ذينة⁽⁶⁾ وأخيراً الدكتور هشام قريشة في بحثه المنشور بموسوعة «أعلام العلماء والأدباء المسلمين» الصادرة عن منظمة الألكسو⁽⁷⁾.

فقد قال القاضي عياض بما قاله من سبقة من هذه النسبة إلى تونس⁽⁸⁾.

وقال أبو محمد التجانى أيضاً: «عليٌّ بن زياد الفقيه التونسي - رحمه الله»⁽⁹⁾. وقال العلامة صلاح الدين الصفدي: «عليٌّ بن زياد التونسي الفقيه»⁽¹⁰⁾.

وقال الوزير السراج: «ومنهم ولیُّ الله العلامة أبو الحسن علي بن زياد التونسي العبيسي»⁽¹¹⁾، وقال مؤكداً ما اعتمدته من الحكم الذي سبق إليه صاحب الطبقات: «قال أبو العرب: علي بن زياد من أهل تونس، ثقة مأمون خير متبعه بارع في الفقه ومن يخشى الله - عز وجل - مع علوه في الفقه»⁽¹²⁾.

(1) شجرة النور الزكية: 60.

(2) يراجع كتاب «عنوان الأريب عما نشأ بالبلاد التونسية من عالم أديب».

(3) تونس وجامع الزيتونة: 7، 17.

(4) ورقات عن الحضارة العربية بأفريقيا 3، 41، 42، 47، 408.

(5) قطعة من موطن ابن زياد: 27.

(6) مشاهير التونسيين: 385.

(7) موسوعة أعلام العلماء والأدباء المسلمين 11: 385.

(8) ترتيب المدارك: 3: 83.

(9) رحلة التجانى: 271.

(10) الوافي بالوفيات 21: 82.

(11) (12) الحلل السنديبة في الأخبار التونسية 1: 708.

وذهب إلى القول بذلك المؤرخ التونسي أحمد بن أبي الضياف فقال في إتحافه: «عليٌّ بن زياد التونسي»⁽¹⁾.

كما قال أيضاً في تقرير الحرص على تونسية ابن زياد: «ورأيت أن أرصنع هذا الكتاب بترجمته، لأنني رأيت كثيراً من عامة بلدنا، يجهلون مقامه، وهو من مفاسخ تونس»⁽²⁾.

كما ذكر هذه النسبة التونسية أيضاً المؤرخ التونسي محمد مخلوف حيث قال: «أبو الحسن علي بن زياد التونسي»⁽³⁾.

كذلك حرص على ذكر هذه النسبة أو التونسة، أي نسبة علي بن زياد إلى تونس عدد من العلماء والمؤرخين المحدثين كالأستاذ حسن حسني عبد الوهاب في بعض مؤلفاته، فقد قال في كتابه: «مجمل تاريخ الأدب التونسي»: «عليٌّ بن زياد العبسي من أبناء مدينة تونس»⁽⁴⁾، وذكر ذلك أيضاً في كتابه: «ورقات عن الحضارة العربية بإفريقيا: «عليٌّ بن زياد التونسي من أبناء مدينة تونس»⁽⁵⁾ ييد أن الحقيق بالذكر والتنويه أن هذا الأستاذ المؤرخ لم يحصر في كتابه «ورقات عن الحضارة العربية بإفريقيا» وهو كتاب متقدم في التاريخ وفي «كتاب العمر» - وهو كما هو معروف - من آخر ما صدر من تأليفه - على ذكر ابن زياد من أعلام تونس⁽⁶⁾، ولم ينسبة إليها كما فعل في مؤلفاته السابقة.

ومن الذين أصرّوا على هذا التنسب إلى تونس وحرصوا عليه الشيخ محمد الشاذلي النيفر، حيث قال في مواضع كثيرة من تحقيقه لموطأ ابن زياد -

(1) (2) إتحاف أهل الزمان 1: 125.

(3) شجرة النور الزكية: 60.

(4) مجمل تاريخ الأدب التونسي: 38.

(5) ورقات عن الحضارة العربية بإفريقيا 1: 26.

(6) راجع كتاب العمر في المواضع المختلفة التي ورد فيها اسمه غير منسوب لتونس ورقات 1: 26.

بتونسيته منها قوله: «وأما التونسي فهو ابن زياد الذي بث في المغرب المالكية؛ فعممت جميع أقطاره بدون استثناء»⁽¹⁾.

كذلك الأستاذ محمد بودينة صاحب كتاب «مشاهير التونسيين» حيث قال: «من مشاهير أهل العلم والفتوى بإفريقيا»⁽²⁾.

وآخر القائلين بهذه النسبة من التونسيين الدكتور هشام قريشة في البحث الموجز الذي نشره أخيراً في موسوعة أعلام العلماء والأدباء المسلمين حيث قرر فيه وأكده تونسية ابن زياد، حيث قال: «ابن زياد أبو الحسن علي التونسي»⁽³⁾.

وقد تبعهم من غير التونسيين في القول والتسليم بنسبة الفقيه أبي الحسن علي بن زياد إلى تونس المحروسة نفر من العلماء الأجلاء، مثل خير الدين الزركلي (1396/1976) صاحب كتاب «الأعلام» حيث قال: «عليٌّ بن زياد العبيسي التونسي»⁽⁴⁾ والأستاذ عمر رضا كحالة: في قوله: «عليٌّ بن زياد التونسي (أبو الحسن)»⁽⁵⁾ والأستاذ الدكتور فؤاد سزكين في قوله: «هو أبو الحسن علي بن زياد التونسي»⁽⁶⁾. وغيرهم⁽⁷⁾.

ومن الغريب أن يذهب هذا المذهب شيخنا محمد عبد الغني الباچقني في محاضرته «نشوء المذهب المالكي وانتشاره» التي ألقاها في يوم الاثنين بتاريخ 15/4/1968 في معهد أحمد باشا الديني بطرابلس⁽⁸⁾.

وأنت تلحظ بجلاء أن أولئك العلماء جمِيعاً من القدماء والمتَّخرين، ومن

(1) قطعة من موطن ابن زياد: 27 ويراجع فيه الصفحات المتفرقة بعد هذه الصفحة.

(2) مشاهير التونسيين: 385.

(3) موسوعة أعلام العلماء والأدباء المسلمين 11: 385.

(4) الأعلام 4: 289.

(5) معجم المؤلفين 7: 96.

(6) تاريخ التراث العربي 2: 132.

(7) مثل ميكلوس موراني والدكتور شاكر مصطفى.

(8) في مكتبتي الخاصة نسخة من هذه المحاضرة التي لم تطبع.

المغاربة والمشارقة منذ عهد الشيخ أبي العرب محمد القيرواني، إلى فؤاد سزكين والشيخ محمد عبد الغني الباچقني، قد تأثروا بالمذهب الخاطئ الذي قال به بعض القدامى، وتجاهلوا - بكلّ أسف - ذكر نسبة علي بن زياد الصريحة والمسلمة إلى مسقط رأسه طرابلس الغرب، أو اطرباس التي ولد فيها، ونشأ وتعلم - دون شك - في ريوتها، وحرصوا حرصاً أكيداً على نسبته إلى تونس بإطلاق ملاحظين في هذه النسبة والتنسب هجرته إليها من وطنه طرابلس الغرب بسبب ظروف مختلفة ومحظوظة، وأيضاً لوفاته فيها، ولو كانت النسبة أو التنسب يتمان - في المنطق - بمجرد الهجرة أو الوفاة فحسب لحق المشرق مصر والحجاز والعراق أن يدعى؛ لأنّه بقي فيه زمناً طويلاً قد يزيد على الزمن الذي قضاه في تونس، كما أنه أخذ في ريوته جُلّ علومه التي عرف بها في مدة إقامته ومكثه فيه.

ولو كانت النسبة أو التنسب تتمّ بمجرد الهجرة والإقامة في بلد من البلدان لحق طرابلس الغرب نفسها أن تدّعى أنّ الفقيه التونسي سحنون بن سعيد وهو من مشاهير تونس هو أحد أبناء طرابلس وعلمائها؛ لأنّه كما سذكر في ترجمته، أقام في مدينة طرابلس وفي مدينة أجدابية التي هي من مشمولاتها زمناً نشر خلاله العلم في ديارهما، ولجاز لنا أيضاً أن نقول إن الرحالات التونسي أبي محمد التجاني ينسب كذلك إلى طرابلس الغرب؛ لأنّه أقام فيها أكثر من ستين.

ومن الطريف الملاحظ الذي يُحسب في القديم للمؤرخين: الدباغ وابن ناجي أنهم لم يعتبرا ابن زياد الطرابلسي تونسياً⁽¹⁾. وكذلك المؤرخ محمد القيرواني⁽²⁾.

ومن الطريف الملاحظ كذلك أنّ المؤرخ المعاصر حسن حسني عبد الوهاب لم يُصرّ في كتابه «كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين» وهو

(1) يراجع كتاب «معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان».

(2) يراجع كتاب «تكميل الصلحاء والأعيان».

من آخر آثاره التي صدرت عنه - على اعتبار علي بن زياد تونسياً⁽¹⁾، كما أنَّ الأستاذ المؤرخ التونسي محمد محفوظ - رحمه الله تعالى - وقف تجاه ترجمة ابن زياد الطرابلسي موقف الحياد والحذر، ولم يتجرأ في كتابه النفيس «تراجم المؤلفين التونسيين» على عدّه - باعتبار هجرته إلى تونس، ووفاته فيها - من علمائها ومؤلفيها، إذ لم يترجم له في كتابه المذكور⁽²⁾ مراعاة - في أغلبظن - لأنَّ الفقيه علي بن زياد إنما هو أصيل طرابلس الغرب ولادة ونشأة وانتماء.

وذهب مؤرخون آخرون - التزموا الإنصاف والموضوعية إلى القول بحقيقة نسبته المولدية بطرابلس الغرب - وهي حقيقة ينبغي - وبناء على ما تقدّم من أدلة - ألا تجحد أو تنكر اعتماداً على تحقق ولادة الفقيه علي بن زياد ونشائه في مدينة طرابلس الغرب.

فقد أجاب الشيخ شرحبيل قاضي طرابلس الذي عينه الإمام سحنون عليها عن سؤاله عن أصل شيخه الإمام علي بن زياد الطرابلسي فأجابه بما يؤكُدُ نسبته ونسبة سلفه وأوائله إلى مدينة طرابلس الغرب، حيث قال: «وكان أوله من طرابلس ثم سكن مدينة تونس»⁽³⁾.

فنسبة مترجمنا بل نسبة أوله - كما ذكر القاضي شرحبيل - مُحَقَّقة إلى طرابلس الغرب، وإن كان سكن في آخريات حياته مدينة تونس.

كذلك أكَّد القاضي عياض أيضاً هذه النسبة الوطنية أو الجغرافية في كتابه: «ترتيب المدارك» إذ قال: «وُلد بطرابلس، ثم انتقل إلى تونس فسكنها»⁽⁴⁾.

(1) يراجع «كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين».

(2) يراجع كتاب «تراجم المؤلفين التونسيين»، ولكن الذي يؤخذ على مؤلفه أنه ذكر أعلاه آخرین من طرابلس الغرب ضمن علماء تونس ومؤلفيها مثل العالم الطرابلسي المشهور عبد الحميد بن أبي الدنيا الطرابلسي الذي أرخنا له في كتابنا «أبحاث وتحقيقـات في تراث الغرب الإسلامي».

(3) طبقات علماء إفريقيا وتونس: 222.

(4) ترتيب المدارك وتقرير المسالك 1: 326.

وأكدها - قبل عياض - الفقيه التونسي أسد بن الفرات - وهو - كما سيأتي من أبرز تلاميذ مترجمنا ابن زياد فقد عَبَر عن حلول شيخه بتونس بلفظ «الطروء» الذي يفيد في اللغة أَنَّه من غير أصلاء مدينة تونس، حيث قال ناقلاً كلام غيره: «قال لي المخزومي وابن كنانة ما طرأ علينا من بلد من البلدان من كشف هذا الأمر ككشف علي بن زياد»⁽¹⁾.

فعبارة أو لفظة «الطروء» من بلد من البلدان صريحة الدلالة على أن مترجمنا إنما جاء إلى تونس من بلد آخر هو طرابلس، وقال الوزير السراج: «وقيل أصله من العجم ولد بأطرابلس، ثم انتقل إلى تونس فسكنها»⁽²⁾.

وقال الشيخ محمد الشاذلي النifer محقق كتابه: «قطعة من موطن ابن زياد»: «وتحقّق لدينا أَنَّ المراد بطرابلس، طرابلس الغرب دون طرابلس الشام؛ لأنَّ الذي قال إنَّ أوله من طرابلس ثم سكن تونس هو شرحبيل قاضي طرابلس، وشرحبيل هذا كان قاضياً بطرابلس الغرب، وقد أولاه سحنون ولايتها، وسحنون لا تتبعه طرابلس الشام، إنما تتبعه طرابلس الغرب»⁽³⁾.

وما من ريب في أَنَّ تلك الأدلة القوية في نسبته الطرابلسية، قد حفزت المؤرخين والإخباريين من علماء ليبيا في القديم والحديث على نسبة المترجم به إلى بلدتهم طرابلس الغرب على الحقيقة.

قال أحمد النائب الأنباري في كتابه: «نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان»، واصفاً الفقيه علي بن زياد «شيخ المغرب، ومولده بطرابلس»⁽⁴⁾.

وقال الشيخ الطاهر الزاوي «الفقيه العلامة الأستاذ علي بن زياد العبسي

(1) رياض النفوس 1: 235، ترتيب المدارك 3: 81.

(2) الحلل السنديمة 1: 708.

(3) قطعة من موطن ابن زياد: 30، 31.

(4) نفحات النسرين والريحان: 66.

الطرابلسي»⁽¹⁾ وأخيراً فقد عنون الدكتور السيد محمد أبو ديب بحثه عنه بعنوان: «علي بن زياد من علماء ليبيا في القرن الثاني الهجري»⁽²⁾.

ومن المفيد أن ثبت هنا ما قرره وذكره العلامة المبرور الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور مفتى الديار التونسية، وعميد كلية الشريعة وأصول الدين سابقاً - لما عرف به - رحمه الله تعالى - من الموضوعية والإنصاف مفصلاً بحقيقة نسبة الفقيه علي بن زياد إلى طرابلس الغرب التي قال بها وصرّح المنصفون حيث قال: وكان بولادته ونشأته إفريقياً صرفاً، ولد بمدينة طرابلس من القطر الليبي، ثم انتقل إلى تونس فسكنها»⁽³⁾.

وهذه النسبة الثابتة إلى مسقط رأسه طرابلس الغرب من القطر الليبي التي سلم بها الشيخ محمد الفاضل اعتماداً على المصادر القديمة المعتمدة والمحايدة وهي التي أكدتها كلمة الدكتور أحمد باكير في معرض الحديث عن ناشري مذهب الإمام مالك في المشرق والمغرب، حيث قال: «ويإفريقيا على يد زياد الطرابلسي الأصل التونسي الدار»⁽⁴⁾ كما أكدتها كلمة أستاذنا الباحث التونسي أبي القاسم محمد كرو - حفظه الله - كما سند ذكر ذلك فيما بعد⁽⁵⁾.

وتسبّب الفقيه المحدث علي بن زياد الطرابلسي إلى طرابلس الغرب - في عُرْفنا وفي أعراف العلماء والمؤرخين الذين نعتوه وحلّوه بتلك النسبة، إنما يعني بها النسبة الصريحة إلى طرابلس الغرب المدينة الأم العاصمة، دون سواها من الأراضي الواسعة التابعة لها في التاريخ الإسلامي أو من أراضي برقة أو فزان، وينحصر الترجيح في هذه النسبة إلى هذه المدينة الأم في تقديرني في عدّة أسباب راجحة:

(1) أعلام ليبيا: 260.

(2) أعمال ندوة التواصل الثقافي بين أقطار المغرب العربي: 423.

(3) أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي: 24.

(4) ملتقى الإمام محمد بن عرفة: 212.

(5) دراسات في التاريخ والتراث: أعمال المؤتمر الأول للوثائق والمخطوطات 2/992.

الأول: شهرة هذه المدينة العاصمة تاريخياً وحضارياً والتي اتخذها الفاتحون المسلمين، ومنهم سلف مترجمنا دار إقامة واستقرار، فقد نزلها جده ثم استطاب فيها لإقامة والده، كما عاش فيها بعده ولداته والد المترجم به وشقيقه وخليفه ومنهم الشاعر يحيى بن زياد - كما سيأتي.

2 - السبب الثاني، ما أخبر به القاضي شرحبيل قاضي طرابلس الغرب في المدينة، والمُعین عليها نفسها، والمكلّف من الفقيه سحنون بن سعيد التنوخي بقضائهما، حينما سأله - كما سيأتي - عن نسب الفقيه علي بن زياد الطرابلسي، حسبما هو الشائع على السنة أهل طرابلس المدينة، فمن المعروف تارينا أن تكليف شرحبيل بالقضاء في طرابلس التي كانت تتبع إدارياً عهداً الحكم في تونس - لم يقصد به إلا طرابلس الغرب المدينة، وأن طلب سحنون من شرحبيل التحقق من نسب هذا الفقيه الطرابلسي لم يقصد به أيضاً إلا التوثيق من علمائها وأهلها في معرفة أولية ابن زياد، فيتتحقق بذلك أن مترجمنا أبا الحسن من سكان هذه المدينة العاصمة التي كانت تابعة لنظر قاضي الجماعة سحنون بن سعيد في تونس، قال أستاذنا المحقق محمد العنّابي - رحمه الله تعالى - في تأييد ذلك: «وهذا ما جرى عليه الحال بإفريقيا. أعني تونس، منذ عهد سحنون إلى القرن الثامن الهجري، بل إن نظر قاضي الجماعة في التولية يتتجاوزها إلى صقلية وقسطنطينة والزاب وطرابلس وطنجة»⁽¹⁾.

3 - ثـم إنّ شخصية في حجم الفقيه علي بن زياد في ذلك التاريخ البعيد الذي لم ينتشر فيه العلم، ولم تشع فيه المعرفة إلا في المدن الكبرى، لا يمكن أن ينشأ على هذه الصورة المعرفية إلا في مدينة طرابلس الغرب نفسها التي اختارها سلفه الذين هم من أصول فارسية داراً لإقامتهم، باعتبارها مدينة تشبه المدائن والعواصم التي عاشوا فيها، ويزكي هذا الذي ذهبنا إليه أنّ أستاذنا العلامة المبرور الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور قال في تحديد مكان ولادته:

(1) فهرست الرصاع: 35.

«ولد بمدينة طرابلس من القطر الليبي»⁽¹⁾ ولا يشك في أنه يعني بذلك العاصمة دون سواها، وقال الشيخ محمد الشاذلي النيفر: «وتحقق لدينا أنَّ المراد بطرابلس طرابلس الغرب دون طرابلس الشام»⁽²⁾ فأنت تراه يقابل هنا مدينة بمدينة، كما حدد قبله الشيخ الفاضل مدينة طرابلس بموقعها من القطر الليبي.

نخلص من ذلك كله إلى أنَّ الفقيه المالكي المحدث أبي الحسن علي بن زياد الطرابلسي من علماء القرن الثاني الهجري أصل مدينة طرابلس الغرب من البلاد الليبية حالياً، وأنه غير سميه ومعاصره في القرن المذكور الفقيه المالكي المصري الزاهد أبي الحسن علي بن زياد الإسكندراني، المعدود أيضاً من أكابر أصحاب مالك بن أنس»⁽³⁾ قال القاضي عياض في التفريق بينهما، وتحلية كل واحد منهما بما يناسبه: «فالأول الفقيه شيخ سحنون وغيره، والآخر صالح يعرف بالمحتسب»⁽⁴⁾.

وقد دفع القاضي عياض الالتباس والتدخل الحاصل بين هاتين الشخصيتين العامتين في التسمية والمعاصرة؛ فقال: «وقد جرى ذكر ابن زياد [يقصد علي بن زياد الطرابلسي]، والذي يسميه خطأ تونسياً】 مرَّة بحضورة من يفهم هذا الباب؛ فلم يكن عنده شك أنَّ الفقيه المشهور اسكندراني، فقلت له: هما اثنان، وأوقفته على من قال ذلك»⁽⁵⁾.

ثم عقب القاضي عياض على ذلك بما ينبع بشهرة مترجمنا علي بن زياد الطرابلسي وعلمه وفضله، حيث قال: «فمعرفة هذا مما يضطر إليه لا سيما إذا كان بينهما يون في العلم، ومزية في العدالة والفضل»⁽⁶⁾ وفي ذلك إعلام بعلم علي بن زياد الطرابلسي وعدالته وفضله.

(1) أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي: 24.

(2) قطعة من موطأ ابن زياد 30، 31.

(3) ترتيب المدارك وتقريب المسالك 3: 84.

(4) م. ن. 3: 84.

(5) ترتيب المدارك وتقريب المسالك 3: 84.

(6) م. ن. 3: 84.

المبحث الثاني

الطور الأول من حياته – الطور الطرابلسي

هذا الطور الأول من أطوار حياة الفقيه علي بن زياد الطرابلسي طور مجهول وغامض ومغقول عنه، بل كثيراً ما عمد بعض الباحثين والدارسين إلى تجاهل ذكره والإشارة إليه، وحاولوا طيّه وطمسه كأن لم يكن، وذلك بالتخيل للمتلقين أن ابن زياد ولد - كما يسلّمون ويقرّرون أحياناً - في طرابلس، ولكنه سرعان ما رحل في السنوات الأولى من عمره - حسب تخيلهم - إلى تونس، حيث نشا وتعلم، وظهر فكره وعطاؤه، يقرّرون ذلك دون دليل قاطع، أو برهان ساطع.

وقد تجاهل هؤلاء الأفضل حقيقة أنَّ الكثير من أعلام طرابلس الغرب قد رحل إلى تونس المحروسة وغيرها في ظروف مصمّلة واستقروا هناك، ولكن لم يتم لهم ذلك في الغالب إلا بعد مرحلة شبيّتهم ورجولتهم، ومن الحق القول - بعد ذلك - إنَّ هذا الطور الطرابلسي من حياة مترجمنا - وهو طور محقق غير قابل للشكك - يسم في عمومه بقلة المعلومات حوله، وبشح الحقائق المتصلة به، وذلك لأسباب مختلفة، ربما يأتي في مقدمتها ما عرف به أهل هذا البلد والعلماء فيه - في القديم بل في الحديث أيضاً - من عدم الاهتمام بالتوثيق، وندرة العناية بالتاريخ، وكتابه ترجم الشيوخ، وتحرير سير الأعلام في هذا البلد المعطاء.

ولكنَّ الحقَّ الذي ينبغي أن يقرَّ - أَنَّ هذا الطور الطرابلسي الذي مرَّت به حياة المترجم بالرغم من تلاشِي أخباره، وضياع حقائقه في الكتب والمظان هو طور موجود غير مفقود - يقول بحقيقة المائة العقل والتجربة، وتسليم بحصوله القرائن الكثيرة المتوفرة، - وإن أغفلت ذكره المصادر القديمة والمراجع الحديثة.

والذي يعلمه الباحثون عن هذا الطور على وجه اليقين ما أخبرته به تلك المصادر والمظان عن ولادة الفقيه أبي الحسن علي بن زياد المحققة في مسقط رأسه طرابلس الغرب⁽¹⁾ في القرن الثاني من الهجرة.

ومن المعلوم أنَّ طرابلس الغرب كانت أسبق أخواتها من مدن الغرب الإسلامي تونس والجزائر والمغرب الأقصى والأندلس في الدخول إلى الإسلام في أول سنوات العقد الثالث من القرن الأول، وبالتحديد في السنة الثانية والعشرين من الهجرة سنة (22هـ/642م)⁽²⁾ ثم انطلقت منها زحوف الفتوحات الإسلامية الظافرة بتعاليمها الإسلام.

بعد استقرار الدين القيم وعلومه فيها منذ ذلك التاريخ؛ فقد ظهر في أرجائها الفقه والفقهاء، كما تأكَّد وجود العلم والعلماء في ديارها إلى القرن الثاني الهجري الذي ولد فيه وُعُرف مترجمنا الفقيه علي بن زياد الطرابلسي وقد تقدَّم من قول الإمام سحنون في الإشادة بطرابلس والعلم فيها ما يقوم دليلاً لا يردُّ على خصب طرابلس الغرب علمياً فيما أغري به ولده محمدًا وتلميذه سليمان بن سالم التونسي من الأخذ من العلماء المدنيين والمصريين ورواية الفقه المالكي فيها⁽³⁾، ونزيد في هذا المقام من شهادة هذا الفقيه التونسي المنصف ما لم نذكره قبلًا، وهو ما حدث به أبو العرب قال: «أخبرني جبلة بن حمود

(1) ترتيب المدارك 1: 326.

(2) يراجع: ابن عبد الحكم «فتح مصر وإفريقيا» الطاهر الزاوي «تاريخ الفتح العربي في ليبيا».

(3) معالم الإيمان 2: 83.

الصدفي⁽¹⁾ قال: سمعت سحنون بن سعيد يقول: كان بإفريقيا رجال عدول؛ بعضهم بالقيروان وتونس وطرابلس⁽²⁾، وذكر من فضلهم وتقاهم ما رأى وسمع منهم وعنهم؛ فقال: «لو قرنا إلى مالك بن دينار لساووه»⁽³⁾ ومالك بن دينار - كما هو معروف - من أعلام العلم الظاهر والباطن.

وسائل سحنون في وقت عن الصالحين الذين عرفهم فقال: رأيت بطرابلس رجالاً ما الفضل بن عياض أفضل منهم»⁽⁴⁾.

ومن الأسف أن كتب التاريخ والترجم والطبقات المتبقية، لم تحفظ لنا بأسماء العلماء والفقهاء والصلحاء الذين أنجبتهم مدينة طرابلس الغرب وربوتها الواسعة في القرن الأول الهجري، كما لم تحفظ بأسماء من عاش منهم في القرن الثاني الهجري، الذي ولد فيه الفقيه ابن زياد ونشأ وتعلم، وهم في الجملة لا يقلون قيمة في منازلهم الصوفية الذوقية، وفي مكانتهم العلمية المعرفية - حسب شهادة سحنون عن منزلة مالك بن دينار والفضل بن عياض.

ولو وصلتنا أخبارهم وأثارهم مفصلة لاستفادنا فوائد جمة في التاريخ للحركة الفكرية والأدبية في طرابلس الغرب.

ومن الأسف أيضاً أن تلك المصادر والمظان لم تحفظ لنا أيضاً بالتاريخ المحدد الدقيق الذي ولد فيه مترجمنا الفقيه ابن زياد نفسه، كما لم تحدثنا بيسط عن نشأته، وأسماء شيوخه الطرابلسيين الذين أخذ عنهم العلم في بلاده.

والذي نرجحه أن ولادة هذا الفقيه كانت - بناء على القرائن المصدرية المتوفرة من تاريخ شيوخه وتلاميذه - في السنوات الأولى في العقد الأول من

(1) هو جبلة بن حمود بن عبد الرحمن بن جبلة الصدفي يكنى أبا يوسف من أبناء الرجال القادمين مع حسان ابن النعمان.

(2) طبقات علماء إفريقيا: 185، 186.

(3) م.ن: 185، 186.

(4) م.ن: 185، 186، التذكار فيمن ملك طرابلس وما بها من أخبار: 222.

القرن الثاني الهجري في وطنه طرابلس الغرب، كما أجمعـت كلـمة المصادر والمراجع⁽¹⁾.

وأنـه ولـد - كما تقدـم - في أسرة أـعجمـية الأـصـولـ من بلـاد فـارـسـ، وأنـها تـسمـي بالـولـاءـ إـلـىـ «ـعـبـسـ غـطـفـانـ»⁽²⁾ جاءـ جـدـهاـ معـ الجـنـدـ الإـسـلـامـيـ عندـ فـتـحـ طـرـابـلـسـ التـيـ أـقـامـ فـيـهاـ، ثمـ تـحـولـتـ بـالـمـصـاـهـرـةـ إـلـىـ أـسـرـةـ طـرـابـلـسـيـةـ، إـذـ تـزـوـجـ جـدـهـ ثـمـ أـبـوهـ - عـلـىـ الـأـقـلـ مـنـ أـسـرـ هـذـهـ الـمـدـيـنـةـ الـعـرـيقـةـ، فـأـنـجـبـ مـنـهـاـ مـتـرـجـمـنـاـ أـبـوـ الـحـسـنـ عـلـيـ بـنـ زـيـادـ.

ثـمـ إـنـاـ نـرـجـحـ أـيـضـاـ نـسـبـةـ هـذـهـ أـسـرـةـ الـوـافـدـةـ التـيـ يـتـسـمـيـ إـلـيـهـاـ مـتـرـجـمـنـاـ أـبـوـ الـحـسـنـ إـلـىـ الـعـلـمـ وـالـفـقـهـ إـلـاسـلـامـيـ وـحـفـظـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ وـالـحـدـيـثـ الشـرـيفـ، وـهـوـ مـاـ أـبـرـزـ مـتـرـجـمـنـاـ مـعـبـاـ لـلـعـلـمـ وـتـحـصـيـلـهـ، وـلـلـعـلـمـاءـ وـمـجـالـسـهـمـ فـيـ الـمـغـرـبـ وـالـمـشـرـقـ، كـمـ أـبـرـزـ بـعـضـ أـفـرـادـ أـسـرـتـهـ مـنـدـرـجـينـ فـيـ مـسـافـاتـ مـسـرـدـ مـنـ عـرـفـ بـالـعـلـمـ وـالـإـنـسـابـ إـلـيـهـ، فـقـدـ أـخـبـرـ أـبـوـ مـحـمـدـ التـجـانـيـ أـنـ الشـاعـرـ الـطـرـابـلـسـيـ أـحـمـدـ بـنـ يـحـيـيـ مـنـ أـعـلـامـ شـعـرـاءـ طـرـابـلـسـ الـغـرـبـ وـهـوـ - كـمـ وـصـفـهـ - «ـمـنـ وـلـدـ أـخـيـ عـلـيـ بـنـ زـيـادـ الـفـقـيـهـ التـونـسـيـ [ـكـذـاـ]ـ رـحـمـهـ اللـهـ»⁽³⁾.

فـتـحـنـ نـسـتـتـجـ منـ هـذـاـ الـخـبـرـ الـذـيـ أـورـدـهـ التـجـانـيـ مـتـصـلـاـ بـأـسـرـةـ عـلـيـ بـنـ زـيـادـ - مـعـ تـحـفـظـنـاـ عـلـىـ بـعـضـهـ - ثـلـاثـةـ أـشـيـاءـ :

الـأـوـلـ : أـنـ عـلـيـ بـنـ زـيـادـ الـطـرـابـلـسـيـ لـهـ أـخـ، وـكـانـ الشـاعـرـ أـحـمـدـ بـنـ يـحـيـيـ المـذـكـورـ مـنـ نـسـلـهـ، أـيـ أـبـنـ أـخـيـهـ⁽⁴⁾.

الـثـانـيـ : صـلـةـ أـسـرـتـهـ بـالـعـلـمـ مـنـذـ عـهـدـهـ وـإـلـىـ أـحـمـدـ بـنـ يـحـيـيـ.

(1) ترتيب المدارك 1: 326، رياض النفوس 1: 234.

(2) الحلل النسدية 1: 708، قطعة من موطن ابن زياد: 29.

(3) رحلة التجاني: 271.

(4) رحلة التجاني: 271.

الأخير : بقاء أسرته واستمرارها في مدينة طرابلس الغرب إلى عهد طويل بعد زمن مترجمنا ، مما يؤكّد ما ألمحنا إليه من عودته إليها بعد رحلته الأولى إلى تونس ، ثم رجوعه إليها بعد رحلته من المشرق ، على أنّ ما ذكرناه من طرابلسية الفقيه علي بن زياد ونسبة المحقّقة في المصادر القديمة ، لا يمكن أن يغطّي بحال من الأحوال الأطوار الأخرى التي أسهمت في تكوينه وعطائه ، وبروز شهرته العلمية ، وانتشار ذكره ، أعني الطور المشرقي والطور التونسي .

وما من ريب في أنّ عليّ بن زياد قد نشأ في أحضان هذه الأسرة العالمة في مدينة طرابلس الغرب ، وأنّه قد استفاد من توجيهها ورعايتها له ، ولتهيئته لأخذ العلم ، وحضّها له على تحصيله ، و اختيارها له مشائخه المعروفيين في المدينة في ذلك الطور .

وما من ريب أيضاً في أنّ عليّ بن زياد قد اختلف في هذه السنوات الأولى من هذا الطور الذي عاشه في كنف أسرته الطرابلسية العالمة ، على كتاب من كتاتيب المدينة القديمة فحفظ فيه - على عادة أترابه ولداته - كتاب الله العظيم .

ثم اختلف بعد ذلك - في زمن طفولته وشبابه على حلق العلم ودولاته في جوامع مدينة طرابلس - إذ لم تذكر المصادر - كما أسلفنا - هجرة أسرته في طفولته وصباه إلى تونس أو غيرها ، بل تشير إلى استقرارها في طرابلس - التيقرأ فيها الفقه والحديث والتفسير وعلوم العربية ، إلى أن قويت أدواته ومداركه ، وانتفع - بلا ريب - من علوم شيوخه الطرابلسيين الذين لا نزال نجهل أسماءهم ، ثم ظهرت - بعد ذلك - رغبته العارمة في الاستزادة من العلم من كبار العلماء ، ومشاهير الشيوخ في وطنه ، وفي غيره من المواطن القرية والبعيدة - كما سنبين .

وليس بين أيدي أحد من مؤرخيه من علماء طرابلس ، أو علماء تونس أو غيرهم من التأريخيين أي دليل قويٌّ يثبت رحيله أو رحيل أسرته الطرابلسية إلى

مدينة القيروان أو تونس في طفولته المبكرة أو طفولته المتأخرة من حياته إلى تونس أو القيروان حتى يتسعى لهم الحكم عليه بأنه أخذ فيهما علومه الأولية، وحتى يبني على ذلك تحقق دراسته وتعلمها فيهما.

بل إن إشارة الرحلة التونسي التجاني في معرض الحديث عن الشاعر أحمد بن يحيى من نسل أخي علي بن زياد⁽¹⁾ تؤكد – بما لا يدع مجالاً للشك – استمرار وجود أسرة مترجمنا في مدينة طرابلس إلى عهده في القرن السابع الهجري، وهو ما يؤكّد بقاء أسرة مترجمنا في طرابلس التي ظلّت موجودة فيها إلى تاريخ متاخر بالرغم من هجرة ابنها الفقيه علي بن زياد الطرابلسي.

والراجح عندي – حسب توفر تلك القرائن والمؤيدات – أن مترجمنا الفقيه المالكي علي بن زياد قد أمضى فترة طفولته كاملة ومساحة زمنية واسعة من شبابه في مسقط رأسه طرابلس، وفي أحضان أسرته العالمية، وذات النفوذ باعتبار أسلافها من جند الفتح، وبين عشيرته وجيرته، يتلقى العلم عن علمائه، ويتبصر كأترابه المجهولين من علومهم وفهمهم، ويفيد من دولاتهم ومجالسهم.

والذي نطمئن إليه أيضاً أنَّ هذا الطور الطرابلسي دام ما يقرب من عشرين سنة أو أكثر وهي السن المناسبة التي تسمح لأمثاله من طلاب العلم الطامحين – بالسفر والترحال إلى خارج الوطن في ذلك الزمان القلق الذي دلت المصادر التاريخية – على تلبُّسه بالأخطار، كما أنها العمر المعقول والمقبول الذي من شأنه أن يقوّي العزم في صاحبه للاستزادة من طلب العلوم، والتبحر فيها، والحضور على طلب الرحلة العلمية إلى الشيوخ الكبار المشهورين لتوثيق سنته العلمي بهم في الأماكن بعيدة، والبلدان النائية عن وطنه، مثلبلاد التونسية أو غيرها.

(1) رحلة التجاني : 271.

والذي أميل إليه أن ابن زiad الطرابلسي نهض برحلته العلمية الأولى من طرابلس إلى تونس خلال هذا الطور الطرابلسي الأول، وهي الرحلة التي يحتمل فيها أخذه العلم - حسب بعض الروايات - عن الفقيه خالد بن أبي عمران⁽¹⁾، الذي «لم يكن بعصره بإفريقيا مثله»⁽²⁾ والذي وصفه الشيخ الشاذلي النifer «بغارس العلم في تونس»⁽³⁾، وإذا علمنا أن وفاة ابن أبي عمران - رحمه الله - كانت في عام (125) أو (129) من الهجرة تحقق لدينا أن رحلة علي بن زiad كانت خلال هذه السنوات الخاتمة من حياة الشيخ خالد بن أبي عمران، هذا إذا تأكد أنَّ ابن زiad قد أخذ عنه العلم⁽⁴⁾.

ومؤدي ذلك أنَّ رحلة مترجمنا الأولى إلى تونس ضمن الطور الطرابلسي دامت إلى سنة (129هـ) وهي السنة التي توفي فيها الفقيه ابن أبي عمران⁽⁵⁾، وربما امتدت سنوات قليلة أخرى بعد تلك السنة، أخذ منها العلم عن شيخ تونسيين آخرين، لم تصلنا - كما ذكر الشيخ محمد الشاذلي النifer - أسماؤهم.

ونحسب أنَّ مترجمنا بعد هذا التحصيل في هذه الرحلة الأولى إلى تونس - والمندرجة لقصورها - ضمن سني الطور الطرابلسي - كما ذكرنا - قد عاد بعدها إلى وطنه طرابلس الغرب، واستقر فيه زمناً قبل القيام برحلته المهمة إلى المشرق.

وأما ما ذكره الشيخ محمد الشاذلي النifer - رحمه الله تعالى - من أنَّ «انتقل إلى تونس في زمن مبكر؛ لأنَّ لم يذكر أحدٌ من ترجم له أنَّه أخذ عن

(1) تراجع ترجمته في طبقات علماء إفريقيا: 93.

(2) ترتيب المدارك وتقريب المسالك 1: 326.

(3) قطعة من موطن ابن زiad: 15.

(4) قد سبق القول إن الحشني صاحب كتاب: «طبقات علماء إفريقيا»، لم يذكره ضمن عدد تلاميذ خالد بن أبي عمران.

(5) يراجع: طبقات علماء إفريقيا: 93 ترتيب المدارك 1: 326. قطعة من موطن ابن زiad: 26.

أحد بطرابلس»⁽¹⁾ معتمداً في هذا الرأي على ما ذكر في «ترتيب المدارك» أنه أخذ علومه عن خالد بن أبي عمران التونسي فمردود ومرجوح من عدة جهات:

من جهة الشهادة الدقيقة المنصقة التي تقدمت، والتي شهد فيها الإمام سحنون بن سعيد لطرابلس بكونها بلد علم، وبوجود رجال ورواة فقه الإمام مالك فيها، وحضر ابنه على الاستفادة من رجالها⁽²⁾.

ومن جهة أنَّ الشيخ النifer لم يذكر كغيره من مترجمي علي بن زياد وشيوخه، أنه أخذ عن أحد من العلماء بتونس إذا استثنينا الفقيه خالد بن أبي عمران الذي ينعته بالتونسي، والذي لم يذكر صاحب كتاب طبقات علماء إفريقيا - كما قررَ الشيخ محمد الشاذلي النifer نفسه أخذه عنه⁽³⁾.

وإذا سلمنا جدلاً من جهة أخرى أنه أخذ عن الشيخ خالد بن أبي عمران، فإن تاريخ وفاة الأخير سنة (129هـ/746م) تؤكِّد أنه تلقى عنه العلم في سن متقدمة إلى حد ما لا في سن مبكرة كما ذهب إلى ذلك الشيخ النifer.

وهنا نتساءل: ألم يكن الشيخ خالد بن أبي عمران هذا الذي ينعت بالتونسي والدَّال العالم الفقيه عبد الجبار بن خالد بن عمران الذي ينعتُ في المصادر بالسرتي، والذي ترجع نسبته إلى سرت⁽⁴⁾ من مشمولات طرابلس الغرب في ذلك العهد؟!، فيكون شيخه هذا أيضاً طرابلسي الأصل وليس تونسياً.

وهذا مجرد سؤال نطرحه، ونأمل من الباحثين الإجابة عنه بالأدلة الكافية سلباً أو إيجاباً.

(1) قطعة من موطاً ابن زياد: 31.

(2) راجع ترتيب المدارك وترجم أغلبية: 93، رياض النفوس 1: 353.

(3) قطعة من موطاً ابن زياد: 22.

(4) سرت: مدينة قديمة في وسط شمال ليبيا، ذكرها الرحالة والمؤرخون في كتبهم، وأشاروا إلى أنها على سيف البحر عليها سور طوب، وبها جامع وحمام وأسواق، وهي اليوم مدينة عاصرة بالسكان والبناء.

ومع ما ذكرناه من تلك الأدلة، وكما سلّمنا مع الشيخ النifer بمشيخة خالد ابن أبي عمران التونسي أو السرتي وغيره من شيوخ تونس المجهولين لابن زياد، ينبغي أن يُسلّم أيضاً بأنَّ مترجمنا علي بن زياد الطراوبي، لم يأت إلى تونس من طرابلس في زمن مبكر، بل جاء في زمن متأخر كما ينبغي أن يسلم بأنَّه كان له أيضاً شيخ مجهولون في مسقط رأسه طرابلس المعروفة عهدهنَّ بعلمائها ورواتها - حسب شهادة الإمام سحنون - لم نتمكن - بكل أسف - من معرفة أسمائهم، مثل تسليمنا بجهلنا أسماء شيوخه في تونس باستثناء الفقيه خالد بن أبي عمران السرتي الذي لم يذكره صاحب كتاب طبقات علماء إفريقيا - كما تقدَّم - قال الشيخ النifer في ذلك «لا نعرف من شيوخه من أهل تونس إلا المتقدم، ولا نظن أنه لم يكن له من الشيوخ غيره، إذ لا يمكن أن يكون في حداثته وطلبه للعلم، اقتصر على شيخ واحد روى عنه، وإنما هو عنوان عصره، فلذلك وقع الاقتصار عليه، وأما غيره فلما لم يكونوا من المعروفين طواهم الزمان فيمن طوى، وهم كثرة ساحقة عفا عليهم الدهر»⁽¹⁾.

* * *

(1) قطعة من موطن ابن زياد: 32.

المبحث الثالث

الطور الثاني من حياته «الطور المشرقي»

يُعدُّ هذا الطور - دون شك - أكثر أطوار حياته وأهمها تأثيراً وفاعليّة، وذلك لاتساع مداه الزمني، وعمق تأثيره الروحي، ومن عجب أنَّه لم يتم التركيز عليه، والتنويه بسيئه في الدراسات، بل الإشارات في المصادر والمراجع التي لم توله كشفاً وإيضاحاً.

فقد تلقى الفقيه المحدث علي بن زياد الطرابلسي في هذا الطور - كما سيتضح - أكثر علومه وأعمقها وأزكّاها وأوفّقها عن شيوخه المشارقة في مصر والحرمين الشريفين والعراق، المعدودين من الأئمة الأعلام.

وقد أعقبت سنوات هذا الطور المشرقي - في تقديرِي - سنوات الطور الطرابلسي بعد عودته من تونس إلى طرابلس، وليس - كما ذكر الدكتور الصيد أبو ديب أن تونس كانت «منطلق هذه الرحلة»⁽¹⁾ فقد عاد ابن زياد - كما نرجح - من تونس إلى مسقط رأسه بعد وفاة شيخه خالد بن أبي عمران في سنة (127هـ) أو (129هـ) أو بعدها بسنوات قليلة، وهي مرحلة مبكرة في حياة مترجمنا، ثم بقي في طرابلس - كما قدّرنا - زمناً رحل بعده عنها إلى المشرق لأداء فريضة

(1) يراجع بحثه القيم «علي بن زياد من علماء ليببيا في القرن الثاني الهجري» أعمال ندوة التواصل الثقافي بين أقطار المغرب العربي»: 429، 430.

الحج، ولاستكمال علمه، وتوثيق سنته بأعلامه فيه، ودليلنا في هذا المذهب الذي نذهب إليه حقيقتان:

الأولى: بقاء جملة بل جُلُّ أهله في مديتها طرابلس الغرب، مسقط رأس علي بن زياد فرجع إليهم بعد رحلته الأولى إلى تونس، ثم انطلق منها بعد زمن إلى الشرق لقربها منه إذ من غير المعقول أن يرحل من تونس التي أخذ فيها بعض علمه على شيخه خالد بن أبي عمران في الفترة القصيرة المشار إليها، ثم يمضي منها مباشرة إلى الحرمين الشريفين دون أن يمر بوطنه طرابلس الغرب، ويقيم زمناً بين أهله قبل سفره إلى الحرمين.

2 - الحقيقة الأخرى: ما عرف به العلماء وطلبة العلم في وطنه طرابلس الغرب في ذلك الزمن خلال القرن الثاني الهجري من الموجة العلمية المتمثلة في الشروع الفعلي في الرحلة إلى المشرق لطلب العلم، وأخذ المذاهب الفقهية، وتوثيق سندهم العلمي بأعلام المذاهب الإسلامية وبخاصة المذهب الأباضي والمذهب المالكي.

فقد رحل الفقيه الأباضي الطرابلسي أبو درار إسماعيل بن درار من مدينة غدامس ضمن وفد رسمي «حملة العلم» قاصداً برحالته مدينة البصرة بالعراق، لربط سنته بأعلام المذهب الأباضي فيها⁽¹⁾.

لقد اتجه علي بن زياد في هذا الطور أولاً إلى مصر، حيث أخذ العلم عن شيخه الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهيمي بالولاء (94 – 175) وهو إمام أهل مصر في العلم «وكان تبنته وبين مالك صلة جيدة، ومودة حسنة، ومحبة صادقة، ومراسلة لا تقطع، وتناصح في الله، وتأمر بالحق وائرتamar بمعروف»⁽²⁾.

(1) يراجع: الإباضية في موكب التاريخ. دراسات عن الإباضية: 113، معالم الحضارة الإسلامية في ليبيا: 354.

(2) الأعلام 5: 248.

وقد وصفه الإمام الشافعي بقوله: «الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به»⁽¹⁾ وأجمع العلماء - كما يذكر النووي - على إمامته وجلالته، وعلوّ مرتبته في الفقه والحديث.

وقد استفاد عليٌّ بن زياد الطرابلسي من علم الفقيه المصري الليث بن سعد مدة إقامته بمصر - كما أشارت المصادر - إلى أخذه عنه، وانتفاعه منه⁽²⁾.

كذلك أخذ مدة هذه الإقامة بمصر من شيخه أبي عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة قاضي مصر (97 - 174)⁽³⁾ المعروف بأنه كان «محدث مصر» - كما قال الإمام أحمد بن حنبل⁽⁴⁾ ومن «الكتاب للحديث، والجماعين للعلم، والرحالين فيه» - كما قال الذهبي⁽⁵⁾.

والليث بن سعد معدود أيضاً من الأخذين عن الشيخ خالد بن أبي عمران التونسي، أستاذ ابن زياد الطرابلسي فهو إذن تربه وزميله في التحصل عن ابن أبي عمران ولذلك رأى الشيخ محمد الشاذلي النifer أن أخذ ابن أبي زياد عنه «المجرد السماع»⁽⁶⁾.

بيد أنَّ المصادر والمظان لم تذكر لنا المدى الزمني الذي استغرقته رحلته بل إقامته في مصر لأنَّه علمه وسماعه عن الليث وابن لهيعة وغيرهما ممن استفاد منهم قبل ذهابه إلى الحرمين الشريفين، وإلى العراق، ولكن بعض المؤرخين أخبروا أنَّ مترجمنا ابن زياد اتجه بعد هذه المرحلة المصرية، وأخذه فيها عن شيخه الليث، وسماعه من زميله ابن لهيعة إلى أرض الحجاز وما من ريب في أنَّ وجهته الوجيهة إلى مكة وطيبة كانت للقيام برحلته التعبدية لأداء

(1) م.ن. 248:5.

(2) ترتيب المدارك 1:326، تراجم أغلبية: 22.

(3) م.ن. 1:326، م.ن: 22، رياض النفوس 1:234.

(4) (5) نقلًا عن كتاب الأعلام للزركلي.

(6) قطعة من موطن ابن زياد: 35.

فريضة الحج، ولتحقيق رحلته العلمية المهمة بالأأخذ عن المدرسة المدنية المعروفة بالفقه والحديث الشريف وفقه الصحابة والتابعين، والتي كان يتزعمها إمام المدينة مالك بن أنس رضي الله عنه.

وأغلب الظن أن الذي حمله على القيام بأعباء هذه الرحلة شيخه خالد بن أبي عمران في أثناء رحلته الأولى إليه بتونس، ثم من بعده شيخاه الليث بن سعد⁽¹⁾ وعبد الله بن لهيعة في مصر⁽²⁾.

ومن المعروف عند مؤرخي المذهب المالكي ومتجمعي أعلامه، أن أهل مصر وأهل المغرب على حد سواء كانوا أكثر من سبق إلى الارتحال إلى المدينة المنورة ومدرستها المالكية التي ترأسها الإمام مالك، وكان من بين تلاميذه أشياخه المذكورون في تونس ومصر.

وقد أجمعت المصادر على أن ابن زيد قد أخذ في هذه الرحلة إلى الحرمين الشريفين ضمن الطور المشرقي عن إمام هذه المدرسة الإمام الإمام مالك بن أنس موظأه وروياته وسماعاته⁽³⁾ وعد بذلك من أوائل تلاميذه⁽⁴⁾، وقد أفرد القاضي عياض باباً في المدارك لتلاميذه ومن أخذوا عنه موظأه وأسمعته، فاحصى منهم نحو ستين ذكر من بينهم علياً بن زيد.

وقد مدح الإمام البخاري⁽⁵⁾ أهل المدينة الأنصار الذين نشأت فيهم هذه المدرسة المدنية الفقهية فقال: «الأنصار شعار، والناس دثار، ولو سلك الناس وادياً، وسلك الأنصار وادياً، لسلكت وادي الأنصار وشعبها»⁽⁶⁾.

(1) طبقات علماء إفريقيا وتونس: 220 التهذيب 8: 459.

(2) م.ن: 220، الوفيات 3: 38.

(3) ترتيب المدارك وتقريب المسالك 1: 326، تراجم أغلبية: 22. أعلام الفكر الإسلامي: 26، 27.

(4) م.ن.

(5) الإمام محمد بن إسماعيل البخاري صاحب الصحيح المسمى باسمه صحيح البخاري أو «الجامع الصحيح»، الحافظ تحديث رسول الله ﷺ انحصرت حياته ما بين سنتي (194هـ - 256هـ) وله كتاب «الضعفاء» وخلق أفعال العباد.

(6) البخاري، باب فضائل المدينة 4: 62.

وقد كان مالك أعلم أهل المدينة في عصره، وقد قال ابن المديني في مدحه: «نظرت فإذا الإسناد يدور على ستة فذكرهم، وقال: «ثم صار هؤلاء الستة إلى أصحاب الأصناف ومن صنف ولأهل المدينة مالك»⁽¹⁾.

وفي هذه المدرسة المدنية أخذ مترجمنا - كما سنبين - علمه وأسمعته وموظاه من الإمام مالك، ومن الطريق في رحلته إليها وإليه أنه قد حقق بها مع غيره من تلاميذ مالك المغاربة والمشارقة ما ورد فيه من الأثر الصحيح المشهور المروي عن الثقات عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يوشك الناس أن تضرب أكباد الإبل في طلب العلم فلا يجدون أعلم أو أفقه من عالم المدينة»⁽²⁾.

ولا مشاحة في أنَّ أبا الحسن عليًّا بن زياد الطراولسي كان بذلك الأخذ عن شيخه الإمام مالك بن أنس من أوائل محققى ذلك الأثر المشهور، كما أنه كان من أوائل أصحاب مالك رضي الله عنه، بل من الطبقة الأولى من حاملي العلم عنه، ومن مؤصلى مذهب الفقهى الحديثى وناشريه⁽³⁾.

فأين زياد بذلك الاعتبار معدود في الطليعة من تلاميذ عالم المدينة وإمامها من أمثال عبد الرحيم بن أشرس وعبد الله بن فروخ وعبد الله بن غانم، وبهلوى ابن راشد من إفريقيا، ومن أمثال سعيد بن عيدوس وسعيد بن هند وزياد بن عبد الرحمن من الأندلس⁽⁴⁾.

وما من ريب في أنَّ خلاصة الخلاصة من فقه الصحابة والتابعين وأسماعتهم، وما رووه من أحاديث الرسول ﷺ، وعمل أهل المدينة الموروث

(1) عمل أهل المدينة: 76 نقلًا عن العلل لابن المديني (137) مقدمة العجرج والتعديل (17، 31).

(2) رواه أبو هريرة، وأخرجه الترمذى في كتاب «العلم» 5: 47 وقال: « الحديث حسن».

(3) ترتيب المدارك 2: 178، 209.

(4) أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي: 25.

عنه وعن أصحابه رضوان الله عنهم قد آلت إلى هذا الإمام الذي كثُر عنه الآخذون من المشرق والمغرب، ولئن لم تصلنا شهادة مترجمنا في شيخه، وتحليلاته المنصفة له، فقد وصلتنا كلمة الإمام الشافعي فيه، وهي المعبرة بجلاء عن شهادات تلاميذه المشارقة والمغاربة – على حد سواء، ومنهم الإمام علي بن زياد الذي استفاد من علم شيخه مالك ومن فقهه وأسمعته قال الإمام الشافعي: «مالك أستاذِي، وعنه أخذتَ العلم، وما أحد أمنٌ على من مالك، وجعلت مالكاً حجة بيني وبين الله، وإذا ذكر العلماء فمال النجم الثاقب ولم يبلغ أحد ما بلغه مالك في العلم لحفظه وإتقانه وصيانته»⁽¹⁾.

ولا مشاحة أيضاً في أن مترجمنا ابن زياد الطرابلسي قد أخذ عن شيخه مالك في هذه الرحلة أصول مذهبة وهي الأصول – التي استنتاجها بعد ذلك العلماء والباحثون، وسميت عندهم خصائص المذهب المالكي، وبخاصة الثلاثة الأخيرة التي يكاد ينفرد بها، دون الخصيصتين الأوليين اللتين يشترك فيهما المذهب مع غيره من المذاهب أعني القياس الذي هو في اللغة: التقدير والمساواة، وفي اصطلاح الأصوليين: إثبات مثل حكم معلوم في معلوم آخر لاشراكهما في علة الحكم عند المثبت»⁽²⁾.

والإجماع الذي يعني اتفاق أمة النبي ﷺ في عصر من العصور على أمر من الأمور الشرعية»⁽³⁾ أما الخصائص التي انفرد بها فهي العرف والمصالح المرسلة، وسد الذرائع، وما من شك في أن الفقيه المالكي على بن زياد الطرابلسي، قد عوّل على هذه الخصائص في فتاويه وأحكامه الفقهية.

فالعرف يقصد به عرف أهل المدينة المنورة أي عملهم المعتمد من خلال

(1) ترتيب المدارك 1: 75، 76.

(2) راجع: الكافي الواقي في أصول الفقه الإسلام: 181، أصول الفقه الإسلامي: 186. و«القياس في المذهب المالكي» لعبد الله الوصيف في ملتقى الإمام ابن عرفة: 82.

(3) الكافي الواقي: 155، أصول الفقه الإسلامي: 177.

ما أدركوه من ستة الرسول الكريم الذي كان يعيش بين ظهارنيهم، وأيضاً أعمال أصحابه - رضوان الله عنهم - وأعمال التابعين المحدثين في أقوالهم وأفعالهم بستته - عليه السلام -⁽¹⁾ حتى صار ذلك كله وما عرفوه مرجعاً لهم في العمل والفتوى وقد كان الإمام مالك - رضي الله عنه - شيخ ابن زياد يكثر من ذكر لفظ «الأمر المجتمع عليه عندنا»⁽²⁾ يعني عرف أهل المدينة، ولقد جاء في رسالته إلى الإمام الليث بن سعد إمام البلاد المصرية في عهده ما يفيد انتصاره وتزكيته لهذا العرف، ولو مه له في مخالفته له، حيث قال: «بلغني أنك تفتني الناس بأشياء مختلفة مخالفة لما عليه جماعة الناس عندنا وببلدنا الذي نحن فيه، وأنت في أمانتك وفضلك ومنتلك من أهل بلدك، وحاجة من قبلك إليك واعتمادهم على ما جاء منك حقيق بأن تخاف على نفسك وأن تتبع ما نرجو النجاة باتباعه؛ فإنَّ الله - سبحانه وتعالى - يقول في كتابه: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾⁽³⁾، وقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِيَ الَّذِينَ يَسْتَعِمُونَ الْقَوْلَ فَيَسْتَعِمُونَ أَحَسَنَهُ﴾⁽⁴⁾، فإنما الناس تبع لأهل المدينة التي نزل بها القرآن⁽⁵⁾، ولا شك في أن مالكاً كان كما قال الإمام ابن تيمية: «أقوم الناس بمذهب أهل المدينة روایة ورأياً»⁽⁶⁾.

فهذه هي الخاصية الأولى من خصائص المذهب التي أخذ بها مترجمنا من شيخه مالك، وعمل بها في أحكامه وفتاويه⁽⁷⁾، ولا غرابة في أن يعمل ابن زياد بعرف أهل المدينة؛ فقد سكن طائفة من المدنيين - كما أشار إلى ذلك سحنون

(1) الكافي الواقي: 213.

(2) يراجع كتاب: قطعة من موطاً ابن زياد.

(3) سورة التوبة، الآية: 100.

(4) سورة الزمر، الآية: 18.

(5) ترتيب المدارك 1: 34.

(6) صحة أصول أهل المدينة: 53.

(7) راجع بحث «العرف في المذهب المالكي» للدكتور محمد أبو الأجنفان، ملتقى ابن عرفة: 346.

ابن سعيد - مسقط رأسه طرابلس منذ القرن الأول، وأشاعوا - دون ريب - هذا العرف في حياتهم، وحياة المجتمع الطرابلسي إلى عهد ابن زياد في القرن الثاني الهجري⁽¹⁾.

والأصل الثاني الذي استفاده ابن زياد من شيخه مالك ما اصطلح الأصوليون على تسميته «المصالح المرسلة» وخلاصته أنَّ الفقيه - عند الإمام مالك - ينبغي أن يكون في أحکامه وفتاویه في سعة، وألا يضيق واسعاً، فهو يستطيع أن يحكم ويفتي بأنَّ كُلَّ عمل فيه مصلحة لا ضرر فيها على العباد، أو كان النفع فيها أكبر من الضرر أمر مطلوب ومرغوب فيه مراعاة لمصلحتهم، من غير أن يحوجه ذلك إلى تكلف أو تعَمَّل، إذ إن مصلحة العباد - شرعاً - مقدرة في كل الأزمان بحسب تجدد الأحوال ومنافع الناس، وفق مقاصد الشرع الشريف، وهذا ما تعنيه المصالح المرسلة ضمن خصائص المذهب المالكي⁽²⁾.

أما الخاصية الأخيرة من الخصائص التي تفرد بها هذا المذهب، واستفادها ابن زياد الطرابلسي - في تقديرنا من شيخه مالك أو من المدرسة المدنية في طيبة، وصارت من قواعده المعتمدة فيما بعد في فتاویه وأحكامه؛ فهي قاعدة «سدُّ الذرائع» والذرائع - كما هو معروف في اللغة - جمع ذريعة، ويراد بها الطريقة أو الوسيلة الموصلة إلى أمر من الأمور، وسد الذريعة معناه وقف ورفع بل دفع الوسيلة؛ فوسيلة المحرَّم محرَّمة، ووسيلة المباح مباحة، فالنظر إلى عورة الأجنبية - عندهم - تفضي إلى الفاحشة والتشهي والزنى، ولذلك جعل النظر محرماً، وبرُّ الوالدين، والقيام بأمرهما واجب عقلاً وشرعاً، فكلُّ عمل أوصل إلى هذا البر واجب⁽³⁾ يقول الأستاذ محمد صالح: «فمبداً سُدُّ الذرائع، وفتح الذرائع لا ينظر فقط إلى النيات والمقاصد - كما رأيت - بل يرتبط كذلك

(1) معالم الإيمان 2: 83.

(2) الكافي الواقي: 227، أصول الفقه الإسلامي: 198.

راجع في كتاب: «ملتقى الإمام محمد بن عرفة» بحث المصالحة المرسلة لمحمد الشاذلي النيفر.

(3) الكافي الواقي: 227، أصول الفقه الإسلامي: 218.

مع قصد النفع العام، أو دفع الفساد العام، فهو إذاً ينظر إلى النتيجة مع القصد، أو إلى النتيجة وحدها⁽¹⁾ ولا يخفى ما في ذلك من الفائدة، وحسن العائد على الأفراد والمجتمعات.

وما دمنا في صدد الحديث عما أخذه علي بن زiad عن شيخه الإمام مالك في المدينة المنورة، فإن هناك علمًا آخر - بالإضافة إلى ما أخذه عنه من علم الحديث والفقه، وعلم الأصول التي اشتهر انفراد الإمام مالك بها، نذهب إلى أنه أخذه عنه أيضًا هذا العلم هو رواية القرآن الكريم السائدة عهديًا في المدينة المنورة التي أخذها الإمام مالك عن شيخه نافع، كما أخذها أيضًا الإمام ورش⁽²⁾ عن شيخه نافع، وهي الرواية التي شاعت وعرفت في الغرب الإسلامي منذ عهديهما.

ومن الغريب أن المؤرخين القدامى والمحدثين لم يذكروا هذا العلم الذي أخذه ابن زiad عن شيخه الذي اشتهر هو الآخر بأخذه عن شيخه نافع الذي أخذ عنه أيضًا الإمام ورش الذي كان معاصرًا له، بل لم يذكروا نشر الإمام ابن زiad الطرابلي لهذا العلم في الغرب الإسلامي في القرن الثاني الهجري، وبخاصة في المغرب الأدنى وطنه طرابلس الغرب، ومهجره في تونس وهي قراءة أهل المدينة التي أخذها الإمام مالك بن أنس شيخ علي بن زiad - كما أسلفنا - عن شيخه الإمام نافع، ثم نقلها عنه تلميذه ابن زiad كما نقلها عنه معاصره ورش (عثمان بن سعيد) رضي الله عنه.

وهذه الرواية المدنية هي الشائعة إلى يومنا هذا في قراءة القرآن الكريم بديار الغرب الإسلامي، فحرثي بنا أن ننبه الأذهان إلى دور مترجمنا في نشرها.

(1) ندوة الإمام مالك 3:318.

(2) هو عثمان بن سعيد بن عدي المصري، من كبار علماء القراءات غالب عليه في المصادر والمراجع لقب «ورش» لشدة بياضه يقال له أصله من مدينة القيروان، ولكن مولده ووفاته في مصر وحياته محصورة بين سنتي (197 - 110).

وتلك ياجمال هي بعض الأصول⁽¹⁾ والعلوم الإسلامية التي عرفت بها المدرسة المدنية التي كان على رأسها مالك بن أنس، والتي استفادها ابن زيد الطرابلسي منها، بل من شيخه مالك - رضي الله عنه في رحلته إلى المدينة المنورة، وكانت - فيما بعد كما سُنَّوْضَح في نشره المذهب المالكي - مدار عمله في أحكامه وفتاویه، وأيضاً في روایته في قراءة المصحف الشريف.

كما أخبر المؤرخون أيضاً عن أنَّ هذا الطور المشرقي اللاحق بالضرورة وكما ذكرنا سلفاً للطور الطرابلسي الأول، والسابق - حسب السياق التاريخي للطور التونسي الخاتم لرحلة حياة - ابن زيد - والأخير فيها، قد تضمَّن - مع رحلته إلى المدرسة المدنية التي كان يتزعمها الإمام مالك رحلة أخرى، رحل فيها الفقيه عليُّ بن زيد الطرابلسي إلى العراق التي كانت مدينة من مدائن العلم الكبُّري في بلاد الإسلام، حيث المدرسة البغدادية المشهورة⁽²⁾ حيث التقى فيها - كما أشارت المصادر - شيخه المعروف الإمام سفيان الثوري، المتوفى عام إحدى وستين ومائة (777م) وقد أخذ عنه في مجالسه جامعه الصغير وجامعه الكبير، وأفاد من علمه وفضله، وما اشتهر به من علم وفقه وأسمعة، وبذلك يتبيَّن أيضاً أخذه من هذه المدرسة البغدادية أو العراقية للمذهب المالكي، وهي - كما دلت المظاَن - مدرسة فقهية مالكية ذات شهرة بأعلامها وأصولها وامتدادها التاريخي⁽³⁾.

ومن الغريب أنَّ الدكتور محمد العلمي مؤلف كتاب «المدرسة البغدادية للمذهب المالكي» ذكر علياً بن زيد مترجماً ضمن رواة الموطأ، ولم يذكره - بكلِّ أسف - بالرغم من تصريح المصادر بذلك ضمن طلبة العلم والفقهاء من

(1) وقد ألف صديقنا العالم الدكتور فاتح محمد زقلام - حفظه الله - كتاباً مفيداً في هذا الموضوع القيم سمَّاه «الأصول التي اشتهر انفراد إمام دار الهجرة بها» نشرته كلية الدعوة الإسلامية بطرابلس الغرب.

(2) راجع كتاب: «المدرسة البغدادية للمذهب المالكي».

(3) راجع في ذلك كتاب «المدرسة البغدادية للمذهب المالكي».

الرحلة المغاربة والأندلسيين الذين رحلوا إلى بغداد للأخذ عن علماء المدرسة
البغدادية للمذهب المالكي⁽¹⁾، ففاته ذكر ذلك وتوثيقه.

فما من ريب في أنَّ عليًّا بن زياد قد أخذ في هذا الطور المشرقي – كما
أخبر بذلك المؤرخون والإخباريون عن شيخه سفيان بن سعيد بن مسروق
الشوري أحد أئمة هذه المدرسة، ولكنهم لم يذكروا بكل أسف – هل كان أخذَه
العلم عنه كان في مكة أو المدينة اللتين سكنهما الشوري زمناً، أو أخذَه عنه في
بلده العراق الذي رحل إليه أيضاً مترجمنا علي بن زياد، وهو ما نرجحه،
ويحملنا على هذا الترجيح من ذكر بعض المصادر أنَّ عليًّا بن زياد قد رحل إلى
العراق، وأنَّه أخذ عن شيخه سفيان الشوري.

ومن المعروف أنَّ هذا الفقيه البغدادي كان إماماً، وسيِّدَ أهل
زمانه في علوم الدين والفتوى⁽²⁾.

وما من ريب في أنَّ رحلة علي بن زياد الطرابلسي قد طالت – في هذا
الطور الشرقي وامتدت زمناً كثيراً، وما من ريب أيضاً في أنَّه قد رجع من هذه
الرحلة مباشرةً إلى مسقط رأسه طرابلس الغرب مستقر آبائه وأهله وعشيرته، وأنَّه
بقي فيها زمناً وافر الزاد من علم الحديث الشريف والفقه والفتوى، ومن ولادته
فكَر أشياخه في مصر والحجاج والعراق في النظر والاجتهد والترجيح.

وقد أشار أحدُ الباحثين – بغير سند – إلى أنَّ سنة أربع وأربعين ومائة،
وهي الفترة التي عاد فيها الغازى بن قيس بالموطأ إلى الأندلس كانت السنة التي
عاد فيها ابن زياد إلى بلاد المغرب⁽³⁾.

(1) راجع الفصل الذي عقده ضمن كتابه المذكور بعنوان: «الرحلة من المغرب إلى علماء المدرسة
البغدادية» من صفحة 515 إلى 529.

(2) راجع: طبقات ابن سعد 6: 257، حلية الأولياء 6: 356، تهذيب التهذيب 4: 111، تاريخ بغداد
9: 151.

(3) يراجع تطور المذهب المالكي في الغرب الإسلامي حتى نهاية عصر المرابطين؛ للدكتور محمد
ابن حسن شرحيل.

وفي تقديرنا - من خلال النظر - إلى الملابسات التاريخية وتاريخ وفيات شيوخه أنَّ ذلك التاريخ الذي حدَّده لم يكن تاريخاً دقيقاً، وأنَّ ذلك كان بعد سنوات من ذلك التاريخ.

ومن البدهي أن يعود ابن زياد بعد ذلك الطور الشرقي الذي دام سنوات إلى وطنه طرابلس الغرب؛ ونرجح أنَّه بقي في ربوع هذا الوطن مستقراً بعض السنوات بين عشيرته وجيرته، يُعلم العلم الذي حمله من روایة الموطاً وسماعاته من شيخه الإمام مالك وفتاویه، ويُشيع ما أخذه أيضاً من شيوخه الآخرين في المشرق من أمثال الليث بن سعد وابن لهيعة وسفيان الثوري.

ومن المعروف المشهور أن ابن زياد الطرابلسي كان أيضاً أول من أدخل جامع سفيان الثوري وعلمه، إلى المغرب - كما ذكره أبو سعيد بن يونس في تاريخه حسبما ورد في «ترتيب المدارك»⁽¹⁾، كما أنه كان أول من أدخل موطاً مالك وأسمعته وفتاویه⁽²⁾ إلى المغرب الإسلامي.

ومن المأسوف عليه، جهلنا التامُ بالزمن الذي أمضاه في وطنه طرابلس المغرب، وعدم معرفتنا الملابسات التي صاحب بقاءه فيها، والعوامل التي حملته على ترك وطنه، والرحيل عنه إلى تونس.

على أنَّ إنعام النظر في هذه الهجرة القسرية في الغالب - يفضي بنا إلى الوقوف على ثلاثة عوامل وأسباب رئيسة كانت وراء اتخاذ ابن زياد قراره الحاسم والصعب في ترك وطنه وأهله، واتخاذ تونس التي زارها من قبل زيارة قصيرة مهجرأً له، ولخواتمي سنوات حياته:

العامل الأول: ما عرفت به الديار في طرابلس المغرب عهده من نشوب

(1) ترتيب المدارك 1: 326. (م) 3: 80.

(2) طبقات علماء إفريقيا: 98، ترتيب المدارك 1: 326. رياض النفوس: 234.

الفتن والثورات واستعرار الحروب الجائرة، وبروز ثورة البربر في إفريقيا وامتدادها إلى طرابلس⁽¹⁾.

العامل الثاني: ظهور المذهب الإباضي فيها ظهوراً قوياً، واقتران ظهوره بأشكال العصبية التي تضيق بالمذاهب الفقهية الأخرى⁽²⁾ ومنها المذهب المالكي الذي يتبعه ابن زيد.

العامل الأخير: ما كانت تتسم به تونس من الاستقرار، وازدهار الحياة الفكرية والسياسية التي كانت تضمن التعايش الآمن. تلك هي العوامل والأسباب التي حملت مترجمنا على ترك مسقط رأسه القلق المهاجر إلى تونس.

* * *

(1) ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية: 63 - 72. تاريخ ليبيا الإسلامي: 119 وما بعدها.

(2) ليبيا منذ الفتح العربي: 73.

المبحث الرابع

الطور الثالث من حياته «الطور التونسي»

مرّ هذا الطور التونسي من حياة مترجمنا ابن زياد الطرابلسي - حسب تصوّرنا وتصوّرنا - بمرحلتين منفصلتين: إحداهما مرحلة قصيرة عابرة، تزامنت بمحدوديتها مع مرحلة شبابه في الطور الطرابلسي، أخذ فيها - كما أسلفنا وحسب بعض الروايات - شيئاً من علمه عن بعض أشياخه التونسيين المجهولين، الذين لم تتبين منهم إلا الشيخ خالد بن أبي عمران كما جاء في رواية⁽¹⁾، وإن لم يذكر ذلك الخشنبي صاحب الطبقات⁽²⁾.

والمرحلة الأخرى من الطور التونسي مُطولة وممتدّة، وهي التي تزامنت مع هجرته الخاتمة إلى تونس في زمن الرجولة والعطاء، وقد أعقبت - في ترجيحنا - عودته من الشرق إلى طرابلس الغرب، وإقامته فيها مدة، ثم رحل منها لأسباب مختلفة إلى تونس، حيث ظهر فيها علمه وفضله، وتأصيله المذهب المالكي، ونشره له، وحيث ألف كتابه، وحرر موطأه وظهر تلاميذه.

وهذه المرحلة هي التي عناها القاضي شرحبيل والقاضي عياض بقوليهما

(1) قطعة من موطاً ابن زياد: 22، ترتيب المدرارك 1: 326.

(2) طبقات علماء إفريقيا وتونس: 98، 99.

- حسبما تقدّم - كان مولده بطرابلس، ثم انتقل إلى تونس فسكنها⁽¹⁾ وعناها أيضاً العلامة محمد الفاضل ابن عاشور بقوله: «ولد بمدينة طرابلس من القطر الليبي، ثم انتقل إلى تونس فسكنها»⁽²⁾، فتعبير هؤلاء العلماء القدامى والمحدثين عن انتقال علي بن زياد إلى تونس بلفظة «ثم» تعبر دقيق مختار، يدل على التراخي الزمني الملحوظ في التباعد بين عهد الولادة والانتقال، كما تقتضيه أصول اللغة، فالانتقال أعقب الظرف الزمانى الذي شغله الطور الطرابلسي الأول بكلّ مكوناته وملابساته.

وعلى الرغم من أنَّ الشيخ محمد الفاضل لم يحدِّد - كالعلماء والمؤرخين السابقين - التاريخ الدقيق الذي انتقل فيه ابن زياد من طرابلس إلى تونس التي سكنتها في هجرته الأخيرة، واستقرَّ فيها إلى أن توفي، فإنَّه ذكر شيئاً من ملابسات زمن ذلك الانتقال حيث قال - رحمة الله تعالى - «وكان استقراره بمدينة تونس في أوائل العهد الذي ظهرت فيه لهذه المدينة عظمتها في حياة المجتمع الإسلامي بإفريقيا»⁽³⁾.

والذي يُستفاد من إفادة الشيخ محمد الفاضل الضمنية أنَّ ابن زياد، وقد اكتملت علومه وفهمه، وترسّخت مكانته، وعرفت قيمته العلمية - بعد رحلته الأولى إلى تونس وعودته إلى مسقط رأسه طرابلس الغرب، والتي أعقبتها بالرحلة المشرقة التي تأصل بها سندُه العلمي بأشياخه المشارقة الكبار: الليث ابن سعد ومالك بن أنس وسفيان الثوري وابن لهيعة، أحبَّ أن يحقق طموحه العلمي في ظلَّ استقرار سياسي وعلمي في مدينة تونس التي كان قد عرفها من قبل، وهو العهد الأغلبي حسب تقدير العلامة حسن حسني عبد الوهاب⁽⁴⁾،

(1) طبقات علماء إفريقيا: 222 ترتيب المدارك 1: 326.

(2) أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي: 24.

(3) أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي: 24.

(4) يراجع كتاب ورقات عن الحضارة العربية بإفريقيا وخلاصة تاريخ تونس.

والعلامة محمد الفاضل ابن عاشور⁽¹⁾ وسأتأتي فيما بعد إلى مناقشة هذا التقدير غير الدقيق.

ومما يؤكد أنَّ الفقيه أبا الحسن علي بن زياد الطرابلسي قد حلَّ في ربوع تونس، وهو مكتمل الرجولة والعلم والسداد ما قاله أسد بن الفرات «قال لي المخزومي وابن كنانة، ما طرأ علينا طارئ من بلد من البلدان كشف عن الحق في هذا الأمر، يعني في موطن مالك بن أنس»، وفي رواية عن ابن كنانة كشف لنا عن الأصول كشف علي بن زياد⁽²⁾.

فإن التعبير بلفظ «طرأ» وهو ماضٍ من الظروف، أي التزول والحلول، وطار بصيغة اسم الفاعل، كلاماً لفظ عبر به التاريخيون المغاربة والأندلسيون – في القديم – عن من حلَّ على بلد من البلدان، ووفد إليه من غير أهله وهو كبير السن متقدمها، مكتمل الأدوات وافرها، والمعنى بالوصف هنا هو أبو الحسن علي بن زياد، الطارئ على تونس من بلده طرابلس التي أقام فيها بعد عودته من الرحلة المشرقة، وما يؤكد طراؤه عليها في رجولته التي اكتملت فيها أدواته وتقدمت سنه وقوى سنته ما جاء في سياق العبارة السابقة أنه «كشف عن الحق في هذا الأمر، يعني في موطن مالك بن أنس»⁽³⁾. وفي رواية أخرى عن ابن كنانة «كشف عن الأصول كشف علي بن زياد»⁽⁴⁾.

وقد ذهب العلامة المؤرخ حسن حسني عبد الوهاب الصمادحي، والعلامة البحر الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور – كما تقدم – إلى أنَّ حلول علي بن زياد في تونس، تزامن مع عظمة تونس في عهد الدولة الأغلبية⁽⁵⁾، ومع

(1) راجع كتابه «أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي، و«المحاضرات المغربيات».

(2) ترتيب المدارك 3: 81 تراجم أغلبية: 23 رياض النقوس 1: 235.

(3) رياض النقوس 1: 235.

(4) م. ن 1: 235.

(5) يراجع في تاريخ هذه الدولة: خلاصة تاريخ تونس: 77، مجمل تاريخ الأدب التونسي: 34، الحلل السندينية 1: 708 إتحاف أهل الزمان 1: 129.

تقديرنا الذي لا ينتهي عند حدّ لعلم هذين العلمين البارزين⁽¹⁾ فإنّا لا نأخذ مذهبهما هذا في تاريخ حلول ابن زياد بتونس متزامناً مع عظمة الدولة الأغلبية مأخذ التسليم، بل نرى خطأ الظاهر لأنّ وفاة الفقيه طرابلسي علي بن زياد كان - كما هو مقرر في المظان القديمة والحديثة في عام (183هـ / 799) وأنّ عام الوفاة هذا كان متزامناً مع بداية ظهور الدولة الأغلبية في تونس⁽²⁾ أو على وجه الدقة والضبط والتحديد قبل هذا الظهور الأغلبي بسنة واحدة، إذ وفاته كانت في عام (183هـ) والظهور في سنة (184هـ) ولم يكن متزامناً مع عظمة هذه الدولة⁽³⁾.

ومن ذهب هذا المذهب الخاطئ في عدّ واعتبار ابن زياد من الأعلام الذين أنجبهم العهد الأغلبي الأستاذ الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، حيث ذكر أنه «نبغ في عهد الأغالبة الكثير من العلماء والأدباء من أشهرهم... علي ابن زياد الفقيه شيخ المغرب»⁽⁴⁾.

ومعنى ذلك أن زمن مجيء ابن زياد من طرابلس الغرب إلى تونس كان قبل وفاته المحددة بعام (183هـ) بسنوات طويلة، سمح لها بامتدادها في هجرته الأخيرة إلى تونس بتكوين المركzin الفقهيين وبتخریج تلاميذه المشهورين فيها حسبما يأتي تفصيل ذلك، وأن ذلك الزمان الذي وصل فيه إليها كان - دون ريب - في عهد الأمراء المهاة لا الأغالبة⁽⁵⁾.

وببدو أنّ زمن المهاة هذا السابق زمن الأغالبة كان زمناً آمناً إلى حدّ ما بالقياس إلى الوضع السياسي الذي كانت تمثّله بلاده طرابلس الغرب، مما أغراه بالرحلة إلى تونس طلباً للاستقرار والأمن والعطاء والإفادة.

(1) راجع في ترجمتيهما كتابنا «أعلام الحركة الفكرية والأدبية في الغرب الإسلامي».

(2) راجع «الأغالبة» للدكتور محمود إسماعيل، الحلقة السنوية للسراج ورقات لحسن حسني عبد الوهاب.

(3) المصدر السابق، نفسه.

(4) قصة الأدب في ليبيا 1: 60.

(5) خلاصة تاريخ تونس: 70، هذه تونس: 40، المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس: 60 - 63.

ولقد تحققَت للفقيه ابن زياد الطرابلسي - كما يظهر - رغائبه في مهجرة تونس - زمن المهابة ، فاتخذه بعد وصوله في تاريخ لا نعلمُه على وجه الدقة والتحديد دار إقامة دائمة لحياته إلى أن أدركته المنية فيها في التاريخ المعلوم .

والظنُّ الغالب أنَّه استقر في مدينة القيروان أولاً، لأنَّها كانت مدينة علم، ومصرًا من أمصار الإسلام، وأقام فيها زمناً بمحرس الأنصار العامر، ونهض بمهام نشر العلم والتدريس في مساجدها وجوامعها الشهيرة، مثل مسجد الأنصار الذي اخترقه رويفع بن ثابت الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ ومن كان معه من الصحابة والتابعين والكائن بمحرس الأنصار⁽¹⁾ ومثل مسجد الزيتونة بالقيروان بمحرس الأنصار أيضاً، وهو مسجد كبير جليل بني في سنة ثلاثة وتسعين⁽²⁾ ومثل مسجد أبي ميسرة الذي بناه أيضاً بعض التابعين⁽³⁾.

ثم انتقل بعد ذلك من مدينة القيروان أو من محرس الأنصار بالقيروان إلى محله ابن دراج بتونس، في زمن نجهل تاريخه، وأقام فيها إقامته الدائمة حيث أقام أيضاً ينشر العلم والفقه في ربوعها، وبخاصة في جامعها العريق جامع الزيتونة المعمور الذي تأسس في سنة ست عشر ومائة زمن الأمير عبد الله ابن الحبيباب⁽⁴⁾ وقد أشار أستاذنا المحقق محمد العنابي إلى تدریسه في هذا الجامع الجامع بقوله : «ومن أعظم وأكمل المساجد التي نالت شهرة ذاتية، وقامت بدور عظيم وبالغ في إفريقيا جامع الزيتونة؛ فمنذ منتصف القرن الثاني للهجرة عرف هذا الجامع كمعهد للدرس والبحث والتفكير، فقد درَّس به علي ابن زياد وابن أشرس، وتواجد عليه رواد المعرفة، وانتظمت به حلقات الدرس، ثم أخذت تتسع إلى أبعد آماد الاتساع، فكان مجمعاً عظيماً لحفظة الفقه،

(1) معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان 1:27.

(2) م.ن 1:27، 28.

(3) م.ن 1:28.

(4) المؤنس: 40.

وأساطين البحث والتفسير والحديث والأصلين والأدب والرياضية والطب والحكمة»⁽¹⁾.

ونحسب أيضاً أن سنوات إقامة مترجمنا في هذا المهجر «القيروان وتونس» دامت سنوات، حظي خلالها بالتكريم من الراعي والرعاية على حد سواء، حيث عرفت مكانته لدى الخاصة وال العامة، وتحلق به خلالها طلاب العلم الكبار من تونس وغيرها من بلدان الغرب الإسلامي، وظهر فيها عطاؤه بينهم برواية الموطا، وأسمعته من الإمام مالك.

وبذلك تأسست - كما يقول الشيخ محمد الشاذلي التيفر - «مدرسة الفقهية المتميزة»⁽²⁾ وما من ريب أيضاً في أن هذا العالم قد أصاب حينما أرجع الفضل إليه في ظهور هذه المدرسة المالكية السنوية، حيث قال: «يرجع الفضل كله في تأسيس المدرسة التونسية وغيرها من المدارس بإفريقيا، سواء بالقيروان أو بقية أمهات المدن الأخرى إلى علي بن زياد؛ فهو الذي شيد هذا الصرح العظيم، هذا الصرح العلمي الباقى على الأيام، رغم العوارض وال Kovarath والمناوين من أهل المذاهب الكائدين له»⁽³⁾.

ويظهر من خلال ما قدمنا في الطور الطرابلسي الأول من حياته، ومن سماعه في تونس من شيخه خالد بن أبي عمران التونسي المتوفى عام 125/742 أو سنة 129/746 حسب إحدى الروايات، والذي استنرجنا من تاريخ وفاته المذكور أنَّ مترجمنا ابن زياد الطرابلسي، ولد في أوائل القرن الثاني الهجري، وبالنظر إلى تاريخ وفاته المحقق في المظان والمراجع - كما سيأتي ذكره - يظهر لنا أيضاً أن مترجمنا عاش ممتعاً بحياة طويلة ومديدة، بلغت - حسب القرائن المتوفرة - الثمانين سنة أو يزيد.

(1) فهرست الرصاع: 133.

(2) راجع تحقيقه كتاب «قطعة من موطا ابن زياد».

(3) قطعة من موطا ابن زياد: 36.

وقد أنفق عليُّ بن زياد قدرًا غير قليل من سنِّيهَا في أخْرِيَات حِيَاتِهِ، بعد سُنِّي الإِقَامَةِ فِي الْقِيرْوَانِ، فِي مَهْجُورِهِ الْأَثِيرِ بِمَدِينَةِ تُونسِ الْعَاصِمَةِ، حِيثُ أَقامَ فِيهَا – كَمَا أَخْبَرَنَا تَلَمِيذُهُ أَبُو الْهَيْشَمِ خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ الْفَارَسِيَّ – فِي رَحْبَةِ «بَنِي دَرَاجٍ» حِيثُ كَانَ يَزُورُهُ فِي بَيْتِهِ فِيهَا تَلَامِيذُهُ يَسْأَلُونَهُ وَيَسْتَفْتُونَهُ⁽¹⁾، كَمَا كَانَ يَخْتَلِفُ مِنْهُ خَلَالِ هَذِهِ الإِقَامَةِ إِلَى بَعْضِ الْمُدُنِ الْمُجَاوِرَةِ.

وَبِخَاصَّةِ مَدِينَةِ الْقِيرْوَانِ الَّتِي تَكُونُ بَهِ وَبِتَلَامِيذِهِ فِيهَا الْمَرْكَزُ الْفَقَهِيُّ الثَّانِي لِلْفَقَهِ الْمَالِكِيِّ خَلَالِ الْقَرْنَيْنِ الثَّانِيِّ وَالثَّالِثِ الْهَجْرِيَّيْنِ.

وَإِذَا مَا عَرَفْنَا أَنَّ ابْنَ زِيَادَ كَانَ زَاهِدًا أَشَدَّ الزَّهْدِ فِي الْقُرْبِ مِنَ الْحُكَّامِ، وَفِي تَوْلِي مَنَاصِبِ الْقَضَاءِ وَغَيْرِهِ الَّتِي دَلَّ مُتَرَجِّمُوهُ الْقَدَامِيُّ عَلَى رَفْضِهِ قَبْولِهَا، وَإِيَّاَهُ التَّدْرِيسِ وَالْتَّعْلِيمِ وَحِيَاةِ الْحُرْيَّةِ وَالْخُمُولِ، وَالْبَعْدُ عَنِ مَوَاطِنِ الْمَنَافِسَةِ وَالصَّرَاعِ⁽²⁾ مَا يَدُلُّ عَلَى عَظِيمِ عَقْلِهِ وَحِكْمَتِهِ، فَإِنَّا نَتَبَيَّنُ مِنْ ذَلِكَ دُونَ رِيبٍ أَنَّ أَخْرِيَاتِ حِيَاةِ هَذَا الْفَقِيهِ الْمُحَدِّثِ مَرَّتْ حِيَاةً هَانِثَةً هَادِئَةً مَطْمَئِنَّةً، كَانَ يَعِيشُهَا كَمَا يَعِيشُ الْعَقْلَاءُ حِيَاتَهُمْ فِي اسْتِقْرَارٍ وَهُنَاءٍ، وَأَغْلَبَ الظُّنُونُ أَنَّ ابْنَ زِيَادَ الْطَّرَابِلِسِيِّ قدْ اسْتَفَادَ هَذَا الْمَذْهَبُ الْحَيَاتِيُّ الْمَجَافِيُّ لِحِيَاةِ السِّيَاسَةِ وَالسَّاسَةِ مِنَ الْمَحْنَةِ بَلِ الْمَحْنَ الْمَهْلَكَةِ الَّتِي مَرَّ بِهَا شَيْخُ الْإِمَامِ مَالِكٌ⁽³⁾ وَشَيْخُهُ سَفِيَّانُ الْشُّوْرِيِّ⁽⁴⁾ وَأَيْضًا مَا لَاقَهُ بَعْضُ تَلَامِيذِهِ فِي تُونسِ مُثِلُ الشَّيْخِ الْبَهْلَوِيِّ بْنِ رَاشِدٍ⁽⁵⁾؛ فَآتَى – مَعَ اسْتِشْعَارِهِ الْغَرْبَةِ وَالْطَّرَوِّعِ عَلَى مَهْجُورِهِ بِتُونسِ – سُلُوكَ مَسْلِكِ السَّلَامَةِ الَّذِي وَجَدَ رُوضَهُ الْأَنْيَقَ فِي التَّفَرُّغِ لِلتَّدْرِيسِ وَتَكْوِينِ التَّلَامِيذِ، وَتَأْلِيفِ بَعْضِ الْأَثَارِ الْعُلْمَيَّةِ وَجَمِيعِهَا، وَمِنَ الْبَدِيَّيِّ أَنَّ يَكُونَ مُتَرَجِّمَنَا عَلَى بَنِ زِيَادِ

(1) رياض النُّفُوس 1: 235 - 236.

(2) راجع في ذلك: الحلل السنديّة في الأخبار التونسيّة 1: 708 - 711.

(3) راجع في ذلك كتاب: «مالك حياته وعصره - آراءه وفقيهه» للإمام الشيخ محمد أبو زهرة: 60 - 64.

(4) يراجع في ذلك كتاب: «سفيان الثوري» لعبد الغني الدقر.

(5) راجع: الحلل السنديّة: 721 - 773، ترتيب المدارك 1: 337 - 339، معالم الإيمان 1: 276.

الطرابلسي - وكما دلت بعض المصادر - من أوائل علماء الإسلام الذين تصدروا للتدريس في جامع الزيتونة المعمور بتونس، ومن الأعلام الرواد الذين نهضوا بالإقراء فيه، قال أبو عبد الله محمد الأنصاري: «ومن أعظم وأكمل المساجد التي نالت شهرة ذائعة، وقامت بدور عظيم وبالغ في إفريقيا جامع الزيتونة، فمنذ متصف القرن الثاني للهجرة عرف هذا الجامع كمعهد للدرس والبحث والتفكير، فقد درّس به علي بن زياد وابن أشرس وتواجد عليه رواد المعرفة، وانتظمت به حلقات الدرس، ثم أخذت تتسع إلى أبعد آماد الاتساع»⁽¹⁾.

وقد كان من أبرز تلاميذه المشاهير الذين انتفعوا بعلمه في حلقات الدرس بهذا الجامع المعمور بتونس - حسبما نفصل فيه القول بعد قليل: أسد بن الفرات، والبهلول بن راشد، وسحنون بن سعيد التنوخي، وشجرة بن عيسى، وموسى بن معاوية، وغيرهم من تلاميذه الآخرين المعمورين⁽²⁾.

ومن محاسن اختياره هذا المسلك المعيشي الهادئ في مهجره في مدينة تونس التي اتخذها مستقرًا ومأمانًا لأخriات حياته بالإضافة إلى قيامه بالتدريس في جامع الزيتونة، أَنَّه أحسن فيها بتبويب وترتيب كتابه «الموطأ» المنسوب إليه - كما سمعه من شيخه الإمام مالك رضي الله عنه -، كما واظب على إلقائه وتدريسه في المركز الرئيسي «تونس» في جامع الزيتونة، كما أقرأه من قبل في المركز الفقهي الثاني «القيروان».

ولم يقتصر ابن زياد الطرابلسي في هذا الطور الأخير من أطوار حياته على ذلك الجهد العلمي المحمود في الإقراء والتدريس، وفي التبويب والتصنيف، والإجازة بكتاب «الموطأ» والإفتاء على مذهب شيخه الإمام مالك، بل وتدريسه كتاب «الجامع» لشيخه العراقي، «سفيان الثوري فحسب»، بل عمد إلى تأليف

(1) فهرست الرصاع: 133.

(2) يراجع: طبقات علماء إفريقيا وتونس: 220.

كتابه الفقهي «خير من زنته»⁽¹⁾. الذي سنعرض للتعرف به فيما بعد ضمن الحديث عن تأصيله المذهب المالكي ونشره.

وقد مضت خواتيم حياة هذا المهاجر الطرابلسي علي بن زياد في مهجره الأثير في مدينة تونس على هذا النحو المستقر الهداي، المتسم بالفاعلية والتأثير إلى أن اختاره الله تعالى إليه في جواره الكريم في التاريخ الذي ذكره مؤرخوه على أنَّ الذي نجهله من أخرىات هذا الطور الخاتم لحياته، بل من الطورين الأولين من حياة عليٍّ بن زياد الطرابلسي، كما جعله من قبلنا من مؤرخيه ودارسيه، ولم تعرض له المصادر القديمة والمراجع الحديثة بشيء، ما يتصل بالأوضاع الاجتماعية لهذا الفقيه، هل تزوج ابن زياد في مقتبل عمره في فترة مكثه في طرابلس الغرب، أو أنه بنى بزوجه أو أزواجه في مرحلة بقائه في المشرق، أو في زمن مهجره بتونس؟ وهل أنجب هذا الفقيه من زواجه على فرض حصوله أبناء وذرية وحفدة أو لم ينجبا؟

وإذا كان قد أنجب بما طبيعة أحوال هؤلاء الأبناء، وما ظروفهم العلمية والاجتماعية التي عرفوا بها بين أهل زمامهم.

الحقُّ أنه لم يصلنا شيء مما يتصل بالإجابات عن هذه التساؤلات المهمة المتصلة بحياة هذا الفقيه.

ولكن غاية ما علمنا من أخرىات سني حياة مترجمنا في هذا الطور الخاتم الذي كانت تحكم فيه الدولة العباسية المغرب الأدنى (طرابلس وتونس) عن طريق ولاتها من بنى المهلب أو المهالبة أنه كان عهداً قلقاً غير مستقر، إذ كثر فيه عدد هؤلاء الولاة الذين عاش مترجمنا في كنفهم بتونس حيث شهد ولادته عمر ابن حفص بن أبي صفره⁽²⁾ ثم عهد ولاية يزيد بن حاتم بن أبي قبيصة بن

(1) يراجع: ترتيب المدارك 1: 326 ترجم أغلبية: 22، تاريخ الأدب التونسي: 38، جمهرة تراث الفقهاء المالكية 2: 850 - 851، دراسات في مصادر الفقه المالكي: 134.

(2) المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس: 60.

المهلب ابن أبي صفرة⁽¹⁾ وعهد الأمير روح بن حاتم الذي عمل على أن يكون علي بن زياد قاضياً في عهده⁽²⁾ ثم الأمير هرثمة الهاشمي الذي بقي في الحكم إلى سنة ثمانين وفي عهده بنى بلد المنستير وسور مدينة طرابلس، وأمن الناس في أيامه، وأخيراً عهد الوالي محمد بن مقاتل بن حكيم العكي (181 - 184) الذي ولأه هارون الرشيد خلفاً لسلفه، وبلغت الأحوال في أيامه وهي أخريات سنوات حياة مترجمنا ابن زياد الطرابلسي أسوأ وأوضاعها، وبسبب فساده وسوء تدبيره وقد وصف ابن عذاري المراكشي هذا الوالي بأنه «لم يكن بال محمود السيرة، فاضطربت أمره، واختلف جنده، وأُسير إلى قبح رأيه، وسوء سيرته وقبح ما يؤثر من أخباره»⁽³⁾ فكان ذلك مؤذناً بانتهاء ولايته، بل بانصرام عهد دولته، وظهور الدولة الأغلبية.

وليس ثمة شك في أن اضطراب الأمور في عهد الوالي العكي الذي لم تحمد سيرته وأخباره قد انعكست على الأحوال والحياة العامة في المغرب الأدنى، كما انعكست أيضاً عن الحياة الخاصة لمترجمنا الفقيه علي بن زياد، الذي فارق الحياة في أيامه، وقبل ظهور العهد الأغلبي الذي تلا عهده.

* * *

(1) م.ن: 61.

(2) م.ن: 62.

(3) البيان المغرب في أخبار المغرب 1:111 معالم الإيمان 1:276.

المبحث الخامس

أخلاقه ووفاته وثناء العلماء عليه

❖ ١ - أخلاقه :

يُجدر بنا - قبل الحديث عن دور الفقيه أبي الحسن علي بن زياد الطرابلسي في تأصيل المذهب المالكي ونشره في القرن الثاني الهجري، أن نجلو في تصوير أبعاد شخصيته - الفضائل النفسية والخلقية التي عرف بها هذا الفقيه لدى شيوخه وتلاميذه، ومن عاشهه وعايشه من المشارقة والمغاربة المشهورين والمغمورين .

لقد عرف مترجمنا ابن زياد - رحمه الله - مع علمه وفقهه وروايته في مذهب الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة المباركة على ساكنها أفضل الصلاة وأذكى السلام، وتصدره لرواية موطأه ونشره له في ديار الغرب الإسلامي - بخلال نفسية محموده، وفضائل خلقية رفيعة، دلت على تدينه وتقاه، وأكّدت على التوافق والانسجام في شخصيته بين معتقدة وسلوكه، وكتبت له - دون ريب - القبول والتأثير في الديار التي عاش فيها في المشرق والمغرب وأيضاً عند الحكم والمحكمين فيها على حد سواء .

والحق أن تلك الخلال والفضائل التي كانت من آلياته الروحية التي بثّ بها

العلم، ونشر بفضلها المذهب، كانت موضع إشادة واجماع بين مؤرخيه القدامى، ومتراجميه المحدثين قال تلميذه أسد بن الفرات - رحمة الله - كان علي ابن زياد من أكابر أصحاب مالك، روى عنه غير واحد»⁽¹⁾.

وكان سحنون يقول في تقاديمه «كان بتونس علي بن زياد، وابن أشرس وعبد الملك بن أبي كريمة، ولم يكن ابن أبي كريمة في ناحيتهما، وإنما كان رجلاً صالحًا ورعاً، صاحب أحاديث»⁽²⁾، وسوف نجد من شهادات الإمام سحنون في شيخه ابن زياد - رحمة الله - ما يزكيه.

ووصفه أبو العرب من علماء القرن الرابع بقوله: «كان ثقة مأموناً فقيهاً [خياراً]⁽³⁾ متبعداً بارعاً في الفقه»⁽⁴⁾.

وقال الحافظ الذهبي عنه: «كان إماماً ثقة متبعداً بارعاً في العلم، رحل وسمع من سفيان الثوري ومالك واللith وطبقتهم»⁽⁵⁾.

وقال صاحب «شجرة النور الزكية في طبقات المالكية» واصفاً فضائل علي ابن زياد «الثقة الحافظ الأمين المرجوع إليه في الفتوى، الجامع بين العلم والورع، لم يكن في عصره يافريقياً مثله»⁽⁶⁾.

ومن علامهم ورعيه وأمانته، وزهرده في المناصب الرسمية والرتب والقضاء، ما روي عنه من أنَّ أمير إفريقياً، ورسول الخليفة بتونس، أرسل إلينه يستشير أنه فيمن يتولى القضاء؛ فامتنع عن الذهاب إليهما، فاضطر إلى الذهاب إلى منزله، فلما أخبر أنهما عند بابه حَوَّل وجهه إلى الحائط، فدخل عليه، وسأله الوالي

(1) راجع: طبقات علماء إفريقيا وتونس، ورياض النفوس وترتيب المدارك، وطبقات علماء إفريقيا والحلل السنديبة في الأخبار التونسية، وترجمات أغليبة.

(2) رياض النفوس 1: 323.

(3) كما ورد اللفظ في «رياض النفوس» 1: 158. وورد في ترتيب المدارك 1: 166 «خيراً».

(4) طبقات علماء إفريقيا وتونس: 220.

(5) تاريخ الإسلام: 310. نفحات التسرين والريحان: 66.

(6) شجرة النور الزكية: 60.

بِلِسَانِ رَسُولِ الْخَلِيفَةِ عَمَّنْ يَسْتَحِقُ أَنْ يَوْلِي الْقَضَاءَ فِي إِفْرِيقِيَا، فَحَوْلَ وَجْهِهِ إِلَى
الْقَبْلَةِ، وَقَالَ: وَرَبِّ هَذِهِ الْقَبْلَةِ مَا أَعْرَفُ بِهَا أَحَدًا يَسْتَوْجِبُ الْقَضَاءَ؛ قَوْمًا
عَنِي»⁽¹⁾.

وعلي بن زياد أشدّ ازوراً وامتعاضاً إذا اتصل الأمر بذاته إذا رغب الحكام في أن يتولى القضاء، ولقد صرّ أبو بكر عبد الله المالكي مشهداً لابن زياد تفصّد فيه جبينه بالعرق، وخرج على إثره فاراً من تونس إلى حاجها كي لا يلحق به رسول أمير إفريقيا، ونحن نؤثّر نقل ما كتبه المالكي عن هذا المشهد لدقّة وصفه، قال: «وبعث روح بن حاتم⁽²⁾ أمير إفريقيا إلى تونس في طلب علي بن زياد ليوليه القضاء، فقدم عليه، وأقبل بهلول بن راشد والصالحون إلى باب دار الإمارة، إذ بلغهم قدومه ودخوله على روح بن حاتم، فمكثوا يتظرون خروجه إلى أن خرج عليه ممسياً يمسح العرق عن جبينه، فقالوا له ما فعلت؟ فقال لهم: عافي الله وهو محمود؛ فقال له بهلول بما عزمت عليه؟، فقال: على ألا أبیت بها، فييدو له فيوجه ورائي، فذهب البهلوان وأصحابه مع علي حتى خرجوا من باب تونس، والباب يرید غلق باب المدينة لدخول الليل، فسألوا الباب أن يمکث حتى يتھوا مع علي إلى وادي أبي كريب⁽³⁾ ويحبس عليهم الباب، ففعل، فتوجهوا حتى ودعوه بعد غروب الشمس؟ فانطلق علي بن زياد وحده على حماره إلى تونس»⁽⁴⁾.

فليس تم ريب في أن قرار ابن زياد هذا بنفسه بعد المعافاة من ملاقاًه هذا
الأمير، وخوفه بعد ذلك من ملاحقة إيه، وتکلیفه بالقضاء، دال على تقاه
وورعه، وخشيته من تبعات هذه الخطة الصعبة.

ومن الروايات الدالة أيضاً على خوفه من الله، وتعظيمه له ما اتفقت

(1) ترتيب المدارك 1:328، تراجم أغلبية: 24. رياض النقوس 1:237.

(2) سبقت الإشارة إليه، راجع «المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس»: 62.

(3) موضع بين تونس والقيروان.

(4) رياض النفوس [1:237]، طبقات علماء إفريقيا وتونس: 252.

المصادر مجتمعة على إيراده، والاستشهاد به، حيث ذكرت أنه كان يصلّي في جامع القيروان المركز الفقهي الثاني الذي كان يشرف عليه، وشرع في التكبير؛ فارتعدت فرائصه وأطراقه خوفاً من الله، واستحضره لجماله وجلاله، ثم تحامل على نفسه، وكبيرٌ فتغير لونه وامتقنع⁽¹⁾، قال أبو العرب في كتابه «الطبقات»: «وحدثني محمد بن خالد بن يزيد الفارسي عن أبيه، قال: رأيت عليّ بن زياد أتى إلى سارية بالمسجد الجامع بالقيروان؛ فأراد أن يكبير فأرعد خوفاً من الله عزّ وجلّ، ثم تحامل فكبر وتغيّر لونه⁽²⁾».

ومن صفاته الخلقيّة والنفسية المتأثرة أنه كان - كما يجاهر بالحق ولا يخشى فيه أحداً من الحاكمين - كان أيضاً يجاهر به أهل العلم والجدل وال العامة المحكومين، حينما يرى ضعفهم المعرفي، وعجزهم العلمي، وجرأتهم على التدريس والإقراء، قال أبو جعفر بن قطويه: مرّ عليّ بن زياد بأبي محرز، وعنه الطلبة؛ فقال يا محرز ما الذي أراد الله سبحانه وتعالى من عباده؟

قال: الطاعة؛ فقال: وما الذي أراده إيليس منهم؟، فقال له: المعصية، فقال له: «أيُ الإرادتين غلت؟»، فقال له أبو محرز: «أقلني - أقالك الله تعالى -»، فقال له عليّ: والله لا أقول لك حتى تتب عن بدعتك، ثم التفت عليّ بن زياد إلى الطلبة، فقال: «شاهدت الوجه، فمن هذا تسمعون؟!!»⁽³⁾ فإن هذا الموقف الحواري بينه وبين أبي محرز يدلُّ من قريب على اشتداد مترجمنا على أهل البدع، وعلى خاصية محترمة في شخصيته، وهي سعيه إلى جدال أهل الباطل، والتصدي لكتبهم، ودفع أباطيلهم.

وهناك مواقف أخرى يعاصر وجود هذه الظاهرة الحية في شخصيته، وقد جرت أيضاً مع أبي محرز محمود نفسه، وقد أخبر بها أبو الهيثم خالد بن يزيد

(1) طبقات علماء إفريقيا: 98، 99، ترتيب المدارك وتقريب المسالك 1: 328، ترجم أغلبية: 24.

(2) طبقات علماء إفريقيا وتونس: 252، ترتيب المدارك 1: 328.

(3) رياض النفوس 1: 235، 236.

الفارسي أحد تلاميذ علي بن زياد الطرابلسي - كما رجحنا عند الحديث عن تلاميذه.

وخلالصة ما أخبر به أنه استأذن مع شيخه البهلوان بن راشد ومعهما رجل آخر في الدخول على شيخهم علي بن زياد فأذن لهم «وجعل بهلوان يسأله عن مسائل، حتى دخل أبو محرز فسلم؛ فشقق له علي بن زياد في السلام، ولم يلتفت إليه، فقام بهلوان، وقال لبي: «يا خالد اجلس ننظر ما يقول له، فجلست فقال له أبو محرز: يا أبا الحسن قد تعلم ما بيننا وبينك من العشرة والمودة، وقد أرى منك غير ذلك، فلم ذلك؟!»

فقال له علي بن زياد: يا محمود بلغني عنك أنك تقول إن إيليس يستطيع السجود؛ فإذا كان يستطيع السجود، فكيف يجوز لك أن تلعنه، فلعله قد سجد؟ فوجم أبو محرز وأخذ له في غير الجواب، وأخذ علي يكرر ذلك عليه، وهو يحيد عن الجواب»⁽¹⁾.

فهذا الخبر يدل مع فهمه العميق للدين على قدرته العقلية في الحجاج له، وهو مظهر من مظاهر شخصيته.

ومن الفضائل النفسية التي عرف بها الفقيه المحدث علي بن زياد الطرابلسي فضيلة التواضع والحدب على طلابه الجادين في التحصيل والراغبين في الوصول إلى أخذة بقوّة، ونشره في رفق ودين واحتساب؛ يظهر ذلك فيما جسده موقفه التربوي الرائع مع تلميذه النابغ سحنون بن سعيد الذي قال مخبراً عنه، قال: «وكتب البهلوان»⁽²⁾ إلى علي بن زياد «يأتيك رجل يطلب العلم للله»⁽³⁾.

فلما وصل سحنون أتاه علي إلى بيته - أي إلى بيت سحنون بالموطأ،

(1) رياض النفوس 1: 235، 236.

(2) أي تلميذه العالم الجليل البهلوان بن راشد التونسي.

(3) ترتيب المدارك 1: 328.

وقال له: «والله لا سمعته على إلا في بيتك، لأن أخي البهلوى كتب إليك
من يطلب العلم الله»⁽¹⁾.

فهذه القصة أو الحكاية بل الخبر يدلنا من قريب على معانٍ وإفادات موضوعية مهمة، تشير إلى أن هذين العالمين الطرابلسي علي بن زياد والتونسي البهلوى بن راشد كانوا نديدين أو في سن مقاربة معه، حيث عبر ابن زياد عن البهلوى بلفظ أخي، وتدلنا أيضاً على أن سحنون بن سعيد كان يصغرهما سنًا حيث وصفه البهلوى بقوله: «رجل يطلب العلم الله» وفي ذلك إشارة إلى معرفة البهلوى بابن زياد كانت متقدمة وسابقة كما تدلنا أيضاً على أن العالم التونسي البهلوى ابن راشد كان يقدم هذا العالم الطرابلسي الطارئ على علماء بلدته تونس لاقرائه الموطأ وفقه الإمام مالك بن أنس لسحنون بن سعيد، الذي اشتراك معه في الأخذ عن علي بن زياد، وتدلنا أخيراً على هذه الفضيلة النفسية التربوية الراقية في ذهاب ابن زياد إلى بيت سحنون لاقرائه الموطأ فيه، تقديرًا لوصف البهلوى له بأنه «رجل يطلب العلم الله»⁽²⁾.

• 2 - وفاته وثناء العلماء عليه:

كما أجمعت الروايات التاريخية والمصادر القديمة والمراجع الحديثة، على أن علي بن زياد الفقيه المحدث ولد في مدينة طرابلس في تاريخ غير محدد، أجمعوا كذلك على أن وفاته كانت في مهجره بمدينة تونس العاصمة التي سكنها، وأمضى فيها شطراً كبيراً من أخيريات حياته، ثم قبر فيها.

ومن الغريب حقاً أن يذكر الدكتور الصيد محمد أبو ديب في بحثه القيم عن مترجمنا علي بن زياد⁽³⁾ أن خير الدين الزركلي «ينفرد بقوله: «إن علي بن

(1) رياض النعوس 1: 350، 351.

(2) ترتيب المدارك 1: 328، رياض النعوس 1: 250، 351.

(3) راجع بحثه: «علي بن زياد من علماء ليبيا في القرن الثاني الهجري «أعمال ندوة التواصل الثقافي بين أقطار المغرب العربي»: 423.

زياد دفين تونس وأن قبره بها حتى الآن»⁽¹⁾، وهذا القول الذي قرره الزركلي، واستغراه الصيد أبو ديب هو – كما لا يخفى – موضع إجماع، واتفاق بين مترجمي ابن زياد، فقد ذكرته المصادر القديمة، واتفقت عليه المراجع الحديثة، إذ لا يزال قبره في تونس يزار، ويترى به.

أما الخلاف بين تلك المصادر فهو حاصل في تحديد سنة هذه الوفاة بالرغم من وضوح تاريخه، وإنما مردُه إلى الوهم والظن اللذين لا يسا بعض مترجميه؛ فقد وهم أحمد النائب الأنباري، وربما كان ذلك من تحرير نسخ كتابه أنَّ وفاة عليٍّ ابن زياد كانت في عام (130هـ)⁽²⁾ أي عام (747م) عوض (180هـ/796) الذي يبدو أقرب للصواب، واجتهد الدكتور عبد اللطيف البرغوثي في محاولة تصويب ذلك التاريخ، مع وجود النصّ، وصححه وجعله في عام (182هـ/798)⁽³⁾، وذكر الأستاذ الدكتور فؤاد سزكين أن ابن زياد (توفي حوالي 184هـ/801)⁽⁴⁾.

أما شيخنا الطاهر أحمد الزاوي – رحمه الله تعالى – فقد ذهب في ذلك مذهبين: الأول فيما ذكره في الطبعة الأولى من كتابه «أعلام ليبيا» حيث قال: إنه لم يقف على تاريخ وفاة علي بن زياد⁽⁵⁾، أما في الطبعات الأخيرة، وأيضاً في كتابه «تاريخ الفتح العربي في ليبيا» فقد قرر أن هذه الوفاة كانت في عام (183هـ)⁽⁶⁾ وهو ما ذكره عياض حيث قال: «مات علي بن زياد، والبهلول بن راشد عام 183هـ»، هو ما ذكره بعض القدماء من المؤرخين⁽⁷⁾، واعتمده بعض العلماء من المتأخرین⁽⁸⁾.

(1) الأعلام 4: 289.

(2) نفحات النسرين والريحان: 59.

(3) تاريخ ليبيا الإسلامي: 319.

(4) تاريخ التراث العربي 2: 132.

(5) أعلام ليبيا ط 1: 207.

(6) أعلام ليبيا ط 2: 261، تاريخ الفتح العربي في ليبيا: 149.

(7) يراجع: ترتيب المدارك، وطبقات علماء إفريقيا، وورقات عن الحضارة العربية بإفريقيا.

(8) يراجع معجم المؤلفين 7: 96، وتاريخ التراث العربي 2: 132.

والحقُّ الصراح في هذه المسألة هو ما قرَرَه أقدمهم تاريخاً وهو أبو العرب القيرواني، حيث قال في طبقاته وهي - كما أسلفنا من أقدم المصادر في ترجمة الفقيه الطرابلسي حيث قال: «وَحَدَثَنِي سعيدُ بْنُ إِسْحَاقَ أَنَّ عَلَيَّ بْنَ زِيَادَ وَالْبَهْلَوْلَ بْنَ رَاشِدَ ماتَا فِي سَنَةِ ثَلَاثَ وَثَمَانِينَ وَمِائَةً»⁽¹⁾ وحيث قال أيضاً: «وَكَذَلِكَ ذَكَرَ أَحْمَدُ بْنُ يَزِيدَ فِي وِفَاءِ عَلَيٍ وَالْبَهْلَوْلِ»⁽²⁾ يقصد عام (183هـ/999)، وهو التاريخ الصحيح والدقيق لوفاة مترجمنا ابن زياد، وأيضاً لوفاة تلميذه البهلوبي بن راشد.

ثم جاء المؤرخون بعد أبي العرب القيرواني؛ فقرروا ما قرَرَه، وهو العام المذكور عنده، أي عام (183/799)⁽³⁾.

قال أحمد بن قنفود القسنطيني: «وَفِي سَنَةِ ثَلَاثَ وَثَمَانِينَ وَمِائَةً، تَوَفَّى عَلَيْهِ أَبْنُ زِيَادَ صَاحِبُ مَالِكٍ، بِتُونِسٍ»⁽⁴⁾.

وقال ابن ماكولا (الحافظ): «تَوَفَّى سَنَةِ ثَلَاثَ وَثَمَانِينَ وَمِائَةً، قَالَهُ أَبْنُ يُونَسَ»⁽⁵⁾.

وقال أحمد بن أبي الضياف: «وَتَوَفَّى سَنَةِ ثَلَاثَ وَثَمَانِينَ وَمِائَةً (183 – 799) وَقَبْرُهُ بِمَدِينَةِ تُونِسِ مَعْرُوفٌ»⁽⁶⁾.

وهذا التاريخ المحدَّد عند الأوائل، والمتصل بوفاة ابن زياد الطرابلسي، هو التاريخ عينه المعتمد عند أغلب العلماء المتأخرین من أمثال حسن حسني عبد الوهاب ومحمد الشاذلي النيفر، ومحمد الفاضل ابن عاشور⁽⁷⁾ والطاهر أحمد الزاوي⁽⁸⁾ والدكتور قاسم علي سعد⁽⁹⁾ وغيرهم.

(1)، (2) طبقات علماء إفريقيا وتونس: 223.

(3) طبقات علماء إفريقيا: 252.

(4) شرف الطالب في أنسى المطالب (ألف سنة من الوفيات): 36.
(5) الإكمال 1: 524.

(6) إتحاف أهل الزمان 1: 126.

(7) ورقات عن الحضارة العربية 1: 42، قطعة من موطن ابن زياد: أعلام الفكر الإسلامي.

(8) أعلام ليبيا: 261.

(9) جمهرة تراجم الفقهاء المالكية 2: 851.

أما ما ذكره العلامة صلاح الدين خليل الصفدي من أنه توفي في حدود تسعين ومائة⁽¹⁾ فهو تاريخ انفرد بخطئه، ومرجوح بما قررناه من الرأي الراجح، ولعله عنده من وهم النساخ.

وقد قبر الفقيه علي بن زياد الطرابلسي في مهجره مدينة تونس - حرسها الله - في المقبرة التي كانت تسمى قديماً مقبرة السلسلة⁽²⁾ - كما أشار إلى ذلك العلماء مثل ابن قنف القسنطيني⁽³⁾ وابن أبي الضياف⁽⁴⁾ وهو الذي نقل عنه خير الدين الزركلي - رحمة الله صاحب كتاب الأعلام⁽⁵⁾.

وقد حدد الشيخ محمد مخلوف من المتأخرین صاحب كتاب «شجرة النور الزكية» مكان قبر هذا الفقيه وموضع رمسه حسب تعريف أماكن زمانه ومواضعها حيث قال: «وقبره بتونس قرب سوق الترك مُتبرّك به، والدعاء عنده مستجاب»⁽⁶⁾.

وقال أحمد بن أبي الضياف: «وتوفي في سنة ثلث وثمانين ومائة (183هـ/799) وقبره بمدينة تونس معروف»⁽⁷⁾، ويقال إن موضع قبره دار سكانه، وكراماته مذكورة بعد موته - نفعنا الله به ورحمه»⁽⁸⁾.

وقال الشيخ محمد الشاذلي النيفر: «وقبره متبرّك به مزار، ومما يتناقله أهل العلم بتونس أنّ من زار قبره في معتنك علمي نجح - بحول الله تعالى»⁽⁹⁾. كما حدد الأستاذ المؤرخ حسن حسني عبد الوهاب موقع ضريحه ومدفنه

(1) الوافي بالوفيات 21:82.

(2) إتحاف أهل الزمان 1:126.

(3) ألف سنة من الوفيات.

(4) إتحاف أهل الزمان 1:129.

(5) الأعلام 4:289.

(6) شجرة النور الزكية: 33، 60.

(7) إتحاف أهل الزمان 1:126.

(8) إتحاف أهل الزمان 1:127.

(9) قطعة من موطا ابن زياد: 48.

في الوقت الحاضر بقوله: «و قبره في حضرة تونس معروف في أعلى الشارع الذي يحمل اسمه في ناحية القصبة»⁽¹⁾ أي أن هذا الضريح يقع ضمن شارع علي بن زياد في القصبة من تونس العاصمة، وبالتالي حدو مستشفى عزيزة عثمانة كما قرر محمد بو ذينة⁽²⁾.

وقد علقت في داخل ضريحه لوحة رخامية مكتوب عليها: «هذا ضريح الإمام علي بن زياد: هو الشيخ أبو الحسن علي بن زياد، سمع من الإمام مالك، و عنه روى الموطأ، وهو أول من دخله بلاد المغرب، ومنه سمع البهلوان بن راشد، وأسد بن الفرات، وسحنون، مات بتونس سنة 183هـ، و قبر هنا في مقبرة السلسلة»⁽³⁾.

ولا ريب في أنَّ هذا الاهتمام من أهل تونس بقبر هذا الفقيه المالكي الرائد وبتسمية الشارع باسمه، دالٌ على ما في نحائزهم الطيبة من وفاء عظيم لمن هاجر إليه، ولاذ بجوارهم الكريم.

﴿ 3 - ثناء العلماء عليه : ﴾

ولقد أجمعت كلمة العلماء في القديم والحديث على الإشادة بفضل الفقيه أبي الحسن علي بن زياد، والتتويه بعلمه وفقهه، وجهوده العلمية والتکوينية في تأصيل المذهب المالكي، وتقدير فضائله النفسية التي عُرف بها، وفي طليعة من أثنى عليه منهم تلاميذه الذين عاصروه وتتلذذوا عليه، وأخذوا عنه العلم والفضل مثل البهلوان بن راشد، وأسد بن الفرات وسحنون بن سعيد وغيرهم من الفضلاء.

(1) ورقات عن الحضارة العربية بأفريقيا 1:42، وهو ما أكدته أيضاً بوذينة في كتابه: «مشاهير التونسيين»: 377 حيث قال: «و قبره معروف في أعلى الشارع الذي يحمل اسمه، حدو مستشفى عزيزة عثمانة بتونس العاصمة وفي الملحق الثالث صور لضريحه بذلك الموضع.

(2) مشاهير التونسيين: 385.

(3) يراجع في هذا كتاب: «إتحاف أهل الزمان» 1:127.

ونحن نجتزي من أقوالهم - في هذا المقام - بما قاله سحنون بن سعيد:
«ما أنتجت إفريقيا مثل عليّ بن زياد»⁽¹⁾.

وقوله أيضاً: «ما فاقه المصريون إلا بكثرة سمعاهم، وذلك أن عليّ بن زياد اختبرت سرّه وعلانيته، والمصريون إنما اختبرت علانيتهم فقط»⁽²⁾.

ومما ورد عنه - رضي الله عنه وأرضاه - في وصف علم شيخه الطرابلسي عليّ بن زياد المهاجر إلى تونس، قوله: «زعم هؤلاء القوم - يعني أهل العراق - أنهم يحسنون القياس، وقد بنوا على غير قياس»⁽³⁾ ومؤدي كلامه هذا تركية شيخه ابن زياد عليهم.

وأثنى أسد بن الفرات على شيخه ابن زياد وفضله بقوله: «إنني لأدعوك في أدبار صلاتي لمعلمي وأبدأ بعليّ بن زياد، لأنّه أول من تعلمت منه العلم»⁽⁴⁾.

وقد سبق ما وصفه به أبو العرب القيرواني من أنه «ثقة مأمون خير متبع

بائع في الفقه ممن يخشى الله - عزّ وجلّ»⁽⁵⁾.

وقد حلاه من علماء المشرق المؤرخ الأديب صلاح الدين الصفدي بقوله
مادحًا علمه وأمانته وخلاله النفسية: «كان إماماً ثقة متبعداً، بارعاً في العلم»⁽⁶⁾.

وهذه التحلية نفسها هي التي ارتضاها الإمام الحافظ الذهبي فأعادها - كما
تقدّم - بعينها في كتابه «تاريخ الإسلام» حيث قال: «كان إماماً ثقة متبعداً، بارعاً
في العلم، رحل وسمع من سفيان الثوري ومالك والليث وطبقتهم»⁽⁷⁾.

* * *

(1) رياض النفوس 1: 235.

(2)، (3) رياض النفوس 1: 236.

(4) ترتيب المدارك وتقريب المسالك 3: 82.

(5) طبقات علماء إفريقيا، الحلل السنديبة 1: 708.

(6) الوافي بالوفيات 21: 82.

(7) يراجع كتاب تاريخ الإسلام لشمس الدين الذهبي.

الفصل الثالث

تأصيله المذهب المالكي ونشره له

نقصد بتأصيل مترجمنا الفقيه علي بن زياد الطرابلسي المذهب المالكي ونشره، أخذه له عن الإمام مالك، ومجيئه بروايته وسماعه منه، وإتيانه بلاده طرابلس الغرب وتونس بأصل موطأه صحيحًا موثقًا، ثم عمل ابن زياد على نشر هذا الموطأ في وطنه طرابلس بعد عودته من المشرق، ثم في مهجره تونس التي قدر له فيها أن ينشره على الأصول الصالحة كما سمعها من شيخه الإمام، والتي حملها عنه تلاميذه الذين تولوا بدورهم تأصيله وبشه.

ويدرج في هذا التأصيل أيضًا تأليف الفقيه ابن زياد الطرابلسي كتابه الذي سمّاه مراعاة لفائدته «خير من زنته» الذي تناول فيه - كما سيأتي بيانه - موضوعات مؤصلة بالرؤى المالكية فالتأصيل - في اللغة - من أصل الشيء أصلًا؛ استقصى بحثه حتى عرف أصله، ومن أصل الشيء: جعل له أصلًا ثابتًا يبني عليه، كما أنَّ التأصيل يُقيد أيضًا التمكين والثبت⁽¹⁾.

وقد أَصَّل ابن زياد المذهب المالكي لأنَّه استقصى - كما ذكرنا - بحثه حتى عرف أصله، إذ حمل العلم عن صاحبه الإمام مالك الذي أخذ عنه موطأه ومروياته وأسمعته، وكذلك ألم بفتاويه وأقواله.

(1) يراجع: لسان العرب لأبن منظور باب اللام فصل الهمزة وكذلك في القاموس المحيط.

والذهب في اصطلاح الفقهاء: «حقيقة عرفية فيما ذهب إليه إمام من الأئمة من الأحكام الاجتهادية»⁽¹⁾.

وهو في اصطلاح المتأخرین منهم: ما قاله الإمام وأصحابه على طريقته، ونسب إليه مذهبًا لكونه يجري على قواعده وأصله الذي بنى عليه مذهبة، وليس المراد ما ذهب إليه وحده دون غيره من أهل مذهبة»⁽²⁾.

وقد ذهب مترجمنا ابن زيد الطرابلسي - كما سنتوضح - مذهب إمامه من الأحكام الاجتهادية، وأجرى على ذلك عمله وتأليفه وفتواه واقرءاه.

أما المالكي - فلا خلاف - في أنه نسبة إلى هذا المذهب الفقهي الاجتهادي السنی إلى الإمام مالك بن مالك بن أبي عامر الأصبهني، أحد الأئمة الأربع المشهورين - رضي الله عنهم - والذي كان إمام الفقه وإمام الحديث وأمام أهل المدينة، وجامع كتاب الموطأ أحد كتب السنة الستة⁽³⁾، الذي تلمنذ عليه الكثير من أعلام الفقهاء والمحدثين في المشرق والمغرب، وربطوا سندهم بسنته العلمي ومنهم الفقيه المحدث أبو الحسن علي بن زيد الطرابلسي مؤصل مذهبة وناشره.

وقد رأيت لإظهار هذا الدور الديني، والأثر العلمي الذي نهضت به طرابلس الغرب [ليبيا] في القرن الثاني الهجري، ولإبراز هذا الإسهام المعرفي

(1) مراهب الجليل لشرح مختصر خليل 1:24.

(2) حاشية العدوی على الخرشی 1:35.

(3) ترجم له من القدامی: ابن عبد البر في «الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء»، وجلال الدين السيوطي في «تزين الممالك بمناقب سيدنا مالك» وعياض السبتي في «ترتيب المدارك وتقريب المسالك» وعيسى بن مسعود الزراوی في «مناقب سيدنا مالك» وإبراهيم بن علي بن فرحون في «الديباخ المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب».

وترجم له من المحدثین: أمین الخلولی في كتاب: «مالك بن أنس» ومحمد أحمد أبو زهرة في كتابه: «مالك حياته وعصره - آراؤه وفقيهه» وأحمد الشريachi في «الأئمة الأربع»، ونظمت وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بال المغرب الأقصى ندوة عن الإمام مالك شارك فيها نخبة كبيرة من العلماء، وصدرت أعمالهم في ثلاثة أجزاء.

الفقهي التأصيلي والتربوي وأالياته المتنوعة التي نهض به أصولها الفقيه المحدث أبو الحسن علي بن زياد ومدرسته أن نتناوله - كما ذكرنا في المقدمة - من خلال هذه المباحث:

- 1 - المبحث الأول: روایته «الموطأ» ونشره كتاب «خير من زنته».
- 2 - المبحث الثاني: أسمعته وفتاویه، ورواية قراءة في القرآن.
- 3 - المبحث الثالث: تكوينه المركزين الفقهيين في القิروان وتونس.
- 4 - المبحث الرابع: إعداده التلاميذ الفقهاء الذين انتفعوا بعلمه وروایته، وحملوا سرّه.

* * *

المبحث الأول

روايته الموطأ وتأليفه كتاب «خير من زنته»

لقد كان من أبرز آليات مترجمنا ابن زياد في تأصيل المذهب المالكي، ونشره، والتمكين له في الغرب الإسلامي - كما هو معلوم - روايته موطأ مالك ابن أنس وهو مجموع سمعاته ومروياته، ثم تأليفه كتاباً فقهياً آخر جعل عنوانه «خير من زنته».

١ - رواية الموطأ ونشره:

من البدهي أن تبدأ الحديث في بيان الدور الذي قام به ابن زياد في تأصيل المذهب المالكي الذي كان أول جاليه من المشرق، وناشريه بعد عودته منه - في الديار التي مرّ بها وأقام فيها، بخير ما حصله من رحلته المشرقة المفيدة، وأحسن ما حواه صدره من أعلام أساتذته في المدينة المنورة - على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم - أعني روايته المتميزة «موطأ مالك بن أنس الأصبهني إمام المذهب المالكي»، والتي صارت تنسب إليه روايتها فيقال: «موطأ ابن زياد» والمعدودة من أقدم بل من أول روايات الموطأ وأهمها، ثم تتبع ذلك بالحديث عن كتابه المعقود «خير من زنته» ثم القول في أسماعته وفتاويه.

ولا خفاء أنَّ المقصود بالموطأ - كما تقدَّم - موطأ الإمام مالك الذي أخذه

ورواه عنه صحيحًا ابن زياد في الأقطار التي حلّ بها في طريق عودته من المشرق مثل مصر ووطنه طرابلس الغرب، وانتهاء إلى تونس.

ومعنى الموطأ في اللغة المهد الميسر، والوجه في هذه التسمية ظاهر، ذلك أنَّ العالم بالحديث الشريف، والحافظ للآثار يجمع ديواناً أو كتاباً أو مؤلفاً في ذلك، ويوطنه للناس فيواطئون عليه، أي يواافقون ويجمعون، قال أبو عبدالله محمد بن إبراهيم الكناني الأصفهاني : قلت لأبي حاتم الرazi : موطأ مالك ابن أنس لم سُمِّي موطأ؟ فقال : « شيء قد صنفه ووطأه للناس حتى قيل : موطأ مالك»⁽¹⁾.

وغير خاف أن الإمام مالك بن أنس إمام المدينة المنورة على ساكنها أَفضل السلام قد أنفق سنوات طويلة من عمره في المدينة المنورة وغيرها.

وهو يجمع الأحاديث النبوية الشريفة، وينتقي من سماعاته وأصولها الروايات، ويفتش عن الآثار الصحيحة الواردة عن سيدنا الرسول محمد - ﷺ - وينخلها مع التحري الدقيق، والورع الغالب، ثم دون الكثير مما جمع في خلال أربعين سنة، وأودع ذلك كله في كتابه الموطأ، بعد أن طرح ما لا يتفق مع معياره في الاختيار، وشرطه في الانتخاب.

ومن المعروف أن الإمام الشافعي - رضي الله تعالى عنه - شهد لموطأ مالك بن أنس وأعلى قيمته حيث قال : «ما بعد كتاب الله أَصْحَى من كتاب مالك»⁽²⁾ ، وقال حرملة : «لم يكن الشافعي يقدّم على مالك أحداً في الحديث»⁽³⁾.

كذلك نَوَّه الإمام ابن تيمية - رضي الله عنه - بالإمام مالك وعلمه ورأيه وروايته حيث قال : «فلا ريب عند أحد أنَّ مالكاً - رضي الله عنه - أَقْوَم الناس بمذهب أهل المدينة رواية ورأياً»⁽⁴⁾ والذي لا خلاف فيه أن موطأ مالك بن أنس

(1) كتاب : نموذج من الأعمال الخيرية : 516.

(2) ترتيب المدارك 1: 77.

(3) م.د.

(4) مجموع فتاوى ابن تيمية 20: 320.

قد كتب له القبول والانتشار؛ فحرص أهل الأقطار والأمصار على ضرب آباط الإبل إلى طلبه من جامعه وعلى سماعه منه في المدينة المنورة وروايته عنه؛ فكان أول من ارتحل إليه أهل العلم في مصر، ثم وفد عليه أهل العراق والشام، وأهل العلم وطلبه من المغرب والأندلس، وقد اشتهر من رواة الموطأ الإمام محمد بن الحسن الشيباني الكوفي تلميذ أبي حنيفة النعمان صاحب المذهب - رحمة الله ، وقد اشتهرت روایته بموطأ محمد.

ومن رواة الموطأ القعنبي وأبو مصعب وأسد بن الفرات القرمي وعيسي ابن شجرة التونسي وخلف بن جرير بن فضاله وعبد العزيز بن يحيى ، وعبد الله ابن عمر القيروانى ويحيى بن يحيى الأندلسى ومحمد بن معاوية الطرابلسى وغيرهم⁽¹⁾ وقد ذكر القاضي عياض منهم في ترتيبه ثمانية وستين راوياً⁽²⁾.

ومن المعروف أنَّ الإمام مالك بن أنس ظل يجمع موطأه - كما تقدم - خلال أربعين سنة إلى أن وصل في جمعه إلى نحو عشرة آلاف حديث، ثم ظل يعمل في النظر والترجيح والحدف والإثبات إلى أن بقي في موطأه هذا القدر، قالقطان «كل علم الناس في زيادة، وعلم مالك في نقصان، ولو عاش مالك لأسقط علمه كله، يعني تحريراً»⁽³⁾.

ومن المعروف أيضاً أن مالك أبرز موطأه خلال رحلته العلمية في عدة إبرازات، وأن رواة موطأه لم يأخذوا عنه في زمن واحد، بل كان أخذهم عنه في أزمان مختلفة، وهذا وحده ما يفسِّر لنا سُرَّ اختلاف روایات موطأ مالك، كما يفسِّر لنا نسبة كل موطأ إلى راوٍ من رواته الكثُر، فيقال موطأ محمد، وموطأ يحيى وموطأ ابن القاسم، وموطأ ابن زياد وهكذا⁽⁴⁾.

(1) نموذج من الأعمال الخيرية للمطبعة المنيرية: 523 – 541.

(2) ترتيب المدارك 1: 78.

(3) ترتيب المدارك 2: 73.

(4) الموطأ: 9 – 15.

وموطأ مالك برواياته المشرقية والمغربية المختلفة من أصح كتب الأحاديث النبوية والفقه، وذلك لما عُرف به الإمام مالك - رضي الله عنه - من شدّه التحرّي والورع، فهو معدود من أول كتب السنة المعول عليها في كتب السنة - كما قرر ذلك الكثير من علماء الإسلام⁽¹⁾، وقد تقدم قول الشافعي - رضي الله عنه - «ما على ظهر الأرض كتاب بعد كتاب الله أصح من موطأ مالك» وقال - رحمة الله تعالى - : «مالك بن أنس معلمي، وفي رواية: أستاذِي، ومنه تعلمنا العلم»⁽²⁾.

وقد ألمعت المصادر والمراجع إلى دور هذا الفقيه الطرابلسي في نشر موطأ الإمام مالك ومذهبـه الفقهي في البلاد المغاربية، قال القاضي عياض نقلـاً عن قول أبي سعيد بن يونس؛ أنَّ علياً بن زياد «هو أول من دخل الموطأ، وجامع سفيان إلى المغرب، وفسر لهم قول مالك ولم يكونوا يعرفونه»⁽³⁾.

وقال محمد مخلوف في هذا المعنى «وهو أول من دخل الموطأ المغرب، ومنه سمع البهلوـل بن راشد وأسد بن الفرات، وسخنون وجماعة»⁽⁴⁾.

وقال فيه من المحدثين حسن حسني عبد الوهاب «وهو أول من دخل «موطأ» مالك بن أنس، و«جامع» سفيان الثوري إلى المغرب، وروايته لـلـموطأ مشهورة بين المـوطـات»⁽⁵⁾.

ولقد أسلفنا أنَّ مترجمـنا عليـ بن زيـاد الـطرـابلـسي تـلـمـذ عـلـى شـيخـه الإـمام مـالـكـ بنـ أـنـسـ فـيـ المـدـيـنـةـ المـنـورـةـ وـأـخـذـ عـنـهـ موـطـأـهـ فـيـ إـبـراـزـاهـ، وـرـوـاهـ عـنـهـ وـكـتـبـهـ فـنـسـبـتـ تـلـكـ الإـبـراـزـ إـلـيـهـ وـسـمـيـتـ «موـطـأـ اـبـنـ زـيـادـ»ـ كـمـاـ سـمـعـ مـنـ شـيخـهـ

(1) مثل العالم الجليل أبي السعادات المعروف بابن الأثير في كتابة الوصول 2:1 وابن الربيع في تيسير الوصول إلى جامع الأصول وعبد العظيم المنذري في الترغيب والترهيب ..

(2) ترتيب المدارك 1: 385.

(3) يراجع ترتيب المدارك 3: 80 وترجمـ أـنـجـلـيـةـ 22.

(4) شجرة التور الزكية 60.

(5) معجم تاريخ الأدب التونسي 38.

فتاويه وأقواله، ثم عاد بالموطأ أو بروايته للموطأ مكتوباً، ونشره أولاً في وطنه طرابلس غالباً، ثم أذاعه بعد ذلك وأشاعه في مهجره بتونس، حيث تلقفه عنه تلاميذه.

ومن الأسف أنه لم تبق من موطأ ابن زياد في الوقت الحاضر إلا قطعة محدودة، ولكنها معدودة الآن من الذخائر التراثية النفيسة في كتب المذهب المالكي بالغرب الإسلامي، تحفظ بها مكتبة القيروان وخزانتها العامرة، فقد أفاد المؤرخ التونسي العلامة حسن حسني عبد الوهاب - رحمة الله - بوجود قطعة صالحة من رواية علي بن زياد للموطأ، حيث قال: «وروايته للموطأ مشهورة بين الموطآت، توجد منها قطعة صالحة في مكتبة القيروان العتيقة»⁽¹⁾.

وأشار الدكتور قاسم علي سعد إلى أنَّ أحد الباحثين قد نهض بتحقيق هذه القطعة المتبقية من هذا الكتاب ونشرها⁽²⁾ وهذا الباحث المشار إليه بالنهوض بتحقيق القطعة وهو فضيلة الشيخ محمد الشاذلي النيفر (ت 1419) - رحمة الله - الذي حققها ونشرها ضمن منشورات مركز البحوث والنشر بالكلية الزيتونة للشريعة وأصول الدين، سنة بعنوان «قطعة من موطأ ابن زياد».

وقد وصف المحقق النسخة الخطية لهذه القطعة بقوله «وهي مكتوبة على الرق بخط قيرياني عتيق من القرن الثالث الهجري»⁽³⁾ أي أنَّ هذه النسخة كُتبت نسخة أمٌ بعد وفاة الإمام علي بن زياد بأكثر من نصف قرن تقريباً.

وقد أكَّد أستاذنا الباحث التونسي الفاضل أبو القاسم محمد كرَّو قيمة هذا الكتاب وفائدة فيما ذهب إليه من أنَّ «أعتق وأقدم كتاب وصلنا من تراث القيروان كتاب موطأ مالك بن أنس برواية علي بن زياد الطرابلسي»⁽⁴⁾.

(1) ورقات عن الحضارة العربية بإفريقيا التونسية 3: 41.

(2) جمهرة تراجم الفقهاء المالكية 2: 250، 251.

(3) قطعة من موطأ ابن زياد: 81. موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين 11: 386.

(4) دراسات في التاريخ والتراث: 133.

ولا يجافي أستاذنا أبو القاسم كرو الحقيقة المائلة، بل ينحاز إليها كالعلامة محمد الفاضل ابن عاشور حينما نسب الفضل في هذه الرواية إلى بلاد هذا الفقيه الطرابلسي المالكي، وموطنه الأول حيث قال: «وعلى هذا فإن موطنًا على بن زياد الطرابلسي، وهو أقدم وأنفس مخطوط ليبى موجود اليوم في مكتبات تونس»⁽¹⁾.

وقد رجح الشيخ النيفر نسبة هذه القطعة المتبقاة من هذا الموطن إلى علي بن زياد بعده أو مجموع أدلة وبراهين نراها صحيحة ووجيهة⁽²⁾.

وقد احتوت هذه القطعة النفيسة من موطنًا ابن زياد الأبواب الآتية «الضحايا والعقيدة والذكارة، وزكاة الجنين وذبح أهل الكتاب وطعام المجروس والاستمتاع بجلود الميتة والسباع وشعر الخنزير، وأكل المضطر الميتة، وأكل السباع والطير وغيرها، وأكل الدواب وما تموت به الفأرة، وصيد البحر والصيد»⁽³⁾.

وفي الحق فإن ما وصلنا من موطنًا ابن زياد في هذه القطعة الباقي المحققة، إنما يمثل قليلاً من كثير من متن ابن زياد، ذهبت بمعظمها الفتنة والحروب المهلكة، وبخاصة تلك الحملة بل الغزوة الهمالية الغاشمة، ذكر ذلك الشيخ النيفر⁽⁴⁾ وتابعه فيه الباحث عبد المجيد تركي، فقد ذهب إلى تقدير ما تبقى من عين ما ذهب، فاستقل كالشيخ النيفر القدر الذي وصلنا من موطنًا ابن زياد حيث قال: «وهي⁽⁵⁾ تمثل ما يقابل أربعة كتب، أي نسبة ضئيلة مما تحتوي عليه الروايات المعروفة كرواية يحيى بن يحيى الليبي التي تشمل على واحد وستين كتاباً»⁽⁶⁾.

(1) م.ن: 133، المخطوطات الليبية في المكتاب التونسي، أعمال المؤتمر الأول للوثائق والمخطوطات 2: 992.

(2) قطعة من موطنًا ابن زياد: 73، 75.

(3) راجع م.ن: في مواضع متفرقة.

(4) قطعة من موطنًا ابن زياد: 89.

(5) أي القطعة الباقي والمحققة من موطنًا ابن زياد: 81.

(6) قطعة من موطنًا ابن زياد: 81 - 82.

أما المنهج المتبّع في عرض مرويات وسماعات ابن زياد من الأحاديث النبوية الشريفة عن شيخه وإمامه مالك بن أنس الأصبهني - رضي الله تعالى عنه - في «موطأ ابن زياد» فإنه يتجلّى حسبما ورد في القطعة الباقيّة منه، في صور الرواية المتكرّرة التي لا تكاد تخرج عن الآتي:

1 - الأولى القول بـ«حدثنا علي بن زياد عن مالك بن أنس»⁽¹⁾.

2 - الثانية القول بـ«وحدثنا عن مالك عن نافع»⁽²⁾.

وجملة أو عبارة «حدثنا» في الصيغة الأولى والثانية - كما يلحظ - هي عبارة من إملاء تلميذه سحنون بن سعيد الذي كان يقرئ «موطأ» شيخه ابن زياد، فهي منه إملائه على تلاميذه، ومما يؤكّد ذلك ما جاء في ختام القطعة المتبقية من الموطأ التي حققها الشيخ النمير «سمع حسن بن أحمد جميعه عن جبلة عن سحنون في المحروم سنة ثمان وثمانين ومائتين»⁽³⁾.

3 - الصورة الثالثة تأتي بهذه الصيغة في الرواية: «عن مالك» مثل السند «عن مالك عن أبي الزبير»⁽⁴⁾ أو «عن يحيى بن سعيد»⁽⁵⁾ أو «عن عاصم»⁽⁶⁾ أو «عن نافع»⁽⁷⁾.

4 - الصيغة الثالثة، ترد بلفظة «قال مالك»⁽⁸⁾ أو «قال»⁽⁹⁾، أو «قال في»⁽¹⁰⁾.

(1) قطعة من موطأ ابن زياد: 113.

(2) م.ن: 114، 115.

(3) قطعة من موطأ ابن زياد: 237.

(4) م.ن: 116، 117.

(5) م.ن: 116، 177.

(6) م.ن.

(7) قطعة من موطأ ابن زياد: 120.

(8) م.ن: 120، 121، 122، 124.

(9) م.ن: 122.

(10) م.ن:

5 – الصورة أو الصيغة الرابعة، تورد في موطأ ابن زiad بلفظة «وسائل مالك عن»⁽¹⁾ وهي ما كان من أجوية مالك وآرائه المستنبطة⁽²⁾.

6 – وقد ترد اللفظة مفصحة باسم الفقيه علي بن زياد صراحة، مثل القول: «قال عليٌ»⁽³⁾ وظاهر من ذلك المنهج، توخي ابن زياد الأمانة في الرواية، وفي حمل العلم، وتحريه الدقيق فيما نقله ونخله، موثقاً بتلك الصيغ الثابتة عن شيخه الإمام مالك دون زيادات أو إضافات كثيرة تذكر، اللهم إلا ما أفاد به تلميذه الإمام سحنون من تعقيبات أو ما عقب به سحنون عن أقوال شيخه وأجوبيته في كتاب «المدونة» لسحنون.

وقد أثنى الشيخ محمد الشاذلي النيفر على القطعة المتبقية التي حققها من كتاب أو موطأ ابن زياد ثناءً كبيراً فوصفها وحلاها بقوله: «العلق النفيسُ الذي يمثل الخيط الأول في المذهب المالكي»⁽⁴⁾ وقرر أن ما اشتملت عليه من اجتهادات ابن زياد تسلكه في عداد المجتهدين في المذهب المالكي «الذين يرجحون غير ما رجحه الإمام بناء على قواعده الأصولية في المذهب»⁽⁵⁾.

وذكر أن من مزايا هذا الفقيه أنه «هو المبرز والموضع للأصول التي ابتنى عليها مذهب مالك فهو الذي استخرجها من فقهه، وأبدتها لتلاميذه؛ فعرفوا المذهب المالكي في أصوله لا في تفاصيله فحسب»⁽⁶⁾.

ويبدو أن علماء تونس وغيرها من معاصرى أبي الحسن علي بن زياد، قد سلّموا بهذا الحق الذي ورد في هذا الكتاب، والذي ذكره حبيب؛ فقد أخبر أسد ابن الفرات بذلك حيث قال: «قال لي المخزومي وابن كنانة، ما طرأ علينا طارئ

(1) م.ن: 121، 123، 125.

(2) قطعة من موطأ ابن زياد: 104.

(3) م.ن: يراجع في مواضع متفرقة من متن الموطأ.

(4) قطعة من موطأ ابن زياد: 9.

(5) (6) م.ن: 8.

من بلد من البلدان، كشف عن الحق في هذا الأمر، وفي رواية عن ابن كنانة: كشف لنا عن الأصول كشف علي بن زياد⁽¹⁾ يقصد بذلك أصول الفقه المالكي.

ومن العلماء الأعلام المحدثين الذين كشفوا عن الحق الوارد في كتاب موطأ ابن زياد وعظم فائدته وحسن عائذته على العلم والمذهب في الفقه أستاذنا العلامة المبرور الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور، الذي رأى من أهميته وتأثيره البعيد في تأصيل المذهب المالكي وإثرائه، أنه استشار همة تلميذه مؤلفه علي بن زياد؛ يقصد الفقيه المالكي أسد بن الفرات، والفقيق المالكي سحنون عبد السلام ابن سعيد التنوخي «إلى التأليف اقتداء بأساستهما علي بن زياد؛ فألف أسد بن الفرات الأسدية، وألف سحنون المدونة. التي تتبع فيها سحنون الهنوات والنبوات التي ظهرت في الأسدية، والتي ظن أنها مخالفة لما سمعه علي بن زياد»⁽²⁾.

وقد رأى الباحث المغربي الأستاذ حسن بن زيان من هذا المنظور «أن لهذا القطر الليبي فضل السبق في تمرير المذهب المالكي إلى بقية أقطار المغرب من خلال رواية هذا العالم الجليل لموطأ مالك»⁽³⁾.

﴿ 2 - نشره كتاب «خير من زنته»:

وهو كتاب في الفقه وبعض مسائله؛ ألفه ابن زياد - مع روايته الموطأ - في مدة إقامته الأخيرة والختامة في مهجره بتونس وقد اشتمل هذا التأليف الذي أسهم به في تأصيل المذهب المالكي ونشره - حسب رواته تلميذه سحنون على «ثلاثة كتب: بيوغ ونكاح وطلاق، وسماعه من مالك ثلاثة كتب»⁽⁴⁾.

(1) ترتيب المدارك 1: 327، تراجم أغلبية: 22، رياض النفوس 1: 235.

(2) المحاضرات المغاربيةات: 77.

(3) بحثه «قراءة في تراجم أعلام ليبية» ضمن أعمال ندوة التواصل بين أقطار المغرب العربي: 166.

(4) ترتيب المدارك 1: 326، تراجم أغلبية: 22.

ويظهر من كلامه أنّ مشمولات الكتاب الذي ألفه كانت محصورة في الأبواب التي قرأها سحنون وبعض أصحابه على الإمام عليّ بن زياد في مدينة تونس، وهي البيوع والنكاح والطلاق.

وسبب تسمية هذا الكتاب بهذه التسمية فيما يروى رؤية منامية؛ قال أبو الحسن بن أبي طالب القير沃اني المعاوري: «أن عليّ بن زياد لما ألف كتابه في البيع لم يدر ما يسميه به، فقيل له في النوم: سمه كتاب خير من زنته»⁽¹⁾.

وذكر تلميذه سحنون بن سعيد أنّ «كتاب خير من زنته أصله لابن أشرس، إلا أننا سمعناه من ابن زياد، وكان يقرأه على المعنى، وكان أعرف من أشرس بالمعنى»⁽²⁾.

وربما أشار سحنون بذلك إلى أنّ كتاب «خير من زنته» لعليّ بن زياد، صنفه على طريقة ابن أشرس ومنهجه، ولكنه حكم بموضوعه لأستاذه ابن زياد بالأفضلية والأصححة في معرفة المعاني وتفصيلها، وهذا المعنى الذي قصده سحنون عبر عنه أيضاً تلميذ مترجمنا أسد بن الفرات بجلاء حيث قال: «كان عليّ بن زياد من نقاد أصحاب مالك»⁽³⁾ والنقد - كما لا يخفى - هو تمييز الجيد من الرديء، وقد كان ابن زياد مثل شيخه مالك بن أنس نقاداً.

وقد عُرف كتاب «خير من زنته» وهو من أوائل المؤلفات الطرابلسية بل المغربية والأندلسية بهذه التسمية اللطيفة منذ حياة مؤلفه ابن زياد الطرابلسي، فقد رأى حبيب بن سعيد التنوخي - أخو سحنون بن سعيد التنوخي - تلميذ ابن زياد في منامه - كما تواردت الأخبار - من أخبره «خذ كتاب خير من زنته ذهباً، فإنَّ الحقَّ عند الله»⁽⁴⁾.

(1) م. ن 1:327، م. ن: 22.

(2) ترتيب المدارك 1:327، ترجم أغلبية: 22.

(3) م. ن 1:327، م. ن: 22.

(4) ترتيب المدارك 1:327، ترجم أغلبية: 22.

ويبدو أنّ علماء تونس - وفي طليعتهم حبيب وسحنون وغيرهما من علماء الأمصار من معاصرى علي بن زياد مؤلف «خير من زنته» قد سلّموا بهذا الحقّ الذي حفل به كتابه فتعلقوا به وأكثروه.

* * *

المبحث الثاني

أسمعته وفتاويه ورواية القرآن

كذلك استطاع الفقيه علي بن زياد الطرابلسي أن يؤصل المذهب المالكي وينشره في الأقطار التي مرّ بها وحلّ، ومنها وطنه طرابلس الغرب بما كان يبيه في مجالسه العلمية من الأسمعة والروايات والفتاوي التي أخذها عن شيخه الإمام مالك في المدينة المنورة بالرسول - ﷺ -، وبما كان يفتني به من فقهه في المسائل والنوازل المختلفة، وفق أصول المذهب واجتهادات إمامه.

فقد أخذ الفقيه علي بن زياد مثل تلاميذ مالك بن أنس وبخاصة المغاربة والأندلسيين الأسمعة من شيخه، ولا خلاف في أن الأسمعة معدودة من الأصول العلمية، بل هي مقوم منهجي في تأصيل الفقه المالكي، وقد لاحظ أحد الباحثين أن الأسمعة في الغرب الإسلامي كانت أكثر من الأسمعة في العراق وما وراءه.

كما يوجد بين تلك الأسمعة المغاربة والعرقية اختلاف⁽¹⁾ وأن الجناح المغربي والأندلسي والمصري - حسبما ذكر الباحث المذكور - سيطر على مرحلة السمعاء أو الأجوية والمسائل، المعدودة عند مؤرخي المذهب أو

(1) المدرسة البغدادية للمذهب المالكي : 146 ، 147 .

المدرسة المالكية في المشرق والمغرب المرحلة التأسيسية لمصادر المذهب مع الموطأ ذي الروايات الكثيرة والمختلفة في الشرق والغرب الإسلاميين⁽¹⁾.

وما من شك في أنّ الفقيه علي بن زياد الطرابلسي كان - زيادة على ما عرف به من تقوى وورع - أحد حملة هذه الأسمعة أو السماعات من مالك، وأنّه كان عالماً بالفقه الذي أخذه عن شيخه مالك بصيراً بالفتيا والنظر والترجح من خلال فتاواه التي كان ينطلق في القضاء والإفتاء بها من الأسمعة التي عرف بها كما عرف به الكثير من تلاميذ الإمام في الغرب الإسلامي، ومن هذا التصور نرى أنه عمد إلى نشر الفتاوى والسماعات.

قال البلاخي مشيراً إلى مقدار علم ابن زياد وتقاه: «لم يكن في عصر عليٍ ابن زياد أفقه منه ولا أورع»⁽²⁾ وقال ابن حارث مؤكداً ذلك المعنى الوارد في حكم البلاخي السابق: «كان عليٌ فقيهاً ثقة، مأموناً خيراً»⁽³⁾، وقد تقدم أن تلميذه التونسي سحنون بن سعيد لم يكن يقُدِّم عليه أحداً، ولم يكن يعدل به أحداً⁽⁴⁾ أي في رواية الموطأ والفقه والأسمعة والفتيا والترجح، وقال سحنون أيضاً «كان علي بن زياد خير أهل إفريقيا في الضبط للعلم»⁽⁵⁾.

ومما أثبته أبو العرب في طبقاته: «وقال حمد يس القطان: لم يكن سحنون يفضل أحداً من أهل المغرب على عليٍ بن زياد»⁽⁶⁾.

وهي شهادة عالية من سحنون بن سعيد التنجي في شيخه علي بن زياد الطرابلسي الذي زكاه عن أهل المغرب من العلماء عامة.

(1) م.ن.

(2) ترتيب المدارك وتقريب المسالك 327:1، 82:3.

(3) م.ن 1:327.

(4) م.ن 1:327، تراجم أغلبية: 26.

(5) م.ن 1:327.

(6) طبقات علماء إفريقيا وتونس: 222.

وبتلك الشهادة من سخنون وغيرها من التزكيات الكثيرة الأخرى استحق ابن زiad الطرابلسي أن يكون العمدة والمرجع في السمع والفتيا في الفقه المالكي في وطنه الأصلي طرابلسي الغرب، وفي مهجره الحاضن تونس، بل في الغرب الإسلامي بعامة إبان القرن الثاني الهجري الذي ذاع فيه علمه وفضله.

ولا خلاف في أنه قد تبواً تلك المنزلة العلمية العالية بسبب أنه اهتدى في أسمعته وفتاويه وفقهه بهدي إمامه مالك بن أنس، ويسبب أخذه في أقواله وأفعاله بأسلوبه وسمته⁽¹⁾.

إذ على الرغم من أنه استقى أيضاً من علم شيخه سفيان الثوري في العراق، فإنه كان أميل إلى منهج مالك - رضي الله عنه - لأنه كان - كما ذكر العلماء - ينتقي الرجال، ويعني بالضبط، بينما كان سفيان يروي بغير انتقاء، ويهتم في روایته بالكثرة⁽²⁾.

ولذلك جنح ابن زiad إلى منهج أستاذه مالك، وأبدى الزهادة في منهج سفيان، كما أنه غرس هذا المنهج المثبت - فيما بعد - في الكثير من تلاميذه الذين تأثروا في الفقه والفتوى.

ومن الأسف أنه لم تصلنا فتاوى مترجمنا ابن زiad، لنقف من خلال نصوصها على الأصول التي كان يعتمد عليها في تحريرها وكتابتها، والطرائق العلمية التي كان يتوكلاها في تجبيحها وأسباب الترجيح فيها، وأسلوب الصياغة لديه، بيد أن هذا المعجمول من فتاويه الشفاهية والمحرر المكتوبة التي نجهلها كما جهلها الباحثون من قبل، يمكن أن تكشف سُحبها الdark عن ذاك⁽³⁾، إذا تذكّرنا أنّ عليّ بن زiad الطرابلسي كان مُعجباً أشد الإعجاب بشيخه الإمام مالك

(1) نطعة من موطاً ابن زiad: 33 - 35.

(2) م.ن.

(3) ذاك: بدون همز هي الشمس المضيئة من أجرام السماء.

ابن أنس، وأنه كان حريصاً على الاقتداء به في أقواله، والاهتداء به في أفعاله، كما كان حريصاً في أن يكون سنته كسمته، وأن تكون طبائع فتواه وفقهه متطابقة ومتدرجة مع أصول مذهب شيخه مالك في الفقه والفتوى، ولذلك فلا غرابة إذا استنتجنا أن الفتوى التي كان يفتى بها ابن زياد ضمن دوره في تأصيل المذهب المالكي ونشره في الغرب الإسلامي كانت جارية على المعهود من مصادر شيخه الإمام مالك في الفقه والفتوى، فالقرآن الكريم عنده كشيخه المصدر الأول في الفتوى الفقهية تليه السنة النبوية المشرفة باعتبارها المصدر الثاني في التشريع والفتوى، وأن ابن زياد أيضاً كان كشيخه الإمام مالك بن أنس آخذاً فيما استفتى بفتاوي الصحابه الذين عاصروا النبيَّ الكريم - ﷺ - وأفادوا من معايشتهم له، وأنه كان يعتمد - في فتاويه المكتوبة والشفاهية التي أفتى بها في طرابلس وتونس وغيرهما - الإجماع المسلم، والأخذ بعمل أهل المدينة مهجر الرسول، والذي نزل في ربوعه المنورة معظم القرآن الكريم، وهو ما كان يعمل به شيخه الإمام مالك في مذهب الفقه، و يجعله أصلاً من أصوله.

والراجحُ الغالبُ أنَّ الفقيه علي بن زياد الطرابلسي كان يأخذُ أيضاً في فتاويه التي لم تصلنا بما كان يأخذ به شيخه وقدوته الإمام مالك بن أنس - رضي الله عنه - إذا لم يجد نصاً صريحاً في المسائل والنوازل التي كان يُسأل عنها - بأصول القياس والاستحسان والعرف والمصالح المرسلة وبسد الذرائع المعمول بها - كما هو معلوم - في أصول المذهب المالكي^(١).

ومما لا ريب فيه أنَّ استناد ابن زياد إلى تلك الأصول الفقهية، واعتماده على المصادر الصحيحة التي عمل بها شيخه الإمام مالك، وعمله الدائب على إشاعتها ونشرها في البلدان التي حلَّ بها وبخاصة في المغرب الأدنى «طرابلس

(1) يراجع كتاب «الأصول التي اشتهر انفراد إمام دار الهجرة بها» لصديقنا العالم الفاضل الدكتور فاتح محمد زقلام.

وتونس» جعله معتمد الفتوى فيهما، حتى قيل إنَّ أهل القيروان وهي المركز الفقهي الثاني في الديار التونسية كانوا إذا اختلفوا في مسألة كتبوا بها إلى عليٍ بن زياد ليعلمهم بالصواب»⁽¹⁾.

وهذا الضبط الفقهي والحديثي، والأخذ بالأحوط الذي عرف به الإمام مالك بن أنس، وتبعه فيه تلميذه علي بن زياد في فقهه وفتاويه، هو ما أشار إليه القدامي من مترجميه من أمثال الخشنى والمالكي والقاضي عياض والذهبى - كما سبقت الإشارة - وهو ما أكدته أيضاً الكتاب المعاصرون من أمثال حسن حسني عبد الوهاب ومحمد أبو زهرة ومحمد الفاضل ابن عاشور ومحمد الشاذلي النيفر، قال الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب «ونبغ من بين الرعيل الأول أفاد ذ مبرزون، وصلوا بالعلم التشريعي إلى أقصى درجات البحث والاستنباط والتخریج مثل علي بن زياد تلميذ مالك، ودفین تونس»⁽²⁾.

وقال العلامة محمد الشاذلي النيفر: «وابن زياد - كما يعرف عنه - يميل إلى الأحوط القوي، فلذلك اختار مذهب مالك دون الثوري، ولمحبته لمالك افترق عن يحيى بن يحيى الليثي، إذ التزم مذهب مالك في جزئياته، وما خالفه إلا في أمور لا تمس بجوهر المذهب، ولم يتبع فيها مذهب سفيان»⁽³⁾.

ومن النظارات الندية الذكية التي قررها الشيخ النيفر ما يتصل باجتهاد هذا الفقيه ضمن قراءاته في القطعة المتبقية من موطاً ابن زياد، حيث أورد أمثلة تدل على استقلاله في الفقه والفتوى عن شيخه مالك وتحررَه من اجتهاداتِه حينما ظهر له الصلاح في خلافها⁽⁴⁾.

وقد مثلَ موطاً ابن زياد - لدى الشيخ النيفر المحقق - من هذا المنظور -

(1) ترتيب المدارك 1: 327.

(2) ورقات عن الحضارة العربية بأفريقيا التونسية 1: 26.

(3) قطعة من موطاً ابن زياد: 34.

(4) قطعة من موطاً ابن زياد: 8.

«أول التأليف في الإسلام، ثم أول تأليف ظهر بإفريقيا، وأول روایة للموطن ظهرت على وجه الأرض»⁽¹⁾.

أما روایة قراءة القرآن الكريم المدنية، التي أخذها – كما تقدّم – على بن زياد الطرايلسي عن شیخه الإمام مالك الذي أخذها بدوره عن شیخه الإمام نافع، فهي قراءة أهل المدينة المتواترة المأْنحوذة عن سیدنا الرسول - ﷺ - فهي تشبه روایة الإمام عثمان بن سعید المعروف بورش التي أخذها أيضاً عن نافع، وقد نوهنا بعمل ابن زياد في نشر هذه الروایة المتواترة في الغرب الإسلامي.

* * *

(1) م.ن: 7

المبحث الثالث

تكوين المركزين الفقهيين

بعد أن قطع ابن زياد شدائد القفار وأهواه المفاوز الشاسعة الواقعة بين موطنـه طرابلس الغرب وتونـس فيـ القرنـ الثانـي بعد انتهاء رحلـته إـلـى الشرـق وإـقامـته زـمنـاً فيـ بلـدـهـ، أـلـقـى عـصـا التـسيـارـ بـعـدـ ذـلـكـ فـيـ مـديـنـةـ الـقـيرـوـانـ الـمـعـدـوـدـةـ مـنـذـ فـتـحـهاـ سـنـةـ (646/27)ـ عـلـىـ يـدـ الـفـاتـحـ الـعـظـيمـ عـقـبـةـ بـنـ نـافـعـ عـاصـمـةـ مـنـ عـواـصـمـ إـلـاسـلامـ الـكـبـرـىـ.

والغالب على الظن أن ابن زياد الطرابلسي بقي في القيروان - قبل الرحيل عنها إلى تونـسـ - زـمنـاً غـيرـ قـصـيرـ، اـشـتـغلـ خـلالـهـ فـيـ جـامـعـهـ الـأـعـظـمـ وـفـيـ جـوـامـعـهـ الـأـخـرـىـ بـالـإـقـرـاءـ وـالـتـدـرـيسـ، وـبـيـثـ مـاـ حـمـلـهـ مـنـ شـيوـخـهـ فـيـ طـراـبـلـسـ الـغـربـ وـالـمـشـرـقـ مـنـ عـلـمـ الـتـفـسـيرـ وـالـحـدـيـثـ وـالـفـقـهـ، وـأـيـضاًـ مـاـ يـتـصـلـ بـذـلـكـ مـنـ عـلـمـ الـعـرـبـةـ، بـيـدـ أـنـ الـمـؤـرـخـينـ لـمـ يـخـبـرـوـنـاـ عـنـ الزـمـنـ الـذـيـ مـكـثـ فـيـ مـدـيـنـةـ الـقـيرـوـانـ الـتـيـ هـيـ بـلـدـ عـلـمـ وـفـقـهـ وـصـلـاحـ، كـمـ أـنـهـ لـمـ يـخـبـرـوـنـاـ أـيـضاًـ عـنـ الـأـسـبـابـ الـتـيـ حـدـتـ بـهـ فـيـ هـذـهـ الـإـقـامـةـ الـطـوـيـلـةـ أـوـ الـقـصـيـرـةـ فـيـ مـدـيـنـةـ الـقـيرـوـانـ إـلـىـ التـفـكـيرـ فـيـ تـرـكـهاـ وـرـحـيـلـ عنـهاـ، كـمـ لـمـ تـفـسـيرـ إـيـثـارـهـ الـاستـقـرـارـ وـالـبـقـاءـ وـالـمـكـثـ الدـائـمـ فـيـ مـدـيـنـةـ تـونـسـ الـعـاصـمـةـ، بـلـ فـيـ قـصـبـتهاـ الـتـيـ طـالـ لـبـهـ فـيـهاـ إـلـىـ تـارـيـخـ وـفـاتـهـ، وـدـفـنـهـ فـيـ مـقـبـرـتهاـ الـقـدـيـمةـ السـلـسلـةـ.

هل مرد ذلك إلى أسباب اجتماعية وعلمية وثقافية، أو إلى أسباب سياسية؟

وقد أشار إلى هذه الإقامة في مدينة تونس وإلى إقامته فيها الخشني⁽¹⁾ والقاضي عياض السبتي⁽²⁾ والمالكي⁽³⁾ وغيرهم من الجلة الثقات من مؤرخيه⁽⁴⁾.

ومهما يكن من شيء، فالذى لا خلاف فيه بين أولئك المؤرخين، أنه جعل مدة إقامته المهاجرة في مدينة القيروان أولاً لقربها من مسقط رأسه طرابلس الغرب، ثم في مدينة تونس أخيراً، وأغلب الظن أن ذلك كان بإشارة من حكامها ورجال العلم فيها، فاتخذها - رحمة الله - مجالاً واسعاً للإقراء والتدريس ورواية الموطأ وأسمعة الإمام مالك، ومنطلقاً لتأسيس المركز الفقهي الأول، وإعداد التلاميذ والعلماء من أبناء تونس وغيرهم من الوافدين عليها من المغرب الأوسط والأقصى، وببلاد الأندلس بل إن بعض الباحثين يقررون أن زمن إقامته في تونس المديتين، وتنقله - فيما بعد - بينهما، وأيضاً تنقل تلاميذه وطلابه للاختلاف عليه حيثما حلّ وأقام، أنتج ظهور مركزين فقهيين: الأول وهو الأصل المركز الفقهي بتونس مستقره ومواءه.

والآخر: الفرع الفقهي في القيروان الذي بقي فيه تلاميذه مفتين وفقهاء يراجعونه الفينة بعد الفينة.

كان رحمة الله - يزور القيروان، فيلتفُ تلاميذه حوله، ويرجعون إليه في المسائل التي يشدون فيها الحقَّ والصواب.

(1) طبقات علماء إفريقيا: 98.

(2) ترتيب المدارك 1: 326.

(3) رياض النفوس 1: 235، 323.

(4) من أمثال أحمد بن أبي الضياف ومحمد مخلوف ومحمد النifer والخشني.

وبذلك صار ابن زياد الطرابلسي، وبما حمله من علم شيخه مالك وفقهه وأسمعته مرجع الفتوى وعمدتها.

وقد تقدم أن العلامة محمد الفاضل ابن عاشور - رحمه الله تعالى - عذر المركز الفقهي المالكي الذي كان يترعنه ابن زياد في مدينة تونس الأصل الأصيل للمركز الفقهي المالكي الثاني الذي تأسس في مدينة القيروان بتلاميذ الفقيه ابن زياد نفسه، والذي كان كثيراً، ما يرجع هذا المركز الثاني في أجوبته وفي معرفة الصواب إلى عميد ذلك المركز الأصل بتونس، كما أنه في أحيان قليلة يختلف الفرع عن الأصل في بعض الاجتهدات والمسائل الفرعية عن المركز الأصل إثراء لفقه المذهب، واجتهداؤه فيه، على نحو ما أخبر به الفقيه أسد بن الفرات في مسألة الخلاف بين الفقيه ابن زياد وتلميذه البهلوان بن راشد. قال أسد: «جرت بين عليٍّ بين زياد والبهلوان بن راشد مسألة اختلفا فيها، وكانت السفير بينهما بالمناظرة: كان البهلوان يقول: أخذ الأجناد الأرزاق التي تجري لهم حرام عليهم.

وقال علي بن زياد: حلال لهم لأنّ لهم في بيت المال حقاً، وإنما أخذوا حقهم على أنه إن اشترط عليهم أن يفعلوا ما لا يحل لهم، فأخذهم جائز والشرط باطل، وليس كمن أعطى رجلاً مالاً ليس له فيه حق على أن يقتل رجلاً، فالأخذ في هذا حرام، والشرط باطل»⁽¹⁾.

قلت: هذه المسألة نقلها أبو بكر التجيبي في التعريف بعليٍّ بن زياد، ويجري على هذين القولين منح الشهادة وجوازها فيما يأخذه الأجناد المتصرفون فيما لا يجوز، وكذلك غيرهم كتصرفهم في أخذ الخطايا، ونحوها، وبعض عدولنا يشهد في ذلك»⁽²⁾.

وما من ريب في أن هذه الاختلافات الاجتهادية الفقهية، بل هذا الحوار

(1) معالم الإيمان 1: 275.

(2) م. ن 1: 276.

العلمي الذي كان يدور بين المركز الذي كان يتزعمه ابن زياد في تونس وتلاميذه في المركز الفرع القيروان قد أثرى العلم في زمنهما في القرن الثاني الهجري وما ولية من القرون، وأكَّدَ زعامة ابن زياد الطرابلسي لهما.

وقد سُوَّغ العلامة المبرور الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور - رحمة الله تعالى - هذا المظهر بتعليق موضوعي ، وهو أنَّ فقهاء القيروان الكبار كانوا تلاميذ لشيخهم ابن زياد الذي أخذوا عنه العلم⁽¹⁾.

فأسد بن الفرات فقيه القيروان، وصاحب الأُسْدِيَّة في الفقه، والذي تخرج بعلي بن زياد⁽²⁾ هو الذي أسَّسَ مركز القيروان، وأنَّ البهلوان ابن راشد، فقيه القيروان كان بالإضافة إلى تلمذه عن الإمام تلميذاً أيضاً لابن زياد⁽³⁾، يزوره في تونس ويستفتنه⁽⁴⁾، كما أنَّ الإمام سحنون بن سعيد صاحب المدونة الذي كان صاحب الفضل في تأسيس هذه المدرسة القيروانية الفقهية المالكية التي ارتفعت راياتها في تونس قد تخرج بهذا الفقيه الطرابلسي المهاجر⁽⁵⁾.

وهذه المكانة السامية للمدرسة الفقهية التونسية في الشمال التي تزعمها الفقيه علي بن زياد هي وحدتها التي تفسّر لنا تحلية سحنون بن سعيد المتقدمة في التنويه بعلي بن زياد زعيم هذه المدرسة التي كان سحنون أحد تلاميذها: قال سحنون: «وكان عليٌّ خير أهل إفريقيا في الضبط للعلم»⁽⁶⁾، وتحليته الأخرى له: «ما أنجيت إفريقيا مثل علي بن زياد»⁽⁷⁾.

كما تفسر لنا تحلية محمد مخلوف وهو من المتأخرین لرائد هذه المدرسة

(1) المحاضرات المغربيات: 76، 77.

(2) المحاضرات المغربيات: 67، 77.

(3) رياض النقوس 1: 201.

(4) الحل السنديسي في الأخبار التونسية 1: 209.

(5) المحاضرات المغربيات: 76، 77، الحل السنديسي 1: 208.

(6)، (7) الحل السنديسي 1: 209.

ابن زياد بقوله: «الثقة المحافظ الأمين، المرجوع إليه في الفتوى، الجامع بين العلم والورع، لم يكن في عصره بافريقيا مثله»⁽¹⁾.

ويبدو أنّ هذا النشاط الدعوي المتزايد في التعليم والإقراء وتكوين الطلاب والفقهاء العلماء لم يستطع مشاركته فيه الكثير من أنداده ولداته من أهل تونس، من أمثال البهلوان بن راشد وعبد الله بن فروخ وأبي محرز القاضي وعبد الله بن أبي حسان وابن غانم القاضي وغيرهم الذين «لم يبلغوا مبلغه»⁽²⁾ ضرورة أنهم - كما قرر الشيخ النifer: «لم يصنعوا صنيعه، ولم يفروا فريه، فإن زiad هو الركيزة الأولى لهذا المذهب؛ مذهب إمام دار الهجرة»⁽³⁾.

وبهذا الجهد الذي بذله هذا الفقيه ابن زياد في نشر المذهب والإقراء للموطأ في القرن الثاني الهجري عرفت البلاد التونسية التي هاجر إليها بأنّها المنبت الثاني للمذهب المالكي⁽⁴⁾ الذي حمله معه من رحلته المشرقية التي أخذ فيها العلم عن إمام هذا المذهب مالك بن أنس، وعن تلاميذه في مصر وال العراق.

ومن طريف ما نلحظه في تكوين ابن زياد لهذين المركزين الفقهيين في تونس والقيروان، أنّ نشاطه في الإقراء لم يقتصر فيه على مجرّد ما كان يُعطيه في جوامع هذين المركزين ومساجدهما من دولات علم فحسب، بل أوردت الأخبار التاريخية أنّه كان يُثّل علمه أيضاً في بيته وبيوت بعض طلابه كما حدث له مع تلميذه سحنون في إقرائه له في بيته بمدينة تونس⁽⁵⁾ عندما طلب إليه البهلوان بن راشد إقراءه، وإسماعه الموطأ الذي حمله ورواه.

وذهب العالمة الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور إلى أنّ علي بن زياد كان

(1) شجرة النور الزكية: 60.

(2) قطعة من موطأ ابن زياد: 5.

(3) م.ن: 5.

(4) قطعة من موطأ ابن زياد: 36.

(5) ترتيب المدارك 1: 587.

«من شباب المحدثين والفقهاء»⁽¹⁾ أشار بذلك إلى المحدثين والفقهاء من أمثال عبد الله بن غانم وعبد الرحيم بن أشرس والبلهول بن راشد وعبد الله فروخ وعبد الله ابن غانم⁽²⁾، وهم الفقهاء المحدثون الذين تكونوا علمياً بالغرب الإسلامي، ثم نفروا مثله إلى المشرق الإسلامي ضاربين أكباد الإبل في طلب العلم⁽³⁾ وأن هؤلاء الفقهاء - كانوا حسب رأي الشيخ محمد الفاضل - «حجر الأساس الراسي في هيكل الفقه الإسلامي بالمغرب، ونواة الشجرة التي تولدت عنها جنة باستقلم يزيل الدين والعلم والفكر والأدب، تنفياً ظلالها الوارفة إلى اليوم»⁽⁴⁾، كما ذهب الشيخ محمد الفاضل إلى القول - بعد ذلك - إلى أنَّ عليَّ بن زياد الطرابلسي المولد والتونسي السكن - كان أبعد تلك الجماعة أثراً في تطور الحياة الفقهية من بعده⁽⁵⁾.

وقد أكد هذا المعنى أيضاً - كما تقدم - الشيخ محمد الشاذلي النيفر في تحقيقه كتاب «قطعة من موطأ ابن زياد» في مواضع مختلفة⁽⁶⁾.

وقال الدكتور هشام قريشة: «وكان عليُّ بن زياد ثانياً رجلاً نشراً العلم في تونس، وتعاوناً على إنشاء المدرسة الإسلامية بها، وأول الرجلين هو شيخه خالد بن أبي عمران التنجيبي (ت 129هـ) الذي تفقه عن التابعين»⁽⁷⁾.

ومما قاله أيضاً مؤكداً به ما أكدته المصادر القديمة والحديثة «واختص عليُّ بن زياد بأنه هو الذي بثَ المذهب المالكي في المغرب؛ فعمَّ جميع أقطاره بدون استثناء، والتكوين الأول للمالكية يافريقيا إنما هو لعليٍّ بن زياد»⁽⁸⁾ وزاد

(1) يراجع كتابه: «أعلام الفكر الإسلامي» وكتابه: «المحاضرات المغربيات».

(2) يراجع ترتيب المدارك للقاضي رياض، ورياض النقوس للمالكي.

(3) (4) المحاضرات المغربيات: وأعلام الفكر الإسلامي: 25، 26.

(5) م.ن.

(6) قطعة من موطأ ابن زياد: 24.

(7) ابن زياد أبو الحسن علي التونسي بحث د. هشام قريشة موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين 11: 285، 286.

(8) م.ن.

في إيضاح ذلك بقوله: «إذ فتح الأعين على مالك وعرفهم فضلها، وبين أصول مذهبة للناس، وكان الجسر الطويل الذي مرّ به رجال المدرسة المالكية من بعد»⁽¹⁾.

ومن أقوال الشيخ محمد الشاذلي النمير في بيان دور الفقيه ابن زيد الطرابلسي ومدرسته المتميزة في الغرب الإسلامي: «يرجع الفضل كله في تأسيس المدرسة التونسية وغيرها من المدارس بإفريقيا سواء بالقيروان أو بقية أمهات المدن الأخرى إلى علي بن زيد، فهو الذي شيد هذا الصرح العظيم، هذا الصرح العلمي الباقى على الأيام رغم العوارض والكوارث والمناوين من أهل المذاهب الكائدين للسنة»⁽²⁾.

وقال الدكتور أحمد باكير أحد علماء تونس وأساتذة جامعاتها في سياق حديثه عن العلماء الأوائل من ناشري مذهب الإمام مالك الباقى على الزمان في المشرق والمغرب: «وبإفريقيا علي بن زيد الطرابلسي الأصل، التونسي الدار»⁽³⁾.

وبهذا الجهد المضني المبذول من الفقيه علي بن زيد الطرابلسي في تكوين المركزين الفقهيين في تونس والقيروان من حيث الرواية والتأليف والفتيا وتحريج الفقهاء الكبار - كما سنبين - انتشر المذهب المالكي في ربوع تونس، بل في المغرب الأدنى ومنه طرابلس الغرب مسقط رأسه - والمغرب الأوسط ثم المغرب الأقصى خلال القرن الثاني الهجري، ثم تأصل بعد ذلك اجتهاداً وتأليفاً وشرحًا، بعد أن غالب على الغرب الإسلامي من قبل مذهب الكوفيين⁽⁴⁾ وغيره

(1) ابن زيد أبو الحسن علي التونسي بحث د. هشام قريشة موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين 11: 285، 286.

(2) قطعة من موطا ابن زيد: 27.

(3) ملتقى الإمام محمد بن عرفة: 212.

(4) رياض التفوس 1: 235، 323.

من المذاهب الأخرى⁽¹⁾، ومن الطريف حقاً ما استتجه أحد الباحثين في هذا الشأن حيث قال لو رزق الإمام مالك في المشرق بتلميذ على همة علي بن زياد لعم مذهب الفقهى المعهودة جميعها⁽²⁾.

* * *

(1) يراجع كتاب قطعة من موطا ابن زياد، وموسوعة أعلام العلماء والأدباء.
(2) قطعة من موطا ابن زياد: 27.

المبحث الرابع

تلاميذه الفقهاء وطلابهم

لا خلاف في أنّ من أظهر أيادي الفقيه علي بن زياد طرابلسى وألياته في تأصيل الفقه والمذهب المالكي في الغرب الإسلامي خلال القرن الثاني الهجري وأوائل القرن الثالث، ما تكون به من صفة التلاميذ الفقهاء، ونخبة المریدين العلماء الذين تخرّجوا به في مجالسه العلمية في مدينة تونس، ومدينة القيروان، حيث أخذوا عنه العلم، ونقلوا رواياته وسماعاته من شيوخه وانتفعوا من قراءة الموطأ بروايته، ومن سماع فتاويه في المذهب.

ولئن لم تنقل إلينا المصادر المعتمدة التي تناولت ترجمة ابن زياد وأثاره وأسماء تلاميذه وطلابه في مسقط رأسه طرابلس الغرب، وأسماء غيرهم من المشارقة، وأهل المغرب الأوسط والأقصى وببلاد الأندلس، فإنها أوردت أسماء طائفة من تلاميذه المشاهير في تونس من المغرب الأدنى، التي هاجر إليها، وتوفي فيها، قال القاضي عياض السبتي: «سمع منه البهلوان بن راشد، وسحنون وأسد بن الفرات وغيرهم»⁽¹⁾.

على أننا نؤثر قبل الحديث عن مسرد أسماء بعض تلاميذه الفقهاء

(1) ترتيب المدارك 1: 326، ترجم أغلبية: 22.

المشهورين أن نبدأ بذكر هذا الخبر المتفرد الذي نلمس منه الأسلوب التربوي المتميز الذي كان يتبعه في تربية وتكوين تلاميذه في إقرار الحق من جهة، وحمل أصحابه ممن كان معهم الحق على وجوب الاهتداء والاقتداء، ومجافاة الغرور، وهذا الخبر أفاد به تلميذه سحنون بن سعيد في معرض الحديث عن البهلوان بن راشد أحد تلاميذ ابن زياد «قال سحنون: سأله رجل البهلوان وأنا عنده عن مسألة فأجابه بخطأ؛ فقلت له في ذلك؛ فقال: ألا ترى إلى هؤلاء الأحداث يؤذوننا؟!».

وكنت إذا اجتمعت لي قطعة، خرجت إلى علي بن زياد؛ فخرجت إليه؛ فبينما أنا عنده إذ جاءه كتاب البهلوان فرمى به إليّ: فقلت: هذه مسألة اختلف فيها عندنا، فقال لي: ما قالوا؟

قلت: قال البهلوان كذا، قال ومن نازعه، فقلت: أنا قلت فيها كذا، قال: أصبت وأخطأ أكتب إليه بهذا عني.

ثم قال لي: الزم هذا الرجل؛ فإنه صالح⁽¹⁾.

فهذا مثل واضح فيما كان يأخذ به علي بن زياد الطرابلسي تلاميذه الفقهاء من التربية والتوجيه، وهو يتصل في هذا الخبر بإقرار تلاميذه النجيب الذكي سحنون فيما أفتى به من العلم، الذي خالق به البهلوان بن راشد الذي أخطأ، وحفظ فيه المكانة الذوقية والروحية التي عرف بها البهلوان، ودعا سحنون إلى وجوب الانتفاع بها، والآن نشرع في ذكر أسماء بعض تلاميذ ابن زياد.

﴿أسدُ بنُ الفرات﴾⁽²⁾:

أحد الفقهاء البارزين من تلاميذ الفقيه علي بن زياد، وهو صاحب

(1) ترتيب المدارك 3: 95.

(2) تراجع في ترجمته المصادر الآتية: رياض النفوس 1: 254 – 273 ترتيب المدارك 3: 291 – 309 طبقات علماء إفريقيا وتونس: ترجم أغلبية، طبقات الفقهاء المالكية، الديبايج المذهب.

«الأُسديّة» في الفقه المالكي وفاتح صقلية، اسمه أَسْدُ بْنُ الْفَرَاتِ بْنُ سَنَانَ مَوْلَى بْنِ سَلِيمٍ، ويُكْنَى أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، وَكَانَ قَدْوَمَهُ الْقِيرَوانُ سَنَةً أَرْبَعَ وَأَرْبَعينَ وَمَائَةً، وَهُوَ ابْنُ سَتِينٍ، وَعِنْدَمَا كَبَرَ سَمِعَ مِنْ شِيَخِهِ ابْنَ زِيَادَ الطَّرَابُلْسِيِّ - حَسْبَ تَقْدِيرِنَا - مَرْتَيْنَ فِي الْقِيرَوانِ وَتُونِسَ، الْأُولَى: فِي الْمَرْحَلَةِ الَّتِي سَبَقَتْ رَحْلَةَ أَسْدِ بْنِ الْفَرَاتِ إِلَى الْمَشْرُقِ لِزِيَادَةِ الْطَّلَبِ فِي سَنَةِ (788/172) وَالْآخِرَى بَعْدَ عُودَتِهِ مِنْ تَلْكَ الرَّحْلَةِ الْمَشْرُقِيَّةِ وَالَّتِي دَامَتْ مَدَّةَ سَتِينَ، حِيثُ عَادَ فِي سَنَةِ (797/181)⁽¹⁾ فَمِنْ الْمَعْرُوفِ عَنْهُ أَنَّهُ رَحَلَ إِلَى الْمَشْرُقِ فِي السَّنَةِ الْمَذَكُورَةِ وَأَنَّهُ أَخْذَ عَنْ كَبَارِ شِيَوخِهِ⁽²⁾، وَأَنَّهُ عَادَ - بَعْدَ ذَلِكَ - إِلَى وَطْنِهِ، وَوَلِيَ الْقَضَاءَ بِالْقِيرَوانِ سَنَةَ (819/204) ثُمَّ اسْتَعْمَلَهُ زِيَادَةُ اللَّهِ بْنِ الْأَغْلَبِ لِتَقْوَاهُ وَشَجَاعَتِهِ فِي فَتْحِ جَزِيرَةِ صَقْلِيَّةٍ؛ فَتَمَّ لَهُ وَلِلْمُؤْلِفِ الْأَغْلَبِيَّ ذَلِكَ، وَتَوَفَّى - رَحْمَةُ اللَّهِ - مَدَّةُ هَذَا الْفَتْحِ عَامَ (213/828)⁽³⁾.

وَقَدْ أَجْمَعَتْ كَلْمَةُ مُؤْرِخِيهِ عَلَى أَنَّهُ تَلَمَّذَ وَأَخْذَ عَنِ الْفَقِيهِ ابْنِ زِيَادِ الطَّرَابُلْسِيِّ، وَكَانَ ذَلِكَ - كَمَا رَجَحْنَا - فِي مَرْحَلَتَيْنِ.

وَلَا خَلَافٌ فِي أَنَّ ابْنَ الْفَرَاتِ قدْ أَقَرَّ بِالْفَضْلِ لِشِيَخِهِ ابْنِ زِيَادٍ فِي مَوَاقِفِ كَثِيرَةٍ، مِنْهَا قَوْلُهُ: «كَانَ عَلَيُّ بْنُ زِيَاداً مِنْ أَصْحَابِ مَالِكٍ، رُوِيَ عَنْهُ غَيْرِ وَاحِدٍ»⁽⁴⁾ كَمَا كَانَ مَعَ هَذَا التَّنْوِيَّةِ بِقِيمَتِهِ الْعُلُومِيَّةِ كَثِيرُ التَّوْقِيرِ لَهُ، وَمِنْ أَقْوَالِهِ فِي ذَلِكَ: «إِنِّي لَأَدْعُو اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - لِعَلَيِّ بْنِ زِيَادٍ مَعَ وَالَّدِي؛ لِأَنَّهُ أَوْلُ مَنْ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ عَلَيْهِ»⁽⁵⁾.

وَفِي رَوَايَةِ أُخْرَى: «إِنِّي لَأَدْعُو فِي أَدْبَارِ صَلَاتِي لِمَعْلُومِيِّ، وَأَبْدَأُ بِعَلَيِّ بْنِ زِيَادٍ، لِأَنَّهُ أَوْلُ مَنْ تَعَلَّمَ مِنْهُ الْعِلْمَ»⁽⁶⁾.

(1) ترتيب المدارك (م) 3: 309.

(2) ترتيب المدارك 1: 291 – 309.

(3) م. ن.

(4) راجع المصادر السابقة، ومعالم الإيمان 2: 4.

(5) طبقات علماء إفريقيا وتونس: 220، رياض النقوس 1: 234.

(6) م. ن: 220. م. ن: 234. ترتيب المدارك 3: 82، تراجم أغلبية: 24.

فقد أقرَّ هذا الفقيه التونسي بأنَّ أولَ أخذِه العلم كان عن عليٍّ بن زيد الطرابلسي، ثم رحل رحلته إلى المشرق، حيثُ أخذَ عن نخبة من العلماء كان من بينهم الإمام مالك بن أنسُ أستاذ ابن زيد قبل وفاته، فأخذَ منه – كما قرَّ العلامة المبرورُ الشیخُ محمد الفاضل ابن عاشور «طريقة تحليل الصور، وسلسل المسائل، والاستكشاف عن الأصول»، بجدد في دروس مالك عهداً كان انقضى منذ فارقها عليٌّ بن زيد⁽¹⁾.

ثم مضى بعد هذه الرحلة التي أمضاها في الأخذ عن إمام المدينة المنورة وأعلامها الآخرين إلى العراق حيثُ أخذ المذهب الحنفي بعد وفاة إمامه أبي حنيفة النعمان، فأخذَ فيه عن صاحبيه الإمام محمد وأبي يوسف⁽²⁾.

ويلحظ أنَّه بالرغم من تفتح الفقيه أسد بن الفرات على مذهب أهل الرأي من الأحناف، وجمعه في فقهه بين مذهبهم ومذهب الإمام مالك الذي انتفع بأخذِه من شيخه ابن زيد أولاً، ثم الإمام مالك ثانياً، فإنه كان – كما يقول أستاذنا عباس الجرجاري – «أميل إلى اتباع إمام دار الهجرة»⁽³⁾.

وقد أسلفنا القول أنَّ أسد بن الفرات أخذَ العلم عن شيخه ابن زيد مرة في بداية تعلمه فكان أولَ أخذِه – كما صرَّح – منه⁽⁴⁾. وهذه كانت قبل شروعه في الرحلة إلى المدينة المنورة والأخرى بعد عودته منها، حيثُ أدرك ما يزيد عن السنتين من أواخر حياة شيخه عليٌّ بن زيد.

ومن مظاهر تأثير أسد بن الفرات تلميذ ابن زيد في تأصيل المذهب المالكي ونشره، تأليفه كتاب «الأسدية» في الفقه المشتمل على ستين كتاباً، والذي لم يكتب له إكماله لسبب استشهاده في فتح جزيرة «صقلية».

(1)، (2) أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي: 26.

(3) يراجع بحثه بعنوان: «أسباب انتشار المذهب المالكي» ندوة الإمام مالك 1: 188.

(4) طبقات علماء إفريقيا وتونس: 220، رياض التفوس 1: 234.

٢- البهلوان بن راشد^(١):

هذا الفقيه هو صديق علي بن زياد الذي وصفه بأنجي، ويبدو أنه ليس بينهما فارق في السن، وهو البهلوان بن راشد أبو عمرو الحجري التونسي؛ الرعيري بالولاء، من مشاهير المركز الفقهي بالقيروان، عرف بالعلم والزهد ومحاباه الظلم والحكام الطغاة، وهو من أوائل تلاميذ علي بن زياد الطرابلسي الطارئ على تونس، والمتتبعين بعلمه فقد سمع منه - مع سماعه عن الإمام مالك - الموطأ، كما سمع منه الجامع الكبير لسفيان الثوري، وكان من تلاميذه المتأثرين بأخلاقه وفضائله، وقد ذكرت المصادر ما عرف به البهلوان بن راشد من الدين والتقوى والعبادة، وهو من قدم سحنون بن سعيد إلى علي بن زياد ليقرئه العلم.

وللبهلوان بن راشد كتاب في الفقه المالكي وفتاوي فيه، وقد استفاد علماً كثيراً من شيخه فبالإضافة إلى ما أخذه عنه من الموطأ ومذهب صاحبه الفقهي - كما تقدم - أخذ عنه أيضاً جامع سفيان، فقد جاء في كتاب الحشني طبقات علماء إفريقيا قوله «فاما سمع البهلوان منه فإنَّ محمد بن أبي الهيثم اللؤلوي حدثني عن أبيه عن البهلوان بن راشد عن علي بن زياد عن سفيان الثوري بجامع سفيان الكثير من الآثار»^(٢).

وعلى الرغم من تقارب سني عمرى الشيخ والتلميذ، وأخذهما عن مالك ابن أنس، فقد شهد العلماء بأفضلية علي بن زياد في العلم والتثبت، قال أبو العرب - رحمة الله -: «حدثني يونس بن محمد وأبو عياش موسى، أنَّهما سمعا سحنوناً بن سعيد يقول في إظهار فضل بن زياد «ما بلغ البهلوان شسع^(٣) علي بن زياد، وضرب سحنون يده إلى شسع نعله»^(٤).

(١) يراجع: رياض النقوس ١: ٢٠١، ترتيب المدارك ٣: ٨٧، الديباج المذهب ١: ٣١٥ - ٣١٦ طبقات الفقهاء المالكية، ٢٢، رياض النقوس ١: ٢٠٠ - ٢١٤ الإكمال لابن ماكولا ٣: ٦٤، ميزان الاعتدال ١: ٣٥٥.

(٢) طبقات علماء إفريقيا: ٩٨، طبقات علماء إفريقيا وتونس: ٢٢٠.

(٣) الشسع: زمام بين الأصبع الوسطى والتي تليها في النعل.

(٤) طبقات علماء إفريقيا وتونس: ٢٢٠ طبقات علماء إفريقيا: ٩٨، ترتيب المدارك ١: ترجم أغلبية: ٢٣، رياض النقوس ١: ٢٠١.

ومما يؤكّد قول سحنون في أفضليّة ابن زياد على صديقه وتلميذه البهلوان بن راشد، ما قرّره أيضًا القاضي عياض بقوله: «وكان البهلوان يأتي إلى عليّ بن زياد، ويسمع منه، ويفزع إليه، يعني في المعرفة والعلم»⁽¹⁾.

ويستفاد من الروايات التي أفادت بها المظان القديم في سيرة مترجمنا وسير تلاميذه أن البهلوان بن راشد كما أخذ العلم من مناهل شيخه ابن زياد، ويسلّم له بتبحره في ذلك كان شديد الاعتقاد فيه وفي خوفه من الله ولاليته وقد أخبر أبو الهيثم خالد بن يزيد الفارسي خبراً يفيد هذا الاعتقاد من بهلوان في ابن زياد، قال⁽²⁾: «كنا عند البهلوان فأتاه رجل فقال: إني رأيت في المنام كأنّ قنديلًا دخل من باب تونس؛ فسار حتى دخل في دار حبة «بني دراج» فقال له بهلوان: «أَتَعْرَفُ الدَّارَ؟» فقال الرجل: نعم، فقال البهلوان: «قُومُوا بِنَا فَقَدْ جَاءَ عَلَيْنَا زِيَادٌ، قُومُوا بِنَا»؛ فقمّنا وقام الرجل معنا حتى أتينا رحبة «بني دراج»، فقال الرجل: هذه الدار التي رأيت القنديل دخل فيها؛ فوقفنا بالباب؛ فسألنا، فقالوا لنا هذا عليّ بن زياد دخل في السحر، فاستأذن عليه بهلوان فدخل فقام إليه عليّ بن زياد وسلم عليه وسلمتنا عليه، وجعل بهلوان يسأله عن مسائل»⁽³⁾.

فيما يلي هذا الخبر الذي أورد تفاصيله أبو الهيثم خالد بن يزيد الفارسي، والذي عدناه - كما سيأتي ضمن تلاميذ ابن زياد - يفيدنا بالإفادات الآتية:

1 - أنّ البهلوان بن راشد كان شديد الإعجاب بشيخه ابن زياد وعلمه، بل إنه ضمن هذا الخبر على تقدّم علمه يسأله ويستفتيه، كما أنّ ابن زياد يقدّره ويحترمه.

2 - أنّ البهلوان كان معظمًا لزهد شيخه وتقاه، فلم يفهم من كلام الرجل عن القنديل الذي دخل إلى تونس إلا شيخه ابن زياد.

(1) ترتيب المدارك 1: 327.

(2) ترتيب المدارك 3: 84.

(3) رياض النّفوس 1: 235 - 236. ترتيب 3: 84.

3 - أنّ مترجمنا كان يقيم في تونس في منطقة كانت تسمى «رحبة بني دراج» .
 ومن المعلوم أنّ البهلوول بن راشد - كما أخذ العلم عن الإمام مالك بن
 أنس ثم عن شيخه علي بن زياد الطرابلسي ، أخذ أيضاً عن الإمام سفيان الثوري
 كتابه الجامع في الآثار ، قال أبو العرب «فاما سماع البهلوول منه⁽¹⁾ فإن محمد بن
 أبي الهيثم اللؤلوي حدثني عن أبيه عن البهلوول بن راشد عن علي بن زياد عن
 سفيان الثوري بجامع سفيان الكثير الآثار ، وقد روى عن سفيان جاماً له وسطاً
 آثار كله»⁽²⁾ .

قال أبو العرب : «ولم أعلم حمل عنه جامعة في الرأي»⁽³⁾ .

بيد أنه كان في الغالب أميل إلى مذهب شيخه مالك وتحريه : قال
 المالكي : «والغالب عليه مذهب مالك ، وربما مال إلى قول الثوري»⁽⁴⁾ .

وقد ولد الفقيه التونسي البهلوول بن راشد مع عبد الله بن غانم ، أحد تلاميذ
 الإمام مالك في ليلة واحدة من سنة (245/128)⁽⁵⁾ ثمان وعشرين ومائة ، وتوفي
 - رحمه الله - سنة (183 ثلات وثمانين ومائة)⁽⁶⁾ ومن مؤيداته أيضاً أنه أكده عند
 الحديث عن وفاة البهلوول بن راشد تلميذ ابن زياد الطرابلسي ؛ فقد قرر أن
 البهلوول «توفي سنة 183 ثلات وثمانين»⁽⁷⁾ ، وقد حدد الإمام سحنون الذي
 - عرف وفاته - المدة بين وفاة البهلوول ، ووفاة شيخه بما يزيد عن الشهر
 الواحد ، حيث قال مؤرخاً ذلك بدقة وضبط «بعد علي بن زياد بخمسة وثلاثين
 يوماً ، كذا قال غير واحد»⁽⁸⁾ .

(1) طبقات علماء إفريقيا وتونس : 220.

(2) م.ن : 220.

(3) طبقات علماء إفريقيا وتونس : 220.

(4) م.ن.

(5) رياض النفوس 1:201 ، معالم الإيمان 1:278.

(6) ترتيب المدارك 3:87 ، ترجم أغليبة : 25.

(7) م.ن 1:339 ، م.ن : 40.

(8) م.ن 1:339 ، م.ن : 40.

أما الشيرازي فقد زاد تخمينه - في كتابه «الطبقات» سنة واحدة عن ذلك التاريخ الصحيح والدقيق المحدد حيث ذكر أنَّ علي بن زياد عاش بعد مالك نحو خمس سنين، ومن المعلوم أنَّ وفاة مالك كانت عام 179هـ فأفضى ذلك إلى عام (799/183)⁽¹⁾، قال سحنون: «بعد عليٍّ بن زياد شيخه بخمسة وثلاثين يوماً، كذا قال غير واحد»⁽²⁾.

وقال فرات: «مات عام (182) اثنين وثمانين»⁽³⁾ ولا شك في أنَّ التاريخ الذي ذكره الأخير فنليس - كما هو واضح - بالوهم، وإنما الراجح التاريخ الأول.

وقد ذكرت المصادر المختلفة مثل كتاب الطبقات للخشني، ورياض النفوس للمالكي، وترتيب المدارك لعياض، ومعالم الإيمان للدباغ وغيرها كثرة من تلاميذه الذين أخذوا عنه، وانتفعوا به.

ونختم القول في ترجمة تلميذ مترجمنا البهلوبي بن راشد بشاء محمد بن يزيد فيه: «ما رأيت أحداً أخشع الله من البهلوبي بن راشد»⁽⁴⁾.

﴿ 3 - سحنون بن سعيد التنوخي : ﴾

هو الفقيه التونسي المشهور أبو سعيد سحنون بن سعيد بن حبيب، اسمه عبد السلام وأصله من حمص بالشام، فقيه قاض من فقهاء المالكية في القرنين الثاني والثالث الهجريين، ومن أشهر تلاميذ الفقيه علي بن زياد الذين أخذوا عنه العلم، واستفادوا من طرائقه، وتوجهوا بفضلته.

قال القاضي عياض البستي: «سمعت بعض مشائخ أهل الحديث يحكى

(1) ترتيب المدارك 1: 390، ألف سنة من الوفيات: 36، رياض النفوس 1: 201.

(2) المصادر المذكورة، وفي معالم الإيمان 1: 278.

(3) تراجع المصادر المذكورة سلفاً.

(4) معالم الإيمان 1: 265.

عن بعض شيوخ إفريقيا أنه قال: «سُمي سحنون باسم طائر حديد لحداثه في المسائل»⁽¹⁾.

وقال القاضي أحمد بن خلkan في المعنى نفسه بشيء من الإطالة: «وسحنون بفتح السين المهملة وضمنها وسكون الحاء المهملة، وضمن النون، وبعد الواو نون ثانية، وفي فتح السين وضمنها كلام من جهة العربية يطول شرحه، وقد صنف فيه أبو محمد بن السيد البطلبوسي جزءاً وفت عليه، وقد استوفى الكلام فيه - كما ينبغي - وهو مجيد في كلّ ما يصنعه، ولقب سحنون باسم طائر حديد بال المغرب يسمونه سحنوناً لحدة ذهنه وذكائه، ذكر ذلك، أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم القيروان في كتاب «طبقات من كان بإفريقيا من العلماء»⁽²⁾.

وقد ولد الفقيه سحنون بن سعيد بمدينة القيروان سنة (1161) حيث درس وتولى القضاء، وتكون به المركز الفقهي الثاني، ثم انتهت إليه رئاسة العلم والفتيا بتونس»⁽³⁾.

وقد عرف - مع ما عرف به من حدة الذهن - بالرغبة العارمة في التحصيل، وتلقى مسائل العلم⁽⁴⁾، حيث أخذ منذ فتائه عن شيخه ابن زياد الطرابلسي بتوصية من الفقيه البهلواني بن راشد، كما عرف بالإقراء والفتوى والتأليف، والزهد وسموّ القدر حتى قيل: «لم يكن سحنون يقدم عليه أحد من أهل إفريقيا» وقد كان سحنون كثير التوqير لشيخه علي بن زياد. الذي رحل إليه، وأخذ عنه العلم في تونس وفي وقت تزامن مع وقت رحلة ابن بکير إلى الإمام

(1) يراجع في ترجمته: ترتيب المدارك 4: 45 طبقات فقهاء المالكية: 71 - 73 طبقات الفقهاء للشيرازي: 156، 157 طبقات علماء إفريقيا وتونس: 184، علماء إفريقيا للخشني: 296 - 305، رياض النعوس 1: 345، 375 شجرة النور: 69 - 70. ترتيب المدارك 4: 46.

(2) وفيات الأعيان 3: 180 - 182. ومعالم الإيمان 2: 77.

(3) يراجع: أزهار البستان: 29 - 21 الإكمال لابن ماكولا 4: 265. معالم الإيمان 2: 77 - 104.

(4) ترتيب المدارك 1: 327، رياض النعوس 1: 234 طبقات علماء إفريقيا: 81.

مالك⁽¹⁾ وقد أقرَّ سحنون - رحمة الله تعالى - في مواقف كثيرة بأخذِه العلم عن شيخه علي بن زياد الذي لم يكن يفضلُ عليه أحداً من أعلام عصره⁽²⁾، وهو ما ذكره أيضاً مترجموه قديماً وحديثاً، قال الشيرازي: «به تفقه سحنون، وله كتب على مذهبة»⁽³⁾.

وقال أبو سعيد بن يونس: «وهو معلم سحنون الفقه»⁽⁴⁾، وقال الخشنبي: «لم يكن سحنون يفضل من أهل المغرب على عليٍّ بن زياد»⁽⁵⁾.

ومن أهم تأليفه التي عرف فيها في تأصيل المذهب المالكي بتونس والغرب الإسلامي كتابه المشهور المعروف بالأُم وبالمختلطة، وشهر فيما بعد بـ «المدونة»⁽⁶⁾ التي جاءت - كما يقرر أستاذنا الدكتور عباس عبد الله الجراري: «لتدارك بعض ما جاء في الأسدية وتكميلها»⁽⁷⁾ وهي - كما يقول أيضاً - : «أهم كتاب في الفقه المالكي بعد الموطأ»⁽⁸⁾.

ومردد تسمية الكتاب بالمختلطة أن مسائل هذا الكتاب كانت مختلطة غير مبوبة؛ فلما صنفت ورتبت وهذبت سُميت بعد تدوينها المدونة⁽⁹⁾، قال العلامة المبرور الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور: «وكان تصنيف سحنون أولاً غير مبوب على الأبواب، فكان يسمى «المختلطة» ثم نظر فيها نظراً جديداً فهذبها، ووسع دائتها، بإيراد الأقوال المخالفة لقول مالك، وقول ابن القاسم من بقية رجال التفريع في المذهب المالكي، فاكتمل بذلك الصنيع وُسمى «المدونة»

(1) معالم الإيمان 2: 29.

(2) ترتيب المدارك 3: 81، معالم الإيمان 2: 78.

(3) طبقات الفقهاء: 156 – 157. الحلل السنديبة 1: 770.

(4) رياض النفووس 1: 234.

(5) طبقات علماء إفريقيا: 99.

(6) يراجع: معالم الإيمان، وترتيب المدارك، وطبقات علماء إفريقيا.

(7)، (8) ندوة الإمام مالك من منشورات وزارة الأوقاف بالمغرب.

(9) المحاضرات المغربية: 77.

وتلك هي الأصل الأصيل، والمراجع الأخيرة للفقيه المالكي الذي بنيت عليه مباشرة أو بواسطة جميع التصانيف والتحارير والدراسات التي تواصلت به حياة الفقه المالكي، واكتملت الشخصية الفقهية للمغرب العربي»⁽¹⁾.

وأهمية المدونة التي قررها العلامة ابن عاشور - في مساقات الفقه المالكي وكتبه مقررة أيضاً عند القدامي من أمثال الدباغ وابن ناجي والقاضي عياض والرصاع والمالكي والخشني وغيرهم.

وعند المحدثين من أمثال الأعلام حسن حسني عبد الوهاب ومحمد الفاضل ابن عاشور ومحمد الشاذلي النifer وغيرهم.

قال أستاذنا الدكتور عباس عبد الله الجراري عن المدونة «أهم كتاب في الفقه المالكي بعد الموطأ»⁽²⁾.

وتتجلى أهمية المدونة في أنّ الفقيه سحنون بن سعيد التنوخي جمع فيها مئات المسائل التي جمعها ودوّنها من رواية عبد الرحمن بن القاسم تلميذ مالك عن شيخه، والأحكام التي بلغت ابن القاسم مما لم يسمعه من شيخه مالك وأضاف سحنون إلى ذلك ما قاسه ابن القاسم على أصول إمامه وشيخه، وما استفاده سحنون من مرويات ابن وهب وغيره⁽³⁾.

كما تتجلى أهمية مدونة سحنون في تداركها الهنات والزيادات التي نقلها الفقيه أسد بن الفرات عن ابن القاسم ثم رجع عنها⁽⁴⁾ فجاءت المدونة في صورتها النهائية جامعة لروايات ابن القاسم عن الإمام مالك، وما قاسه عن أصول إمامه مالك، وأيضاً «لتدارك بعض ما جاء في الأسدية وتكليلها»⁽⁵⁾.

(1) أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي : 28، 29.

(2) ندوة الإمام مالك التي انعقدت في المغرب الأقصى، بحثه «أسباب انتشار المذهب المالكي» 188: 1.

(3) المحاضرات المغربية: 77.

(4) م. ن: 77، 78.

(5) يراجع بحثه القيم «أسباب انتشار المذهب المالكي» ضمن أعمال ندوة الإمام مالك 188: 1.

قال الدكتور علي جمعة محمد «فأصبحت مدونة سحنون إماماً لكتب المذهب؛ لأنَّه قد تداولتها أفكار أربعة من المجتهدين: الإمام مالك وابن القاسم، وأسد بن الفرات، وسحنون بن سعيد»⁽¹⁾.

والحقُّ الذي لا مرية فيه أنَّ المدوَّنة قد تداولتها عند النظر والتأمل أفكار من المجتهدين، وليس الأربعة المذكورين عند الدكتور علي جمعة فحسب، إذ لا ريب في أنَّ مترجمنا عليَّ بن زياد الطرابلسي شيخ سحنون بن سعيد كان في طليعتهم بعد الإمام مالك بن أنس، وهو ما نبه إليه ونوه به العلامة المبرور الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور حيث قال - رحمة الله - «فكان تكون أسد بن الفرات وسحنون بعليٍّ بن زياد موجهاً لكلٍّ منهما إلى أن يُدْوَن... إلى أن يكتبا الكتب الجامعية للمسائل الفقهية على قول مالك وأصحابه؛ فكما دُوِّن علىٌّ بن زياد كتابه الذي سُمِّيَّ «خير من زنته» ودوَّن أسد بن الفرات «مدوَّنة» وذهب سحنون يتدارك تلك «المدوَّنة» مع أسد بن الفرات، وقد تلقياها معاً عن عليٍّ بن زياد»⁽²⁾.

فأنت ترى من خلال ما تقدَّم من تحقيق العلامة محمد الفاضل ابن عاشور أنَّ الأفكار التي تداولت المدوَّنة أي مدونة سحنون كانت أفكار ستة من المجتهدين لا أربعة، وهم مالك بن أنس وعليٍّ بن زياد وابن القاسم وأسد بن الفرات وسحنون بن سعيد وابن القاطن⁽³⁾، وهم المجتهدون الستة الذين أسهموا في تأصيلها.

وقد أشار القاضي عياض السبتي في سياق بيان أهمية مدونة سحنون بن سعيد المحققة - في تأصيل المذهب المالكي، وضبط مسائله، والعمل على ترسیخه - إلى أنَّ الغالب على إفريقيا وما وراءها - قبل عهده وعهد شيخه عليٍّ ابن زياد مذهب الكوفيين، فلما دخلها ابن زياد، ونشر الموطأ عظيم المذهب

(1) يراجع كتاب المدخل إلى دراسة المذاهب الفقهية للدكتور علي جمعة.

(2) المحاضرات المغribiyat: 77.

(3) المحاضرات المغribiyat: 77.

المالكي «ولم يزل يفشو إلى أن جاء سحنون، فغلب في أيامه، وفض خلق المخالفين، واستقر المذهب بعده في أصحابه؛ فشاع في تلك الأقطار إلى وقتنا هذا»⁽¹⁾.

وغير خاف أن المدونة لسحنون بن سعيد نالت لأهميتها عناية العلماء؛ فقاموا بشرحها وتلخيصها.

ومن طريف ما يطرف به في أخبار هذا الإمام المالكي أن نهض بواجب الوفاء نحو شيخه طرابلسية علي بن زياد فرداً بعض أيديه البيضاء بأن سافر في سنة (191هـ) إلى وطنه طرابلس الغرب ودرس فيها وأقرأ العلم، فقد ذكر حمديس بن القطان أنه سمع سحنون بن سعيد يقول: «سمع مني العلم سنة إحدى وتسعين ومائة أهل أجدابية»⁽²⁾ ثم حلّ سحنون في مدينة طرابلس مسقط رأس شيخه؛ فاتخذها منزلاً وداراً إقامة زماناً⁽³⁾.

وقد جمع الإمام سحنون - رحمه الله - مثل شيخه مع غزاره العلم والفتوى، وحدة الذكاء والنظر مزايا أخلاقية، تقوّمت بها شخصية لدى أهل عصره في المشرق والغرب، وقد ذكر صاحب كتاب «معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان»: «كان سحنون قد اجتمعت فيه خصال قلماً اجتمعت في غيره، منها: الفقه البارع، والورع الصادق والصرامة في الحق، والزهد في الدنيا، والتخلص في الملبس والمطعم، والسماحة، ولا يقبل من أحد شيئاً، سلطاناً كان أو غيره، ولا يهاب سلطاناً في حق يقوله، سالم الصدر للمؤمنين، شديداً على أهل البدع، انتشرت إمامته، وأجمع أهل عصره على تقدمه وفضله»⁽⁴⁾.

(1) ترتيب المدارك وتقريب المسالك 1: 25، 26.

(2) طبقات علماء إفريقيا: 185، 186.

(3) م.ن.

(4) معالم الإيمان 2: 81.

٤ - شجرة بن عيسى المعاوري :

فقيه مالكي تونسي، معدود من تلاميذ مترجمنا المشهورين الذين اشتد بهم ساعد الفقه المالكي في الغرب الإسلامي، وهو «أبو سمرة»، ويقال أبو يزيد، أصله من العرب^(١) وأبو شجرة عيسى «ممن روى عن مالك، واللith، وابن لهيعة، وأصله أندلسي نزل بتونس، قاله الأصيلي عن الأبياني»^(٢).

وقد ذكر القاضي عياض أخذه العلم عن علي بن زياد وأنه تولى قضاء تونس أيام سحنون وقبله^(٣).

قال سحنون «ما رأيت أحداً من قضاة البلدان إلا شجرة شرحبيل قاضي أطرابلس»^(٤) وقال أبو العرب «وكان شجرة من خير القضاة وأعلمهم، ثقة، عدلاً مأموناً»^(٥) وقد ولد سنة تسع وستين ومائة، وتوفي سنة اثنين وثلاثين ومائتين»^(٦).

كذلك فإننا نرجح أن يكون في عداد تلاميذ علي بن زياد المغمورين الذين أغفلت ذكرهم المظان القديمة والحديثة الشيخ خالد بن يزيد، وهو – كما تقدم – أبو الهيثم خالد بن يزيد الفارسي الذي صاحب في الخبر الذي رواه عن القنديل الذي دخل تونس والمرموز به إلى ابن زياد – شيخه البهلوان بن راشد في الذهاب إلى بيت شيخها علي بن زياد في رحبة «بني دراج» بتونس^(٧).

وأن يكون من المختلفين على علي بن زياد العالم المعروف المعدود في المصادر من تلاميذ البهلوان بن راشد تلميذ ابن زياد ونديده، والمتفق معه كذلك في تاريخ الوفاة، أعني العالم يحيى ابن سلام^(٨).

(١)، (٢) ترتيب المدارك وتقريب المسالك ٤: ١٠١.

(٣)، (٤)، (٥)، (٦) م. ن ٤: ١٠٢، ترتيب المدارك ٢: ١٣.

(٧) ترتيب المدارك ٣: ٨٤.

(٨) صاحب كتاب «التصاريف» ويراجع التعريف العلمي به الذي كتبته محققة الكتاب الأستاذة هند شلبي.

بالرغم من أن ابن سلام هذا كان معتبراً من شيوخ الإمام مالك، لأنَّ مالكاً - رضي الله عنه - قد روى عنه أكثر من عشرين حديثاً؛ فإن مقدمه إلى تونس أو إلى إفريقيا - ما رجحت الأستاذة هند شلبي - «بين (796/180) - (183/799)⁽¹⁾ يشير من قريب إلى حصول اللقاء بينه وبين مترجمنا في أخرىات حياته؛ وإذا كان البهلوان بن راشد معدوداً في عداد شيوخ يحيى بن سلام في هذا الطور الإفريقي التونسي؛ فمن باب أولى أن يحسب أيضاً في عداد شيوخه، ضرورة أنَّ البهلوان بن راشد نفسه من تلاميذ ابن زياد الطرابلسي.

وعلى ذلك يمكن القول إنَّ أبا الهيثم خالد بن يزيد الفارسي، ويحيى بن سلام كانوا أيضاً من تلاميذ عليّ بن زياد، إذا كيف يتسعى الحكم بأنهما أخذوا عن شيخهما البهلوان بن راشد فحسب، ويزهدان في الأخذ عن شيخه الشهير الرائيات في تونس إبان القرن الثاني الفقيه عليّ بن زياد الطرابلسي، الذي كان يشار إليه فيها بأنه شيخ شيوخ تونس وفقائدها.

﴿٥﴾ 5 - موسى بن معاوية الصمادي⁽²⁾ :

ويكنى أبا جعفر، قال أبو بكر بن اللباد «هو من ولد جعفر بن أبي طالب ذي الجناحين» قال: «كان عالماً بالفقه، راوياً للحديث، ثقة مأموناً»⁽³⁾.

وقد أثني الإمام سحنون على علم موسى بن معاوية وعبادته وتقاوته ثناء كبيراً⁽⁴⁾.

قال صاحب كتاب «معالم الإيمان»: «ولقي يا فريقيا البهلوان بن راشد،

(1) التصريف: 72.

(2) تراجع في ترجمته المصادر والمراجع المذكورة آنفاً.

(3) معالم الإيمان 2: 51.

(4) م. ن 2: 51، 52.

ورباح بن يزيد، وتفقه على عليٍّ بن زياد»⁽¹⁾ فثبت بذلك تلمسه على مترجمنا عليٍّ بن زياد في الفقه.

وقد أشار الباحث ميكلوس موراني في كتابه «دراسات في مصادر الفقه المالكي» إلى أن موسى بن معاوية كان أيضاً من تلاميذ عليٍّ بن زياد»⁽²⁾.

وقد توفي أبو جعفر هذا - كما جاء في «معالم الإيمان» «يوم الاثنين الخامس من ذي القعدة سنة خمس وعشرين ومائتين، وله من العمر خمس وستون سنة، وكان بينه وبين سخنون في المولد ليلة واحدة»⁽³⁾.

وتلك هي بعض أسماء تلاميذ ابن زياد المشاهير الذين تخرّجوا به في تونس في القرن الثاني الهجري.

ومن المسلم به أنّ هؤلاء التلاميذ الكبار الذين ذكرناهم والذين لم نذكرهم عليٍّ بن زياد، كان لهم الدور البارز والمهم في تأصيل المذهب المالكي ونشره، والفتيا والتأليف في نوازله وقضاياها إبان حياة شيخهم ابن زياد الذي كانوا - كما ذكرت المصادر - يراجعونه، ويهددون بأحكامه إلى الصواب، كما كان لهم وللاميذه المعدودين أيضاً امتداداً لمدرسته الزيادية دورهم البارز في الحفاظ على المذهب المالكي ونشره، ومن الإنصاف أن نشير ولو بایجاز إلى امتدادات هذه المدرسة، بالإلماع إلى أسماء تلاميذ تلاميذه المذكورين الذين اتصل بهم سندُ عليٍّ بن زياد الطرابلسي في تونس، وتأصل بهم تأثيره في الحياة الفكرية بتونس.

فمن تلاميذ أسد بن الفرات نجد عبد الله بن سهل القبريانى⁽⁴⁾ وأبا داود العطار⁽⁵⁾.

(1) م. ن. 2:52.

(2) دراسات في مصادر الفقه المالكي: 134.

(3) معالم الإيمان 2:57، 58.

(4) معالم الإيمان 2:112.

(5) م. ن. 2:158.

ومن تلاميذ البهلوان راشد نجد مطروح بن قيس الخياط⁽¹⁾ وجعفر بن محمد بن عياض⁽²⁾ ومعقب بن رباح⁽³⁾.

أما تلميذ ابن زياد سحنون بن سعيد التجيبي فقد كثرت، واتسعت دائرة تلاميذه، فممنهم: حمديس⁽⁴⁾ وعمر بن يزيد⁽⁵⁾ وابن وضاح⁽⁶⁾ ومحمد بن سحنون⁽⁷⁾ وعبد الله القبريانى⁽⁸⁾ وسعيد بن عباد السرتي⁽⁹⁾ وابن عبدوس⁽¹⁰⁾ وأحمد بن لبدة⁽¹¹⁾ ومحمد بن شوال الطائى⁽¹²⁾ وأبو داود العطار⁽¹³⁾ وإبراهيم بن المضاء⁽¹⁴⁾ وأحمد بن مغىث⁽¹⁵⁾ ومحمد بن زرقون⁽¹⁶⁾ وعبد الجبار بن خالد⁽¹⁷⁾ وأحمد بن وزان⁽¹⁸⁾ وغيرهم.

ونقف من تلاميذ الفقيه موسى بن معاوية على أسماء تلاميذه يزيد بن

محمد الجمحي⁽¹⁹⁾

(1) م. ن 2:109.

(2) م. ن 2:121.

(3) م. ن 2:193.

(4) معالم الإيمان 2:82، 201.

(5) م. ن 2:82.

(6) م. ن 2:82.

(7) م. ن 2:122.

(8) م. ن 2:112.

(9) م. ن 2:118.

(10) م. ن 2:137.

(11) م. ن 2:144.

(12) م. ن 2:.

(13) م. ن 2:158.

(14) م. ن 2:174.

(15) م. ن 2:177.

(16) م. ن 2:184.

(17) م. ن 2:185.

(18) م. ن 2:197.

(19) معالم الإيمان 2:71.

وصحنون بن سعيد⁽¹⁾ وابن عبدوس⁽²⁾ وأبي داود العطار⁽³⁾ وأحمد بن يزيد المعلم⁽⁴⁾.

فما من ريب في أن هؤلاء التلاميذ الكبار لعلي بن زياد، وتلاميذهم من بعدهم قد نهضوا بأعباء تأصيل المذهب المالكي ونشره في القرنين الثاني والثالث الهجريين، كما كان لهم دورهم البارز أيضاً في العمل على الانتصار له، ومحاورة أهل المذاهب الفقهية الأخرى، ومحاصرة الطوائف المغالية.

يقول الشيخ محمد الشاذلي النيفر: «وتخرّجت على أصوله، ومن مدرسته [أي مدرسة علي بن زياد] أعلام كان لهم الصدى البعيد، ونفعوا الناس بعلمهم، وبيثوا الحيوة فيسائر العلوم الإسلامية؛ فلم تقدر المذاهب الأخرى أن تجد التربة التي تنمو فيها غراسها؛ فلذلك لم ينجح المذهب الشيعي، ولا مقابله الصفري، ولا الظاهيرية، فلم تعمّر هذا المذهب»⁽⁵⁾.

وقد أعاد الدكتور هشام قريشة هذا المعنى الذي ذكره الشيخ النيفر بقوله مؤكداً: «وقد تخرّج من هذه المدرسة «الزيادية» أعلام كان لهم الصدى البعيد فيسائر العلوم الإسلامية، فلم تقدر المذاهب الأخرى كـ«الصفيرية» وـ«الشيعة الإمامية» وـ«الظاهيرية» على التعمير»⁽⁶⁾.

وبذلك يظهر الدور الذي نهض به الفقيه المحدث علي بن زياد الطرابليسي في تأصيل المذهب المالكي في الغرب الإسلامي خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين.

* * *

(1) م. ن 2: 78.

(2) م. ن 2: 137.

(3) م. ن 2: 158.

(4) م. ن 2: 200.

(5) قطعة من موطا ابن زياد: 28.

(6) موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب المسلمين 11: 285.

الخاتمة

هذا الكتاب، بل الجهد البحثي الذي عوناه ووسمناه بـ«عليٌّ بن زياد الطرابلسي»، ودوره في نشر المذهب المالكي في القرن الثاني الهجري هو أول كتاب مستقل في ترجمة الفقيه المالكي عليٌّ بن زياد (ت 183هـ / 799)، وفي التعريف بجهوده الكبيرة المبكرة في تأصيل المذهب المالكي ونشره في بلده طرابلس الغرب وفي بلاد الغرب الإسلامي بعامة.

وقد بنيناه - كما تقدّم، وكما سيأتي - على بعض الفصول والمباحث، وأردفنا ذلك كله بهذه الخاتمة.

ومن النتائج التي هُدِي إليها البحث في هذا الكتاب أن الفقيه ابن زياد المولود بإجماع آراء المحققين من الكتاب والمؤرخين في مدينة طرابلس الغرب، ومن الناشئين في ربوعها، والأخذين علومهم وفهمهم إلى زمن الشباب والرجولة بها - كما أثبتت أدلة هذا الكتاب، كان من أوائل فقهاء هذا المذهب المالكي الذي جاء به علماء من أهل المدينة المنورة، ومن علماء مصر الذين استقروا منذ أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني في طرابلس الغرب. ثم إنَّ هذا الفقيه الطرابلسي كان بحكم شأنه وانتفاعه بعلماء بلده والطارئيين عليها - من أوائل فقهائها الذين رحلوا إلى إمام دار الهجرة مالك بن أنس

الأصبهي (ت 795/79) وأخذوا العلم عنه، ورووا موظاه، وحملوا أسماعته ورواياته وفقهه وفتاویه إلى طرابلس الغرب، وإلى الغرب الإسلامي في القرن المذكور كما أخذ عن شيوخه الآخرين الليث بن سعد وسفيان الثوري وابن لهيعة وغيرهم.

وقد اتسمت المعلومات المتصلة بهذا الفقيه الرائد بالكثير من الشعّ والندرة، إذ لم يرد في المصادر والمظان القديمة من أخباره إلا قطوف ونتف مختصرة بعثرة، ولمحات قليلة متفرقة، كما لم يصل من آثاره إلا النذر اليسير، ثم ظلت تلك القطوف والتطف المختصرة من أخباره وآثاره، حبيسة في بطون الكتب، ومبئوثة سارية في طوابيا التأليف والتصانيف.

ومن أسف أن تلك الأخبار والأثار على قلتها تلبست في مواضع منها - كما سرني - بما أدخله الكتاب والمؤرخون على مساقاتها من أغاليط وتحريفات وأخطاء، فضلت معالم هذه الشخصية وترجمتها بذلك قلقة وغامضة تحتاج إلى من يجمع المعلومات حولها، ومن يلقي حزمة مشعة من الأضواء على تاريخها الصحيح، وأبعادها المختلفة، وتأثيرها وتأثيرها وإلى من يؤصل حقائقها المرجحة.

وبالرغم من أن بعض الباحثين القدامى والمحدثين قد حاولوا في العديد من آثارهم التليدة والطارفة، التي ترجموا فيها للمذهب المالكي ونشاته وأعلامه وعلمائه الذين أصّلوه ونشروه - بناءً ترجمة لهذا الفقيه المالكي علي بن زياد الطرابلسي المعدود من الرواد ومن الرعيل الأول من أقطاب هذا المذهب الفقهي السنّي التعبدّي؛ فإن ما حاولوه ظلّ - لغيبة تفاصيل الأخبار، وضياع الآثار، نبدأ موزعة، ونتفأ مفرقة، يدل إلى حد ما عن بعض الجوانب في حياته، ولكنه لا يرسم صورةً كاملةً أو شبه كاملة عنها، وعن أبعادها وآفاقها الواسعة المجهولة؛ لذلك - ومن هذا المنطلق - حاولت أن أُؤلف هذا الكتاب، وأجمع الأشئtas والمترفات في فصوله ومباحثه، كما حاولت خلال تلك المباحث والفصل تصحيح بعض الأخطاء والأغاليط التاريخية، والهنات المعرفية التي شابت

الكتابات المتقدمة والسابقة، كي تكون هذه الشخصية أقرب إلى الحقائق المُسلمة.

وهذا الكتاب، بل هذا الجهد العلمي على صغر حجمه وبما استعان به من صُوى الحقائق الموزعة بين هاتيك المظان القديمة، والمراجع الحديثة، يندرج - بالرغم من الجُهد المُضني المبذول في تحرير فصوله ومباحثه - ضمن المحاولات العلمية الكثيرة للتعرّف بهذا العلم الرائد المتميّز بين أعلام أفق الغرب الإسلامي في القرن الثاني الهجري.

فما من شك في أنه كان - كما أظهر هذا الكتاب من حملة العلم الأوائل إلى فضاء الغرب الإسلامي الواسع، ومن الفقهاء والمحدثين الرواد الذين نشروا فقه الإمام مالك وموطأه وأسماعته، ومن العلماء الأفذاذ الذين تحلق حولهم تلاميذ هذا المذهب السني الكبار في أوطان الغرب الإسلامي.

وقد كسرت الدراسة في هذا الكتاب - كما جاء في مقدمته وفي الفافه - على ثلاثة فصول رئيسة، تضمّنت داخلها عدداً من المباحث، حين اشتمل الفصل الأول على الحديث المفصل الكاشف عن آفاق الحياة العامة الاجتماعية والسياسية والفكريّة في بلد المترجم به «طرابلس الغرب».

ومن أبرز النتائج في هذا الفصل ما انتهى إليه من خلل الأدلة التاريخية من تمازج الأعراق والأجناس المختلفة فيها، وأن العقيدة الإسلامية واللغة العربية لم يتحقق وجودهما في طرابلس الغرب وطن ابن زياد، بل في الغرب الإسلامي إلا بعدة حملات جهادية ودعوية، استمرت طوال القرن الأول الهجري الذي شهد سلف علي بن زياد، ثم خلال القرن الثاني الهجري الذي أسهم مترجمنا في أنساقه بجهده المحمود، بإدخال الفقه والأحاديث والأسمعة والفتاوی، وهو الجهد الذي خلد به في التاريخ.

كما أظهر الكتاب في هذا الفصل أنَّ مدينة طرابلس الغرب. والتي كان يسكنها في القرنين الأول والثاني جماعات من المصريين والمدنيين الذين وفدوا

إليها إبان الفتح ويعده - قد شهدت بفضلهم وبتأثيرهم - بالرغم مما عانه من القلاقل والفتن والاضطرابات، مجلى لحياة دينية وفقهية مزدهرة بحفظ القرآن الكريم وتحفيظه، والعناية بالسنة النبوية، وعلوم الشريعة واللغة العربية، وهو المجلى الذي نوه به الفقيه التونسي سحنون بن سعيد، وأغرى ولده محمدأ، وبعض تلاميذه من أمثال سليمان بن سالم بالذهب إليه، والاستفادة من معطيات بيته، كما جاء في شهادته المحترمة التي أوردناها، فقد كان في طرابلس الغرب - كما ذكر - علماء من المدينة المنورة، وعلماء من مصر، كما كان فيها من الأصلاء صلحاء ما الفضيل بن عياض بأحسن منهم علماً وتقى.

فلا غرابة - بعد ذلك - في أن تنجو هذه البيئة الفكرية الطرابلسية عالماً مثل ابن زياد وطبقته، وأن ينشأ فيها في هذا الجو العلمي، وأن يحرص غالب نشأته على الانتفاع بهذا المحيط العلمي، قبل التفكير في الرحلة إلى بعض البلدان الأخرى التي هاجر إليها - فيما بعد - في تونس وفي بعض مدن الشرق .

ولَا غرابة أيضاً في أن ينجو هذا المناخ العلمي النشيط المزدهر إلى جانب الفقيه المحدث علي بن زياد الطرابلسي علماء آخرين من الفقهاء والمحدثين من أمثال أبي سليمان الطرابلسي، ومحمد بن ربيعة الحضرمي الطرابلسي ومحمد بن معاوية الطرابلسي وغيرهم .

وتتضمن الفصل الثاني من هذا الكتاب حياة الفقيه علي بن زياد وأوليته، فذكرنا - بالتحقيق - اسمه وكنيته وأصوله، وبيننا الاختلاف الحاصل بين المصادر والمراجع في مرد جذمه الذي اختلفت فيه كلمة الباحثين، حيث ذهب بعضهم إلى القول بأنه منسوب إلى الأعراق العربية الخالصة، وذهب آخرون إلى القول بأن أعرقه أعراق فارسية أعجمية، وبيننا في عرض ذلك وحسمه ما ارت Hanna إليه من ترجيح العالم التونسي الشيخ محمد الشاذلي النيفر الذي وفق في هذه المسألة - بالجمع بين القولين المذكورين من حيث تسليمه بأعجمية أصوله «الفارسية»

القديمة حسب رواية القاضي شرحبيل قاضي طرابلس الغرب التي أجاب بها الفقيه التونسي سحنون بن سعيد، وبين الرواية الواردة في مساقات بعض المصادر من أنه «عبيسي» من قبيلة «عبس»، فذكر فارسيته في الأصول، وبأنه «عبيسي» من جهة الولاء⁽¹⁾.

كما قرر أيضاً ما قررته الشيخ محمد الشاذلي النifer أنَّ «الأقرب أنه من عبس غطfan؛ لأنَّ الأكثريَّة في النسبة إليها دون غيرها»⁽²⁾.

أما من حيث الانتفاء إلى الموطن الجغرافي أو البلد، أي مسقط الرأس ومحل النشأة فقد أثبت الفصل بالأدلة من المصادر الرئيسة التي لا تردُّ، ولا تدفع، أنه يعود في ذلك إلى مسقط رأسه ومرباءه، وموطن أوليته أعني مدينة طرابلس الغرب المدينة العاصمة وأنَّ هذه النسبة الصحيحة والصريحة إلى وطنه طرابلس الغرب. لا تمنع من أنه استفاد العلم، وانتفع بالعلماء في بلدان ومداين آخرى رحل إليها، وأقام فيها، وتقلب في ربوعها وبيئاتها، كما أنه استفاد قبل ذلك من مجالس علماء وطنه في طرابلس الغرب، ومن شيوخها.

وقد أفضى بنا الحديث بذلك إلى الكلام عن الطور المشرقي من حياته في مصر والجaz والعراق، وإلى الحديث عن أهمية هذه الرحلة المشرقة التي أخذ فيها علومه التي عرف بها واشتهر، وبخاصة علم الحديث والفقه المالكي، وذكرنا أخذه فيها عن أئمَّة أعلام من أمثال: الليث بن سعد، وعبد الله بن لهيعة في مصر، والإمام مالك بن أنس الأصحابي في المدينة المنورة، ثم الإمام سفيان الثوري في العراق، أما في تونس فإنه لم يكن من شيوخه المعروفين فيها خلال هجرته الأولى إليها إلا الشيخ خالد بن عمران الذي أدركه مترجمنا في سنته الأخيرة، حيث توفي هذا الفقيه التونسي عام (746هـ/129) وإن كان الخشنبي صاحب كتاب «طبقات علماء إفريقيا» لم يذكر أخذ ابن زياد عن ابن أبي خالد

(1) قطعة من موطاً ابن زيد: 29، 30.

(2) قطعة من موطاً ابن زيد: 29، 30.

التونسي ، ولم يقرّر بصورة جلية تلمذته له ، وهو ما يتضح منه أن تكوينه الديني والعقلاني والفقهي الأكبر إنما هو برحلته المشرقة التي استطاع أن يؤثر به في البلاد المغاربية بعد رجوعه إليها منها .

وقد بيّنا كيف عاد ابن زياد من هذه الرحلة الطويلة – على الراجح – وكيف استقرّ وأقام – في الغالب – زمناً بوطنه طرابلس الغرب قبل أن يرحل منها نهائياً إلى تونس التي أمضى فيها بقية سنوات حياته الفاعلة المؤثرة .

وتلك هي الأطوار الثلاثة البارزة في استمراء رحلة حياة الفقيه علي بن زياد .

أما المبحث الخامس من هذا الفصل ، فقد تحدّث عن أخرىات هذه الحياة الحافلة بالأخذ والعطاء لهذا الفقيه الطرابلسي التي أمضاها في مهجره الحاضن بتونس التي شهدت له – كما بينا – نشاطاً علمياً ملحوظاً ظلّ زاخراً بالتدريس والتأليف والفتيا إلى أن لقي وجه الله تعالى في قصبتها في حدود سنة (799/183) أي قبل بداية ظهور عهد الدولة الأغليبية بمدة سنة تقريباً، وليس كما ذكر بعض العلماء الأجلاء – رحمهم الله تعالى – خطأ وسهواً – في إبان عظمة الدولة الأغليبية التي ظهرت في تونس تاريخياً سنة (800/184) .

وفي الفصل الخاتم لفصل هذا الكتاب «عليٌّ بن زياد الطرابلسي ودوره في نشر المذهب المالكي في القرن الثاني الهجري»، الذي وظّف لبيان تأصيل دور هذا الإمام في نشر المذهب في الغرب الإسلامي خلال القرن الثاني الهجري فقد انحصر القول فيه فيما نهض به من روایته المتميزة للموطأ، وأسمعته من شیخه الإمام مالک بن انس، وإفراطه علوم العربية والعلوم الشرعية في دولاته وفي حلقة طلابه في وطنه طرابلس الغرب، والبلاد الأخرى التي أقام فيها مثل مصر والمحجّز وال伊拉克، وأخيراً في مهجره تونس والقيروان اللذين ازدهرت فيها الحياة الفكرية بفضل جهود المبارك وجهود تلاميذه من الفقهاء الكبار بعده .

كما تبيّن من جهده المحمود بالإضافة إلى رواية الموطأ، وإشاعة الأسمعة والفتاوي من شيخه، ورواية الإمام ورش عن نافع، وهي رواية أهل المدينة في قراءة القرآن الكريم، أخذها مترجمنا علي بن زياد عن شيخه الإمام مالك بن أنس الذي أخذها بدوره عن شيخه الإمام نافع، فكان بذلك من أوائل الناشرين لهذه القراءة في الغرب الإسلامي.

ينضاف إلى ذلك تأليفه كتابه المفقود والمسمى «خيراً من زنته»، ثم إشرافه العملي وال حقيقي والمؤثر على تكوين المركزين الفقهيين المالكيين في القி�روان وتونس، اللذين كان - على التحقيق - عمدتهما ومرجعهما الأكبر.

كما بينا من هذا الدور العملي والعلمي الذي قام به هذا الفقيه الطرابلسي، ما تخرّج به من تلاميذه المبرزين المعروفيين في تونس والغرب الإسلامي في الفقه والرواية والفتيا والتأليف، فقد تعلقوا بمحالسه، وتحلقوا بحلقه في طرابلس وتونس والقி�روان، وقد ذكرنا منهم الفقيه البهلواني بن راشد (ت 183) والفقیه المشهور أسد بن الفرات (ت 213) صاحب الأسدية في الفقه، وفاتح جزيرة صقلية، والفقیه العالم المعلم سحنون بن سعيد (ت 240) صاحب المدوّنة، وأستاذ الفقهاء في عصره، والفقیه شجرة بن عيسى المعافري (ت 262)، وموسى بن معاوية (ت 225) كما ذكرنا غيرهم من أفذاذ العلماء من تلاميذ مترجمنا ومن تلاميذهما في تونس والغرب الإسلامي في القرنين الثاني والثالث الهجريين⁽¹⁾.

ومن الغريب حقاً أن الأستاذ الدكتور الحبيب الجنحاني لم يشر في كتابه «القி�روان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي» في أثناء الحديث عن الحياة الفكرية في القி�روان إلى هذا العالم الطرابلسي علي بن زياد، ولم يذكر دوره الواسع أو دور مدرسته «الزيادية» في أنساق الحياة الفكرية

(1) القி�روان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب: 153 - 165.

بالقيروان وتونس، وإنما اكتفى بمجرد ذكر أسماء بعض تلاميذه الذين أخذوا عنه العلم فحسب، وكأنهم لم يكونوا من نتاجه حسبما تقرر في جميع المصادر والمراجع القديمة والحديثة.

والحقُّ الذي لامرية فيه أننا لم نشأ بتأليف هذا الكتاب الذي أَسَّسنا فيه لترجمة الفقيه المالكي أبي الحسن علي بن زياد الطرابلسي انحيازاً إلى وطن من الأوطان أو تعصباً للتنويه بمذهب فقهى إسلامي دون مذهب، إذ إنَّ المذاهب الإسلامية مذاهبٌ فقهية محترمة تعزز بها الحياة الفكرية في العالم الإسلامي بعامة وخير الأمة في اختلاف الأئمة، إنما أردنا بتأليفه إعادة الحق الصراح إلى نصابه، والتعریف بعلم من أعلام هذا الفكر من حيث نسبته الصحيحة إلى أجداده ووطنه، وبيان دوره الرائد في خدمة الإسلام ونشر الدين القويم ضمن التعريف المنصف بأعلام العربية والإسلام، والله وحده من وراء القصد. وهو وحده الموقق إلى الخير وال قادر عليه.

أ. د. محمد مسعود جبران

الملاحق

❖ الملحق الأول : قطوف من موطن ابن زياد .

❖ الملحق الثاني : مشاهد من مدينة طرابلس الغرب التي ولد فيها ابن زياد وترعرع وكبر .

❖ الملحق الثالث : رسن ابن زياد في مهجره بتونس .

الملحق الأول

نماذج وقطوف من الأصل المتبقى من موطا
مالك بن أنس - رضي الله عنه - برواية علي
بن زياد الطرابلسي وقد اقتصرنا فيه على إيراد
المتن، بغير تحرير أو تعليق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَصَلَاتُهُ وَسَلَامُهُ عَلَى أَشْرَفِ الْمَرْسَلِينَ

الضحايا

حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ زَيْدٍ عَنْ مَالِكٍ بْنِ أَنَّسٍ عَنْ عُمَرِ بْنِ الْحَارِثِ عَنْ عُبَيْدِ بْنِ فِيرُوزٍ عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - سُئِلَ: مَاذَا يُتَقَنَّى مِنَ الضَّحَايَا؟ فَأَشَارَ بِيَدِهِ فَقَالَ: «أَرْبِعًا» وَكَانَ الْبَرَاءُ يُشَيِّرُ بِيَدِهِ وَيَقُولُ: وَيَدِي أَقْصَرُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -: «الْعَرْجَاءُ الْبَيْنُ ضَلَّعُهَا، وَالْعُورَاءُ الْبَيْنُ عَوْرُهَا، وَالْمَرِيضَةُ الْبَيْنُ مَرْضُهَا، وَالْعَجْفَاءُ الَّتِي لَا تُنْقِي».

وَحَدَّثَنَا عَنْ مَالِكٍ عَنْ نَافِعٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: الضَّحَايَا وَالْبُدُنُ الشَّنِي فَمَا قَوْقَهُ.

وَحَدَّثَنَا عَنْ نَافِعٍ عَنْ أَبْنِ عَمْرَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: يُتَقَنَّى مِنَ الضَّحَايَا وَالْبُدُنِ التِّي لَمْ تُشِّنَّ، وَالَّتِي نَقْصٌ مِنْ خَلْقَهَا.

وَحَدَّثَنَا عَنْ نَافِعٍ عَنْ أَبْنِ عَمْرَ أَنَّهُ ضَحَّى مَرَّةً بِالْمَدِينَةِ، قَالَ نَافِعٌ: فَأَمْرَنِي أَنْ أَشْتَرِي لَهُ كَبِشاً فَحِيلًا أَقْرَنَ، ثُمَّ أَذْبَحَهُ يَوْمَ الْأَضْحَى فِي مُصْلَى النَّاسِ، قَالَ نَافِعٌ: فَفَعَلْتُ ثُمَّ حُمِلْتُ إِلَيْهِ عَبْدَ اللَّهِ فَحَلَقَ رَأْسَهُ حِينَ ذُبْحَ الْكَبِشِ، وَكَانَ مَرِيضًا لَمْ

يشهد العيد مع الناس؛ قال نافع: وكان عبد الله يقول: ليس حلاق الرأس بواجب على من ضحى إذا لم يُحجّ، وقد فعله عبد الله بن عمر.

وَحَدَّثَنَا عَنْ نَافِعٍ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ لَمْ يَكُنْ يَضْحِي عَمَّا فِي بَطْنِ امْرأَةٍ.

نافع أَنَّ ابْنَ عُمَرَ كَانَ يَقُولُ: لَا تَنْحِرُ الْبَقَرَةُ إِلَّا عَنْ إِنْسَانٍ وَاحِدٍ [وَلَا تَنْحِرُ الشَّاةُ] إِلَّا عَنْ إِنْسَانٍ وَاحِدٍ، وَالْبَعِيرُ مِثْلُ ذَلِكَ أَيْضًا عَنْ إِنْسَانٍ وَاحِدٍ.

قال مالك: إِنَّهُ يُعْمَلُ عَلَى قَوْلِ ابْنِ عُمَرَ فِي الْبَقَرَةِ وَالْبَعِيرِ.

تُشْحَرُ الْبَدَنَةُ عَنْ سَبْعَةِ، وَالْبَقَرَةُ عَنْ سَبْعَةِ. عَنْ عُمَارَةَ بْنِ صَيَادٍ [أَنَّ عَطَاءَ ابْنَ يَسَارَ أَخْبَرَهُ] أَنَّ أَبَا أَيُوبَ الْأَنْصَارِيَ أَخْبَرَهُ، قَالَ: كُنَّا نُضْحِي بِالشَّاةِ الْوَاحِدَةِ، يَذْبَحُهَا الرَّجُلُ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، ثُمَّ تَبَاهِي النَّاسُ بَعْدَهُ؛ فَصَارَتْ مِبَاهَةً.

عَنْ مَالِكٍ عَنْ أَبِي الزَّبِيرِ الْمَكِيِّ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ قَالَ: نَحْرَنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - عَامَ الْحَدِيبِيَّةِ الْبَدَنَةَ عَنْ سَبْعَةِ، وَالْبَقَرَةِ.

قال مالك: على ذلك العمل في الأضحى، ينحر ذلك الرجل عن نفسه، وعن أهل بيته.

عَنْ مَالِكٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ عَنْ بَشِيرِ بْنِ يَسَارٍ أَنَّ أَبَا بَرْدَةَ بْنَ نَبَارَ ذَبَحَ ضَحْيَتَهُ قَبْلَ أَنْ يَذْبَحَ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - فَزَعَمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - أَمْرَهُ أَنْ يَعُودَ بِضَحْيَةَ أُخْرَى؛ فَقَالَ أَبُو بَرْدَةَ: لَا أَجِدُ إِلَّا جَذْعًا؛ فَقَالَ: إِنْ لَمْ تَجِدْ إِلَّا جَذْعًا فاذبِحْهُ.

عَنْ مَالِكٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ عَنْ عَبَادِ بْنِ تَمِيمٍ أَنَّ عَوَيْمَرَ بْنَ أَشْقَرَ ذَبَحَ ضَحْيَتَهُ قَبْلَ أَنْ يَغْدوَ يَوْمَ الْأَضْحَى، وَأَنَّهُ ذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَأَمْرَهُ أَنْ يَعُودَ بِضَحْيَةَ أُخْرَى.

قال مالك: ليس الضحية بواجبة على الناس كوجوب الفريضة، ولكنها سُنة لا يستحب تركها.

عَنْ مَالِكٍ عَنْ أَبِي الزَّبِيرِ الْمَكِيِّ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ السُّلْمَىِّ، أَنَّهُ أَخْبَرَهُ

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - نَهَىٰ عَنْ أَكْلِ لَحْوِ الْفَصَاحِيَا بَعْدَ ثَلَاثٍ، ثُمَّ قَالَ - بَعْدَ ذَلِكَ - كُلُوا، وَتَزَوَّدُوا وَادْخُرُوا.

عَنْ مَالِكٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ وَاقِدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّهُ قَالَ: نَهَىٰ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَكْلِ لَحْوِ الْفَصَاحِيَا بَعْدَ ثَلَاثٍ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ: فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمْرَةَ ابْنَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ؛ فَقَالَتْ: صَدِقَ سَمِعْتُ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ - ﷺ - تَقُولُ: دَفَّ نَاسٌ مِّنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ حَضْرَةَ الْأَضْحَى فِي زَمَانِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: ادْخُرُوا ثَلَاثَ، وَتَصْدِقُوا بِمَا بَقِيَ قَالَتْ فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَقَدْ كَانَ النَّاسُ يَتَفَعَّلُونَ بِفَصَاحِيَاهُمْ، وَيَجْعَلُونَ مِنْهَا الْوَدْكَ، وَيَتَخَذُونَ مِنْهَا الْأَسْقِيَةَ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - وَمَا ذَلِكَ، أَوْ كَمَا قَالَ، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ: نَهَيْتُ عَنْ إِمْسَاكِ لَحْوِ الْفَصَاحِيَا بَعْدَ ثَلَاثٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: إِنَّمَا نَهَيْتُكُمْ مِّنْ أَجْلِ الدَّافَةِ الَّتِي دَفَّتْ عَلَيْكُمْ، فَكُلُوا وَتَصْدِقُوا وَادْخُرُوا.

الْعَقِيقَةُ

حَدَّثَنَا عَنْ مَالِكٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ رَجُلٍ مِّنْ بَنِي ضُمْرَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - سُئِلَ عَنِ الْعَقِيقَةِ، فَقَالَ: لَا أُحِبُّ الْعَقُوقَ، إِنَّمَا كَرِهُ الْإِسْمُ، مِنْ وَلْدِهِ وَلَدُهُ فَأَحَبُّ أَنْ يَتَسَكَّعَ عَنْ وَلْدِهِ؛ فَلَيَفْعُلْ.

عَنْ مَالِكٍ عَنْ نَافِعٍ عَنْ أَبْنَى عَمِّ رَسُولِهِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَسْأَلُهُ أَحَدٌ مِّنْ أَهْلِهِ عَقِيقَةً إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهَا، وَكَانَ تَعْقُّ عَنْ وَلْدِهِ بِشَاءٍ، شَاءَ عَنِ الذِّكْرِ وَالْأَنْثَى.

عَنْ مَالِكٍ عَنْ هَشَامِ بْنِ عُرْوَةَ أَنَّ أَبَاهُ عُرْوَةَ كَانَ يَعْقُّ عَنِ بَنِيهِ الذِّكْرَ وَالْإِنْاثِ بِشَاءٍ شَاءَ.

قَالَ مَالِكٌ: وَعَلَى ذَلِكَ الْعَمَلِ عِنْدَنَا.

عَنْ مَالِكٍ عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْحَارِثِ التَّيْمِيِّ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ أَنَّهُ تُسْتَحْبِبُ الْعَقِيقَةُ، وَلَوْ بَعْصَفُورَ.

عَنْ مَالِكٍ عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلَى بْنِ حَسِينٍ

أَنَّهُ قَالَ: وَرَأَتْ فَاطِمَةُ ابْنَةَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - شَعْرَ حَسَنٍ وَحَسِينٍ ابْنِي عَلِيٍّ بْنِ أَبِيهِ طَالِبٍ.

وَعَنْ مَالِكٍ عَنْ جَعْفَرٍ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَلَيٍّ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ قَالَ: وَرَأَتْ ابْنَةَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - شَعْرَ حَسَنٍ وَحَسِينٍ وَزِينَبَ وَأُمَّ كَلْثُومَ؛ فَتَصَدَّقَتْ بِوْزُونِ ذَلِكَ فَضْلَةَ.

قَالَ مَالِكُ: الْأَمْرُ الَّذِي لَا اخْتِلَافٌ عَنْهُ أَنَّ مِنْ عَقَّ، فَإِنَّمَا يُعْقَ عَنِ الْذِكْرِ وَالْأَنْشَى شَاءَ شَاءَ، وَلَيْسَ الْعَقِيقَةُ بِوَاجِبَةٍ، وَلَكِنَّهُ يُسْتَحْبِطُ الْعَمَلُ بِهَا، وَهُوَ الْأَمْرُ الَّذِي لَمْ يَزُلْ النَّاسُ عَلَيْهِ عِنْدَنَا؛ فَمِنْ عَقَّ عَنْ وَلَدِهِ؛ فَإِنَّمَا هِيَ بِمَنْزِلَةِ النُّسُكِ، وَالْأَسْحَابِيَا لَا يَجُوزُ فِيهَا عَرْجَاءٌ وَلَا عُورَاءٌ وَلَا مَرِيضَةٌ وَلَا عَجْفَاءٌ لَا تَنْتَقِي، وَلَا يَبَاعُ مِنْ لَحْمِهَا شَيْءٌ، وَلَا مِنْ جَلْوَدِهَا، وَيُكَسِّرُ أَهْلُهَا عَظَامَهَا إِنْ شَاءُوا، وَيَأْكُلُ أَهْلُهَا مِنْ لَحْمِهَا، وَيَطْعَمُونَ الْجِيرَانَ، وَيَتَصَدَّقُونَ مِنْهَا، وَلَا يُمْسِي الصَّبِيُّ بِشَيْءٍ مِنْ دَمِهَا.

الذِكَاهُ

حَدَّثَنَا عَنْ مَالِكٍ بْنِ أَنْسٍ أَنَّهُ بَلَغَهُ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسِيْبِ أَنَّهُ كَانَ يَنْهَا أَنْ تُقْتَلَ الْإِنْسَيَّةُ بِمَثَلِ مَا يُقْتَلُ بِهِ الصَّيْدُ مِنْ الرَّمِيِّ، وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ، مَا يَنَالُ بِهِ قَتْلُ الصَّيْدِ، وَالَّذِي يَوْجَدُ مِنَ الصَّيْدِ حَيَاً فَيُضَبَّرُ فِيمِى، أَوْ يُرْسَلُ عَلَيْهِ الضَّوَارِيُّ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ الْإِنْسَيَّةِ لَا يُقْتَلُ بِمَا يُقْتَلُ بِهِ الصَّيْدِ، وَلَا يَنْبَغِي أَكْلُهُ، وَكَذَلِكَ الْإِنْسَيَّةُ.

قَالَ مَالِكٌ: أَحَسِنَ مَا سَمِعْتُ أَنَّهُ لَا بَأْسَ بِأَنْ تُؤْكَلْ ذَبِيْحَهُ الصَّبِيُّ إِذَا كَانَ قَدْ أَطَاقَ الذَّبِحَ، وَإِنْ لَمْ يَحْتَلِمْ، وَالْجَارِيَّةُ إِذَا كَانَتْ قَدْ أَطَاقَتِ الذَّبِحَ، وَإِنْ لَمْ تَحْضُ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَحْبِبُونَ أَنْ لَا يَذْبَحَ الصَّبِيُّ وَلَا الْجَارِيَّةُ حَتَّى يَطِيقَا إِلَّا مِنْ ضَرُورَةِ، وَأَنَّهُمَا إِنْ ذَبَحا مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةِ أَكْلُتْ ذَبِيْحَتَهُمَا.

قَالَ: وَحَدَّثَنَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ عَنْ شَاءَ ذَبَحْتَهَا جَارِيَةً سَعَدُ بْنُ مَالِكٍ؛ فَأَمْرَ بِأَكْلِهَا.

عن مالك، عن عاصم بن عبد الله بن عاصم، أنَّ عمر بن الخطاب رأى رجلاً يذبح شاةً، وقد أضجعها، وهو يَحْدُث شفترته؛ فضربه عمر بالدرة، قال: فهلا فعلت ذلك قبل أن تذبحها.

عن مالك عن نافع عن الأنصار عن معاذ بن سعد، أو سعد بن معاذ أن جارية لكتاب بن مالك كانت ترعى غنماً له بسلع؛ فأصيَت منها شاةً؛ فأدركتها فذبحتها بحجر؛ فسُئل رسولُ الله - ﷺ - عن ذلك؟ فقال: ليس بها بأسٌ فكلوها.

ذكاءُ الجنين

حدَثنا عن مالك عن نافع عن ابن عمر أَنَّه كَانَ يَقُولُ: إِذَا نُحرَت الناقَةُ فذكاءُ ما في بطْنِها فِي ذَكَاتِهَا إِذَا كَانَ قَدْ تَمَّ خَلْقُهُ، وَبَنَتْ شَعْرُهُ فَإِذَا أَخْرَجَ مِنْ بطْنِهَا ذُبْحَهُ حَتَّى يَخْرُجَ الدُّمُّ مِنْ جَوْفِهِ.

عن مالك عن يزيد بن عبد الله بن قسط عن سعيد بن المسيب أَنَّه كَانَ يَقُولُ: ذكاءُ ما في بطْنِ الذبيحةِ فِي ذَكَاتِهَا أَمْهُ إِذَا كَانَ قَدْ بَنَتْ شَعْرُهُ، وَتَمَّ خَلْقُهُ.
قالَ مالكُ: وَعَلَى ذَلِكَ الْأَمْرِ عِنْدَنَا، وَيُسْتَحْبِطُ ذُبْحَهُ حِينَ يَخْرُجُ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ بِهِ حِيَاةٌ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَمْرٍ: حَتَّى يَخْرُجَ الدُّمُّ مِنْ جَوْفِهِ.

عن مالك عن هشام بن عروة عن أبيه أَنَّه قَالَ: سُئِلَ رسولُ الله - ﷺ - فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ: إِنَّ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ يَأْتُونَا بِلَحْمَانَ فَلَا نَدْرِي هَلْ تَسْمَوْا عَلَيْهَا أَمْ لَا؟ قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ - سَمُّوْا ثُمَّ كَلُوْهَا، قَالَ: وَذَلِكَ فِي أَوَّلِ الإِسْلَامِ.

قالَ مالكُ: وَسَمِعْتُ أَهْلَ الْعِلْمِ يَكْرَهُونَ أَنْ يَنْخُعَ الْذَابِحُ ذَبِيْحَتَهُ بِشَفَرَتِهِ أَوْ غَيْرَهَا.

قلنا: أَفْتَؤَكِلُ تَلْكَ الذَبِيْحَةَ إِذَا فَعَلَ الْذَابِحُ جَاهِلًا، قال: نعم.

عن مالك عن يحيى بن سعيد عن أبي مُرَّة أَنَّه سَأَلَ أَبا هُرَيْرَةَ عَنْ شَاةٍ

ذُبَحْتُ؛ فَتَحَرَّكَ بعْضُهَا فَأَمْرَهُ أَنْ يَأْكُلُهَا، ثُمَّ سُئِلَ زَيْدَ بْنَ ثَابَتَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: إِنَّ الْمَيْتَةَ لَتَحْرُكُ، وَنِهَاهُ عَنْ ذَلِكَ.

باب ذبح أهل الكتاب

قَالَ: عَنْ مَالِكٍ عَنْ ثُورِ بْنِ زَيْدِ الدَّيْلِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ ذَبَاحِ نَصَارَى الْعَرَبِ، فَقَالَ: لَا بَأْسَ بِهِ وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿يَتَائِبُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَشْخُذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَفْلَاهُهُمْ أُولَاهُمْ بَعْضٌ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّمَا مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: 51].

قَالَ مَالِكٌ، وَعَلَى ذَلِكَ الْأَمْرِ عِنْدَنَا.

وَسُئِلَ مَالِكٌ عَنْ أَكْلِ مَا ذُبَحَ أَهْلُ الْكِتَابِ فِي أَعْيَادِهِمْ لِكَنَائِسِهِمْ، فَقَالَ: أَنَا أَنْفَيُ ذَلِكَ وَمَا أُحْرِمُهُ.

قَالَ: وَسُئِلَ مَالِكٌ عَنْ أَكْلِ شَحْمِ ذِبِيعَةِ الْيَهُودِ، وَالشَّحْمُ عَلَى الْيَهُودِ حَرَامٌ، قَالَ: لَا بَأْسَ عَلَى الْمُسْلِمِ فِي ذَلِكَ لَيْسَ بِمُنْزَلَةِ الْيَهُودِيِّ لِأَنَّ اللَّهَ حَرَمَ ذَلِكَ عَلَى الْيَهُودِ، وَلَمْ يَحْرِمْهُ عَلَى الْمُسْلِمِيْنَ؛ فَإِذَا حَلَّ لِلْمُسْلِمِ أَكْلُ ذَلِكَ الذِبِيعَةِ حَلَّ لَهُ شَحْمُهَا لِأَنَّهُ ذُكِيٌّ؛ فَشَحْمُ مَا ذُبَحَ الْيَهُودُ وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ سَوَاءٌ عَلَى الْمُسْلِمِيْنَ هُوَ لَهُمْ حَلَالٌ.

قَالَ مَالِكٌ، وَذَبَاحُ نِسَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ بِمُنْزَلَةِ ذَبَاحِ رِجَالِهِمْ.

قَالَ مَالِكٌ: لَا بَأْسَ أَنْ يَسْأَلَ الرَّجُلُ أَهْلَ الذِّمَّةِ عَنْ طَعَامِهِمْ هَلْ أَصَابَهُ شَيْءٌ مِنَ الْخَنَزِيرِ أَوِ الْمَيْتَةِ أَوِ الْخَمْرِ، أَوْ مَا يَخَافُ أَنْ يَكُونَ فِي آنِيهِمْ.

طعام الم Gorsus

قَالَ: سُئِلَ مَالِكٌ عَنْ لَبِنِ الْمَجْوُسِ وَجُبْنِهِمْ وَزُبْدِهِمْ وَخُبْزِهِمْ وَطَبِيخِهِمْ، وَمَا صَنَعُوا مِنْ طَعَامِهِمْ، هَلْ يُكَرِهُ أَكْلُ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ لِلْمُسْلِمِيْنَ؟ قَالَ: يُكَرِهُ كُلُّ شَيْءٍ خَالَطَ شَيْئًا مِنَ الْمَيْتَةِ لِأَنَّ ذَلِكَ حَرَامٌ.

قال: ونحن نكره جبن المجنوس لأنهم يجعلون فيها أنفاس الميتة، ثم رجع عن ذلك؛ فقال: لا بأس به إلا أن يعلم أنهم جعلوا في شيء منه الميتة فلا يؤكل.

قال: وأما لبئهم وزبدتهم وسمنهم فلا بأس به إلا أن يكون في آنيتهم شيء مما يلتصق بها مما يأكلون من الميتة أو الخنزير فإن لم يكن بالآنية شيء من ذلك فلا بأس بلبئهم وزبدتهم وسمنهم وجبنهم وطبيخهم غير اللحم، لأن لحمهم ليس بذكي.

أكل المضطر الميتة

قال في المضطر إلى الميتة: إن يأكل منها حتى يشبع، ويترود منها، فإن وجد عنها غنى طرحها.

قال: وسئل مالك عن المحرم يضطر أى صيد فیأكله، أم يأكل الميتة؟
قال: بل يأكل الميتة، ولا يقرب الصيد وهو محرم؛ لأن الله لم يرخص للمخرج فيأخذ الصيد على حال من الأحوال، وقد أرخص في الميتة في حال الضرورة.

قال: وسئل مالك عن المضطر إلى الميتة بمكان يجد به ما شاء قوم، أو زرع قوم، أو تمرهم، أيأخذ منه ما يشبعه سراً منهم فقال: إن ظن أنهم إذا ظهروا عليه قد أصاب من ذلك شيئاً صدقوه بالبلية التي نزلت به حتى لا يدعوه سارقاً فتقطع يده، كان أن يأخذ من ذلك ما يردد به الذي من أجله أخذه أحب إلى من أن يأكل الميتة، وإن خشي أن تدعوه سارقاً ولا يصدقوه بما أصاب فتقطع يده، فإن له في أكل الميتة إذا خشي ذلك إن شاء الله سعة.

قال مالك: مع أنني أخاف أن يصنع ذلك صانع من لم يضطر إلى الميتة، يريد بذلك استجازة أخذ أموال الناس وأكلها فهذا الذي نهى، والله أعلم.

قال مالك: سمعت غير واحد من أهل العلم يقول فيما قتل المحرم من

الصيد: لا يحل أكله للمحرم ولا لحلال؛ لأنه ليس بذكي، وليس بمنزلة ما أذن في قتله من الصيد.

قال: والذي يقتل الصيد خطأ وهو محرم، لا يحل للحلال أكله، كما لا يحل للمحرم.

أكل الدواب

قال مالك: أحسن ما سمعت في أكل الدواب: الخيل والبغال والحمير أنها لا تؤكل. قال الله: ﴿وَالْحَيَّلَ وَالْبَغَالَ وَالْحَمَرَ لِرَكَبُوهَا وَزِينَةٌ﴾⁽¹⁾.

وقال في الأنعام: ﴿أَجَلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةً الْأَنْعَمِ إِلَّا مَا يُتَّلَقَ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحْلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُومٌ﴾⁽²⁾.

وقال: ﴿وَيَذْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقْهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَمِ فَكُلُّوا مِنْهَا وَأَطْعُمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾⁽³⁾.

وقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَمَ لِرَكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾⁽⁴⁾.
فذكر الخيل والبغال والحمير للركوب والزينة، وذكر الأنعام للركوب والأكل.

قال مالك: وعلى ذلك الأمر عندنا.

قال مالك: سمعت أن البائس هو الفقير وأن المعتز هو الزائر.

قال مالك: لا أرى بأساً بجلود الميتة التي لا يؤكل لحمها والبغل والبرذون إذا ذبخت.

(1) سورة التحل، الآية: 8.

(2) سورة المائدة، الآية: 1.

(3) سورة الحج، الآية: 28.

(4) سورة غافر، الآية: 79.

صيد البحر

عن مالك، عن زيد بن أسلم، عن سعيد الجاري مولى عمر بن الخطاب، قال: سألت ابن عمر عن الحيتان، يقتل بعضها بعضاً؛ فتموت صرداً؛ فقال: ليس بها بأسٌ، قال سعيد: فسألت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال مثل ذلك.

عن مالك أن عبد الرحمن بن أبي هريرة، قال صيد المحرم كله حلالاً، قال الله: «أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ»⁽¹⁾ قال مالك صيده: ما اصطيد، وطعامه مالقط.

وقال النبي ﷺ: هو الطهور مأوه، الحلال ميته.

عن مالك، عن أبي الزناد، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة وزيد بن ثابت أنهما كانا لا يريان بأكل مالفظ البحر بأساً.

عن مالك عن نافع أن عبد الرحمن بن أبي هريرة سأله عبد الله بن عمر عما لفظ البحر فنهاه عن أكله، قال نافع: ثم التفت عبد الله بن عمر فدعا بالمحفظ؛ فقرأ «أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ»⁽²⁾.

قال نافع، فأرسلني عبد الله بن عمر إلى عبد الرحمن ابن أبي هريرة أنه لا بأس به فكله.

عن مالك عن أبي الزناد، عن أبي سلمة ابن عبد الرحمن أن ناساً من الجار قدموا فسألوا مروان بن الحكم عما لفظ البحر فقال: ليس به بأس، فقال: اذهبوا إلى زيد بن ثابت وأبي هريرة فاسألوهما، ثم ائتوني وأخبروني ماذا يقولان، قال: فاتوهما فسألوهما، فقالا: لا بأس به، فأتوا مروان فأخبروه فقال: قد قلت لكم.

(1) سورة المائدة، الآية: 96.

(2) سورة المائدة، الآية: 96.

قال مالك: صيد الأنهار العذبة والعيون والأبار والبرك بمنزلة صيد البحر، ذكي كله ما صيد منه، وما وجد ميتاً.

قال مالك: لا بأس بأكل الحيتان يصيدها المجوسي، وذلك لأنَّ النبي قال في البحر هو الطهور مأوه، الحلال ميتته. إذا أكلت ذلك ميتاً لا يضرُك من صاده.

قال مالك: ولا بأس بصيد البحر، وإن كان ميتاً لفظه البحر، أو خسر عنه، أو وجدته فيه طافياً، أو وجدته وقد أكل منه وسئل مالك عن أكل الحيتان إذا ألقيت في النار وهي حية، قال: لا بأس بأكلها ألقىت في النار وهي حية أو ميتة.

وسئل مالك عن الرجل يصيد الحيتان في الماء، فيخاف أن ينفلت منه بعضاً فيلقيها في الطين قبل أن يخرجها، فتهلك فيه، قال: يأكلها على أي حال قتلت به.

قال مالك: أكره أكل كل ما مات من الجراد قبل أن يلقى في النار، أو فيما يقتل به ليؤكل - يعني به الماء السخن، قال: وأكره ما يوجد ميتاً، ولا أراه بمنزلة صيد البحر.

قال علي: ليس الناس على قول مالك لا بأس برميته.

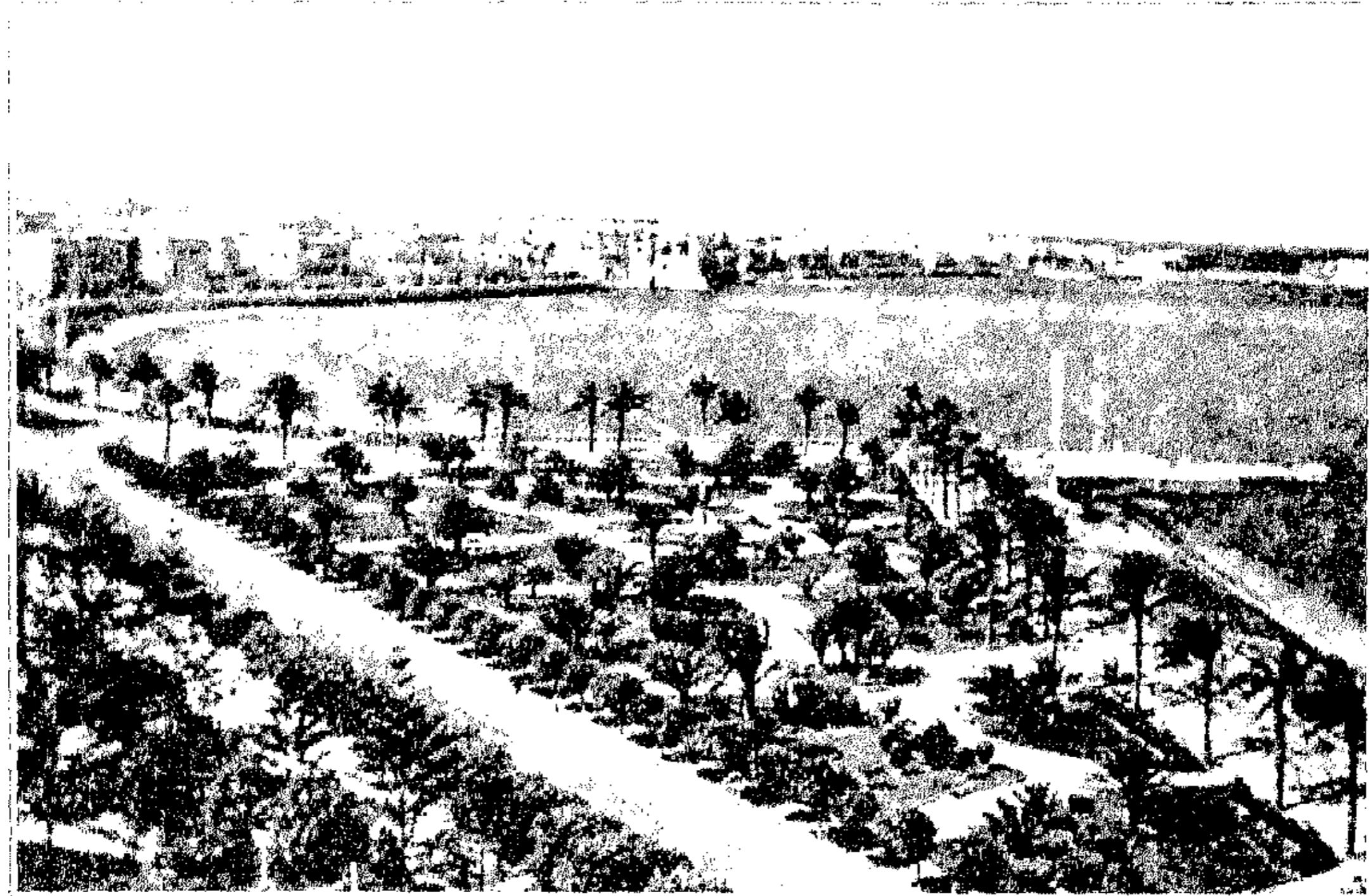
* * *

الملحق الثاني

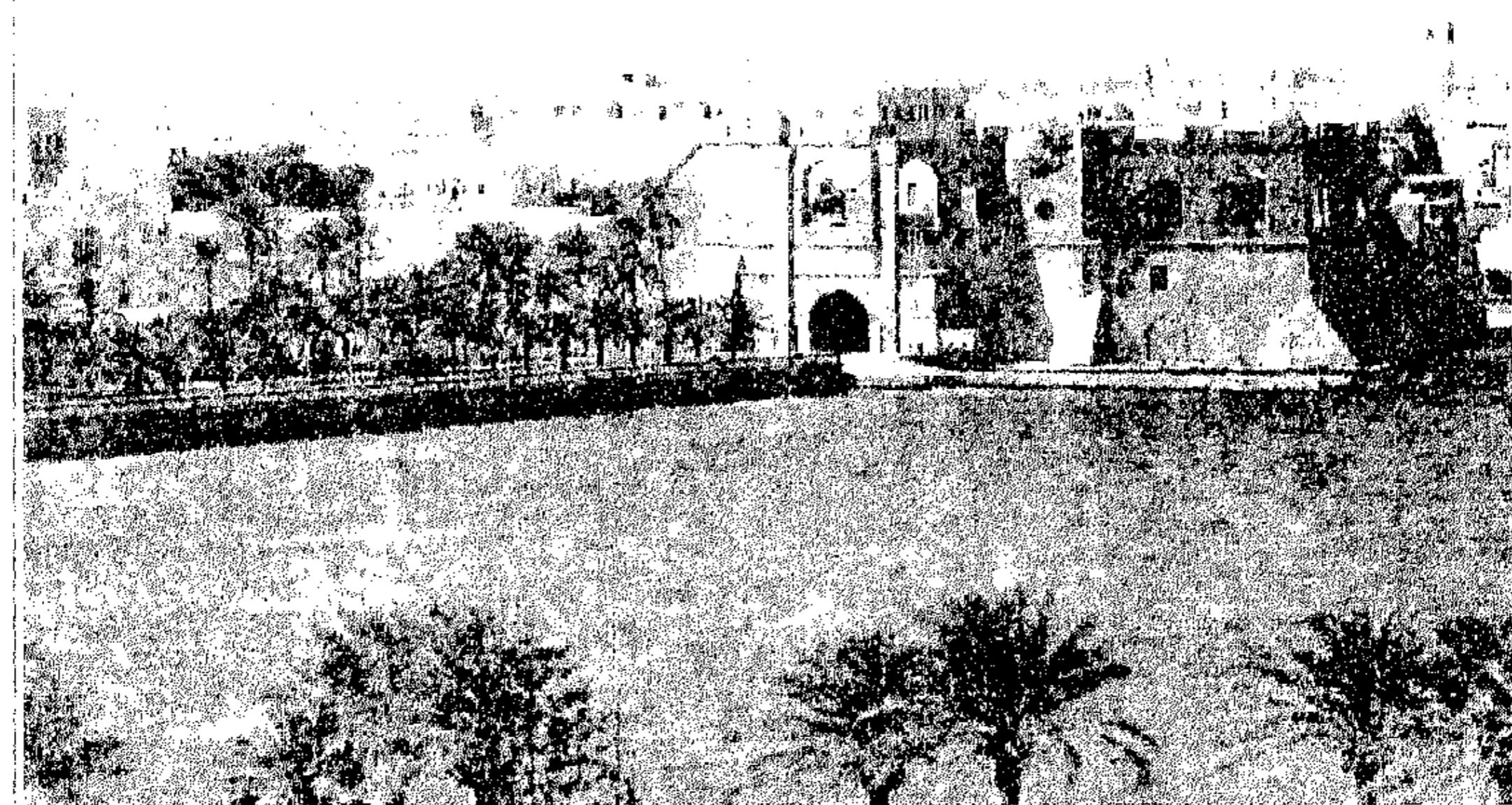
صورٌ ومشاهدٌ، تمثلُ المدينةَ القديمةَ
بطرابلسِ الغربِ التي ولدَ ونشأَ فيها
الفقيهُ أبو الحسن عليٌّ بنُ زيادِ الطرابلسيِّ،
وتتجسدُ جانباً من أجوائها.

١ - إطلالة مدينة طرابلس على شاطئ البحر.

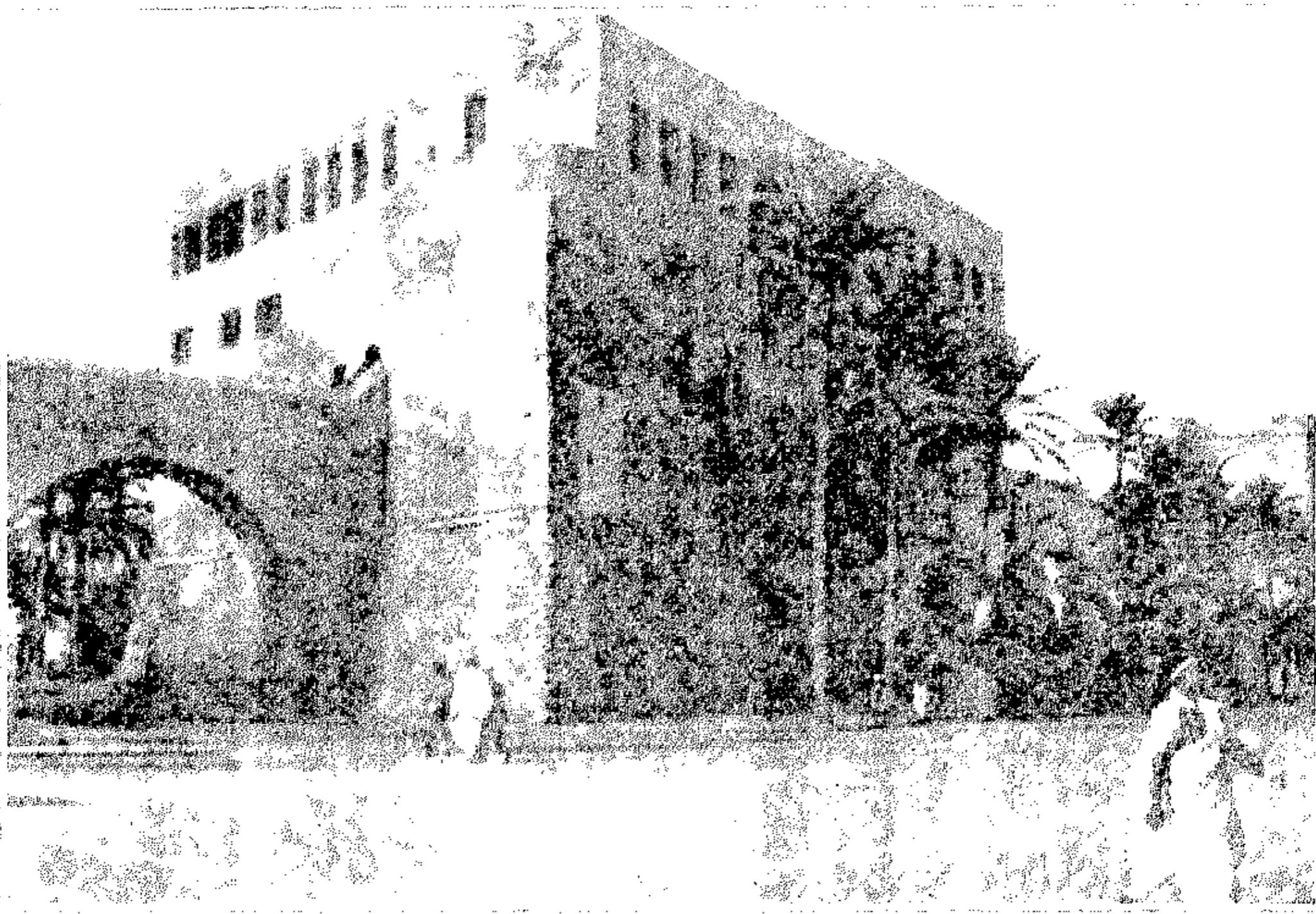




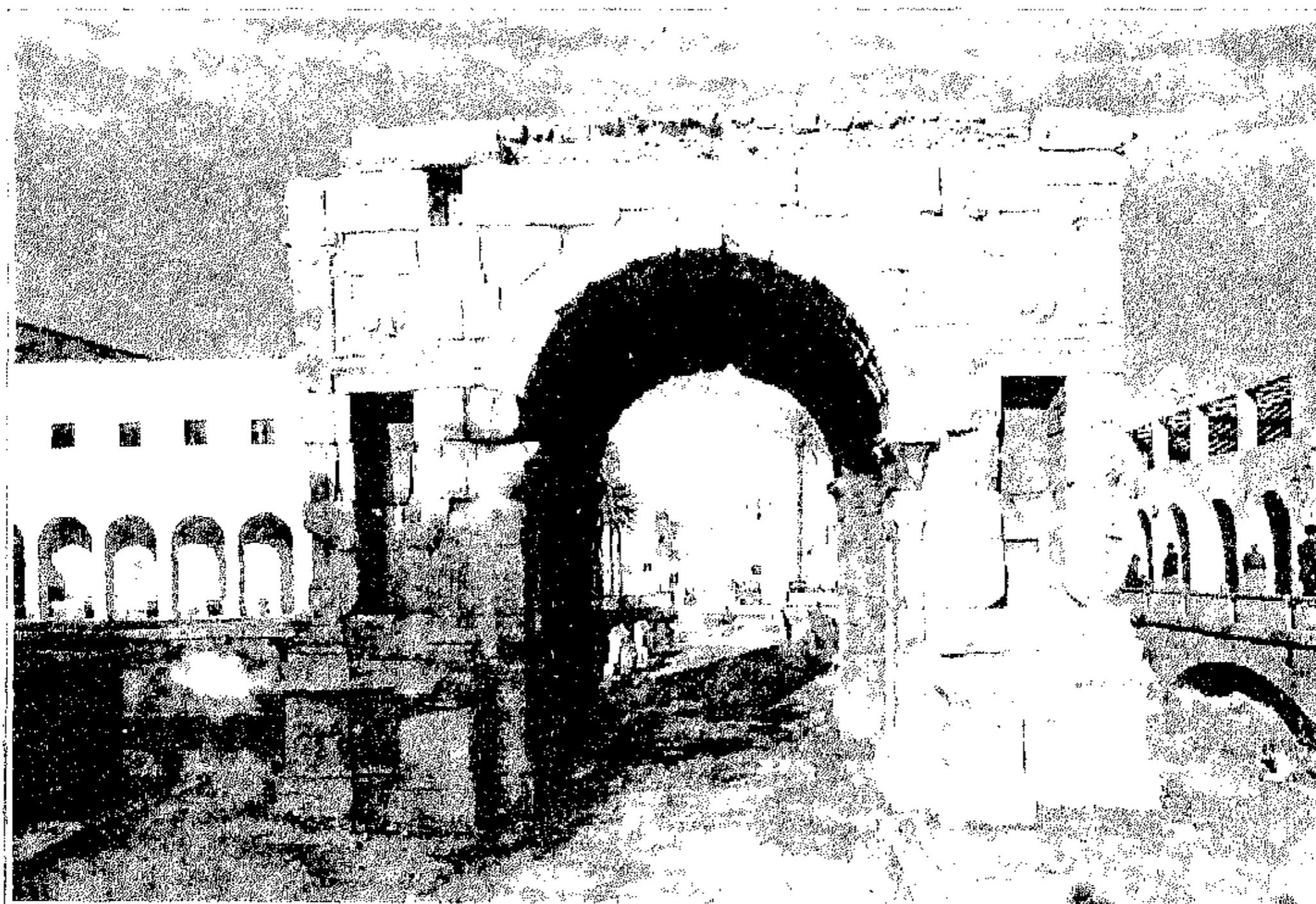
2 - مشهد قديم لمدينة طرابلس تشرف منه على الشاطئ.



3 - المشهد المتميز للمدينة يظهر السراي الحمراء والبحر.



4 - السرای الحمراء من الجهة الغربية.



5 - قوس مارکو أولیس المشید في مدينة طرابلس الغرب
قبل الفتح الإسلامي وقد شهده الفقيه علي بن زياد.



6 - أقواس في المدينة القديمة بطرابلس الغرب التي أنجحت الفقيه علي بن زياد الطرابلسي

7 - المدينة القديمة في طرابلس ويظهر فيها اللباس التقليدي المتوارد.





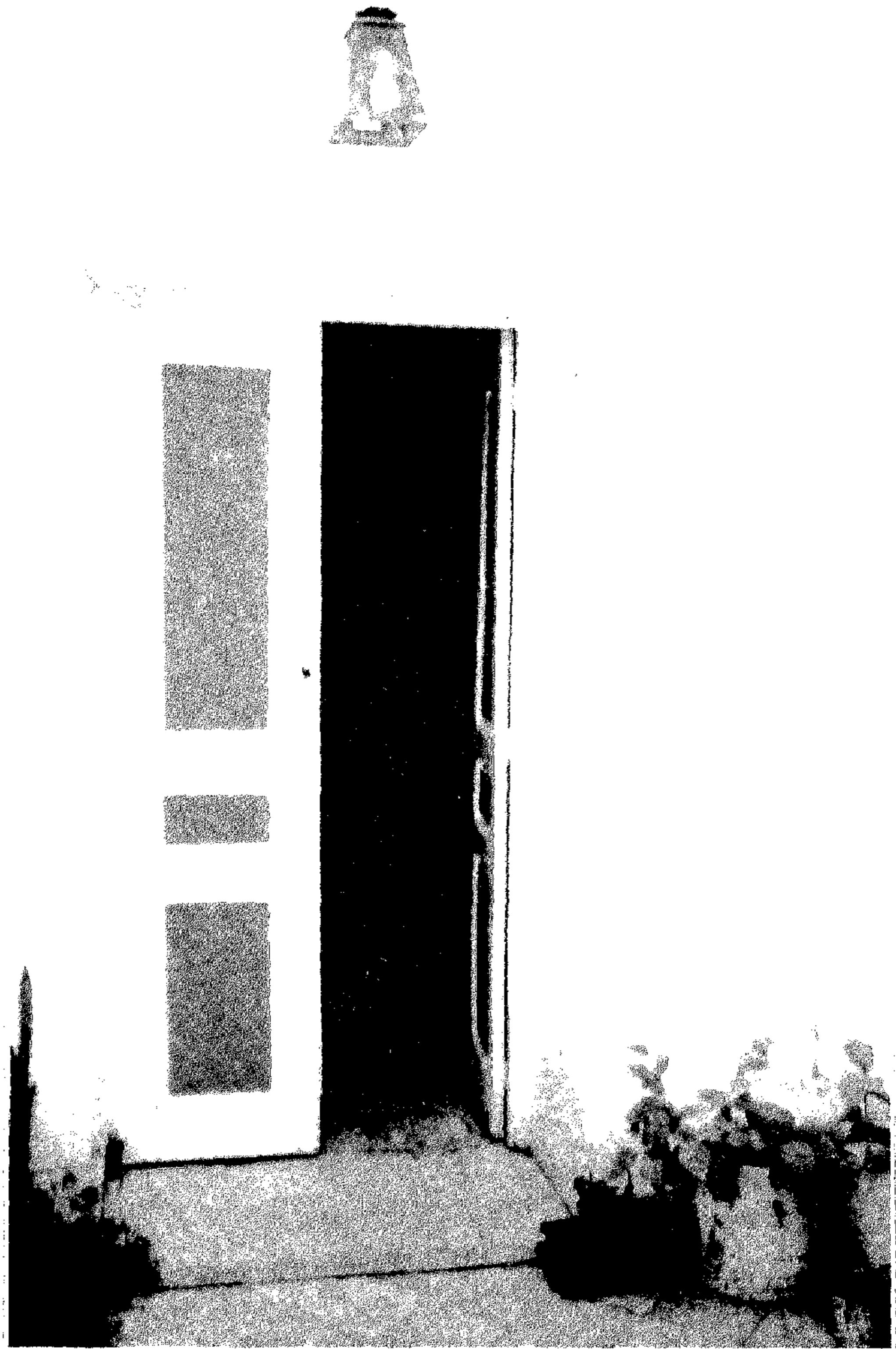
٨ - أحد أزقة المدينة القديمة بفنها المعماري الإسلامي .



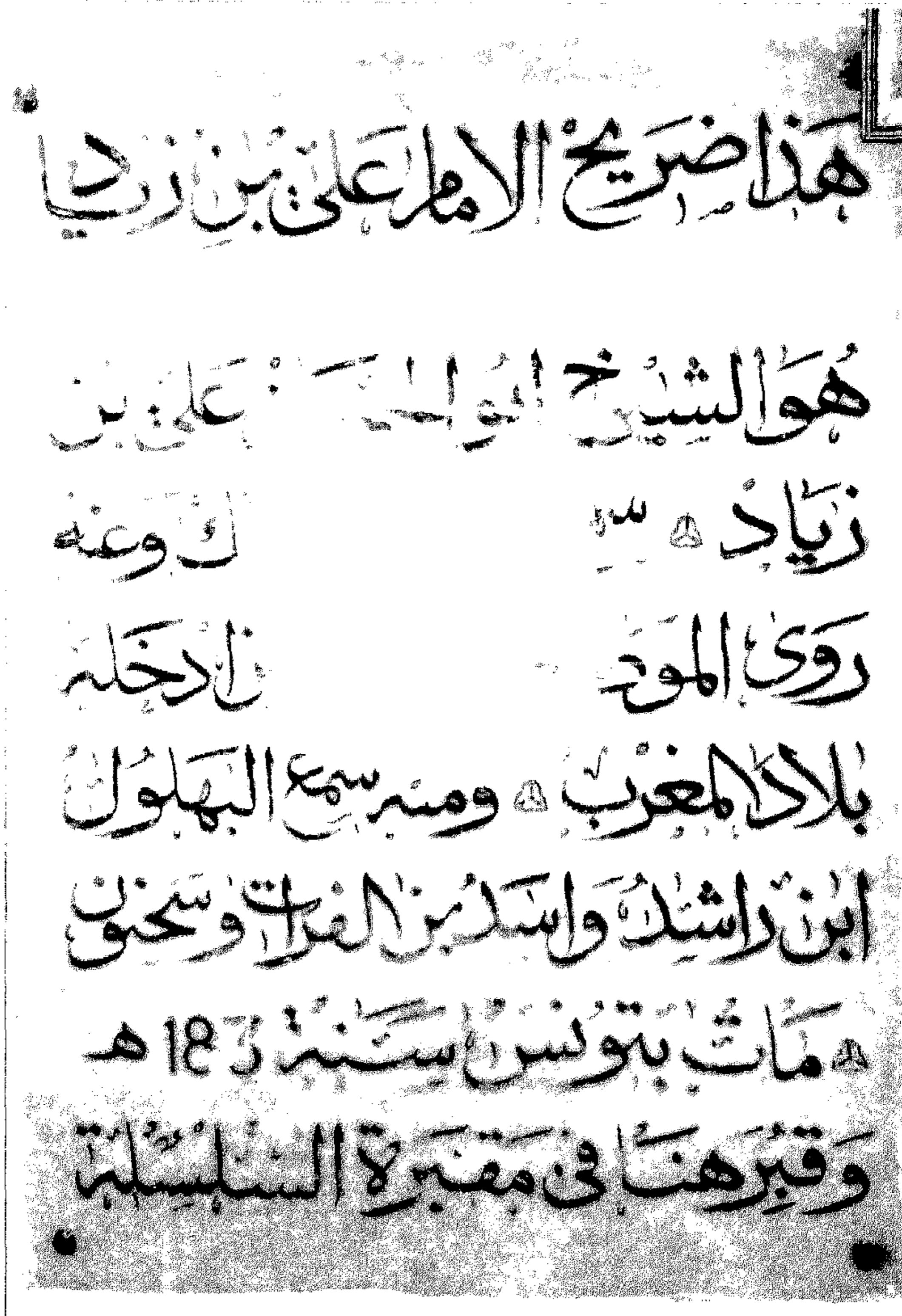
٩ - سوق المشير والساعة في طرابلس الغرب .

الملحق الثالث

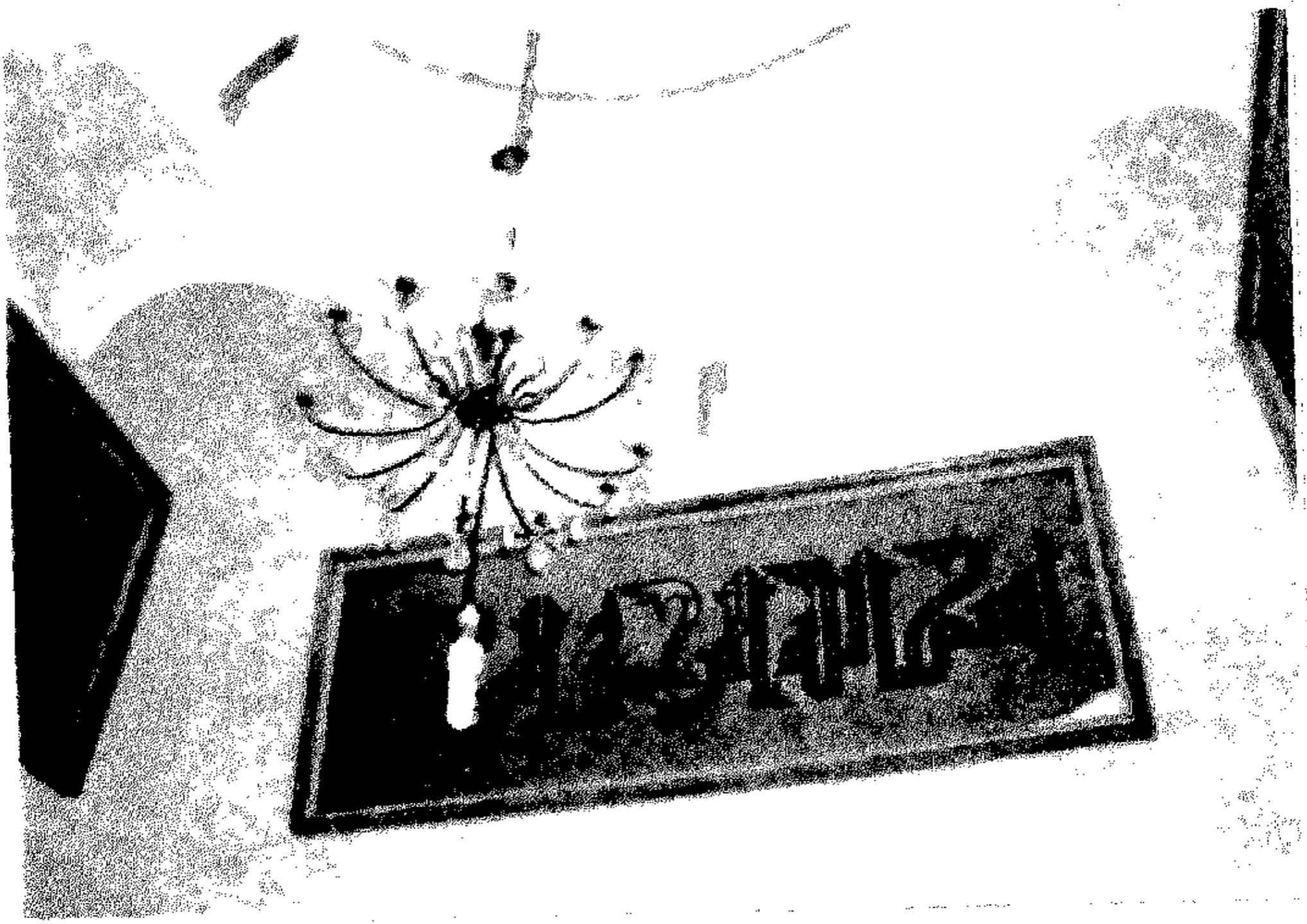
**مشاهد من ضريح
ابن زياد وقبره في مدينة تونس.**



10 - مدخل ضريح الفقيه علي بن زياد الطرابلسي في العاصمة التونسية



11 - اللوحة الجدارية تعرف بالفقيه علي بن زياد وتاريخ وفاته ودفنه في مقبرة السلسلة بتونس



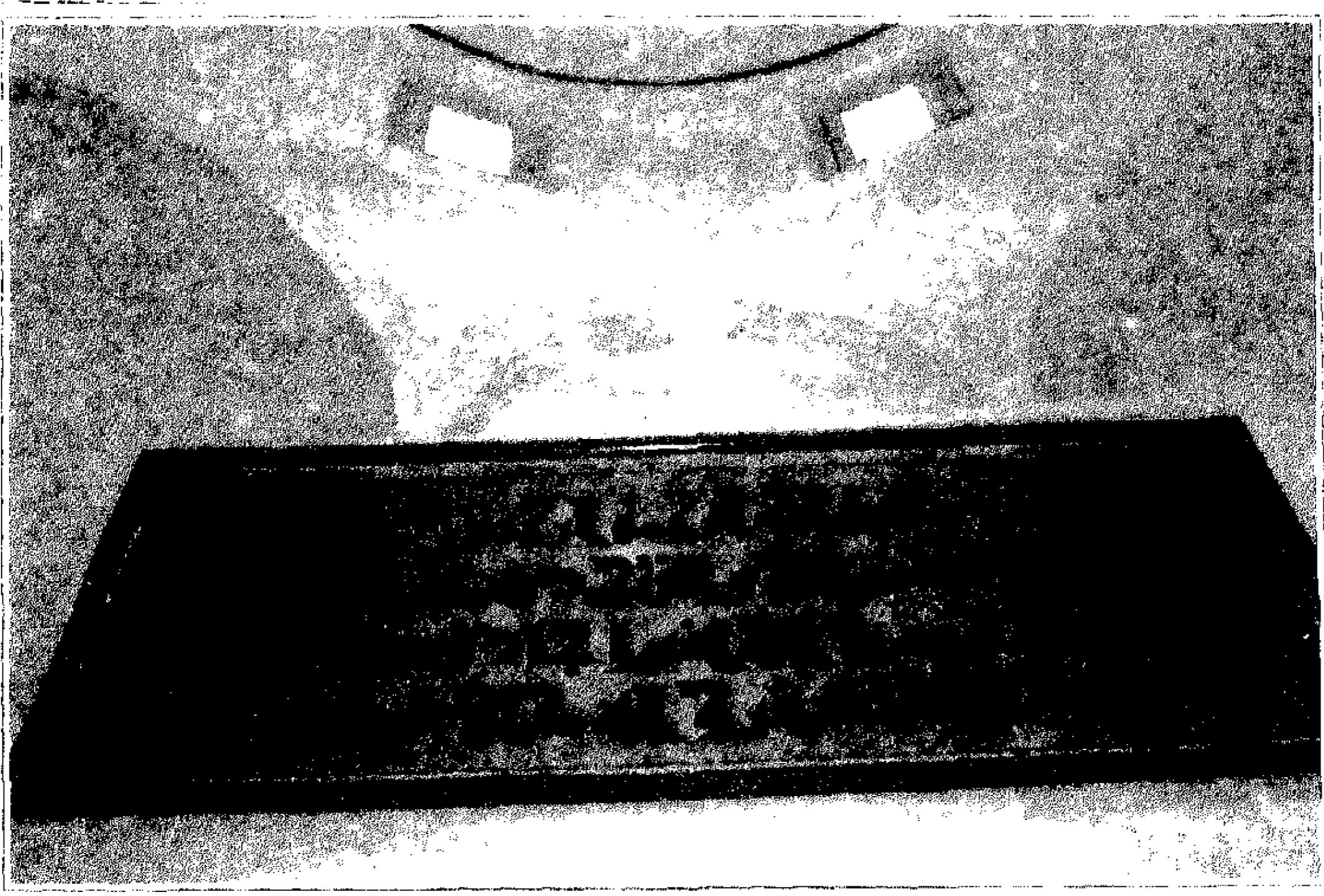
12 - لوحة جدارية بضریع الفقيه كتبت عليها «البسمة»



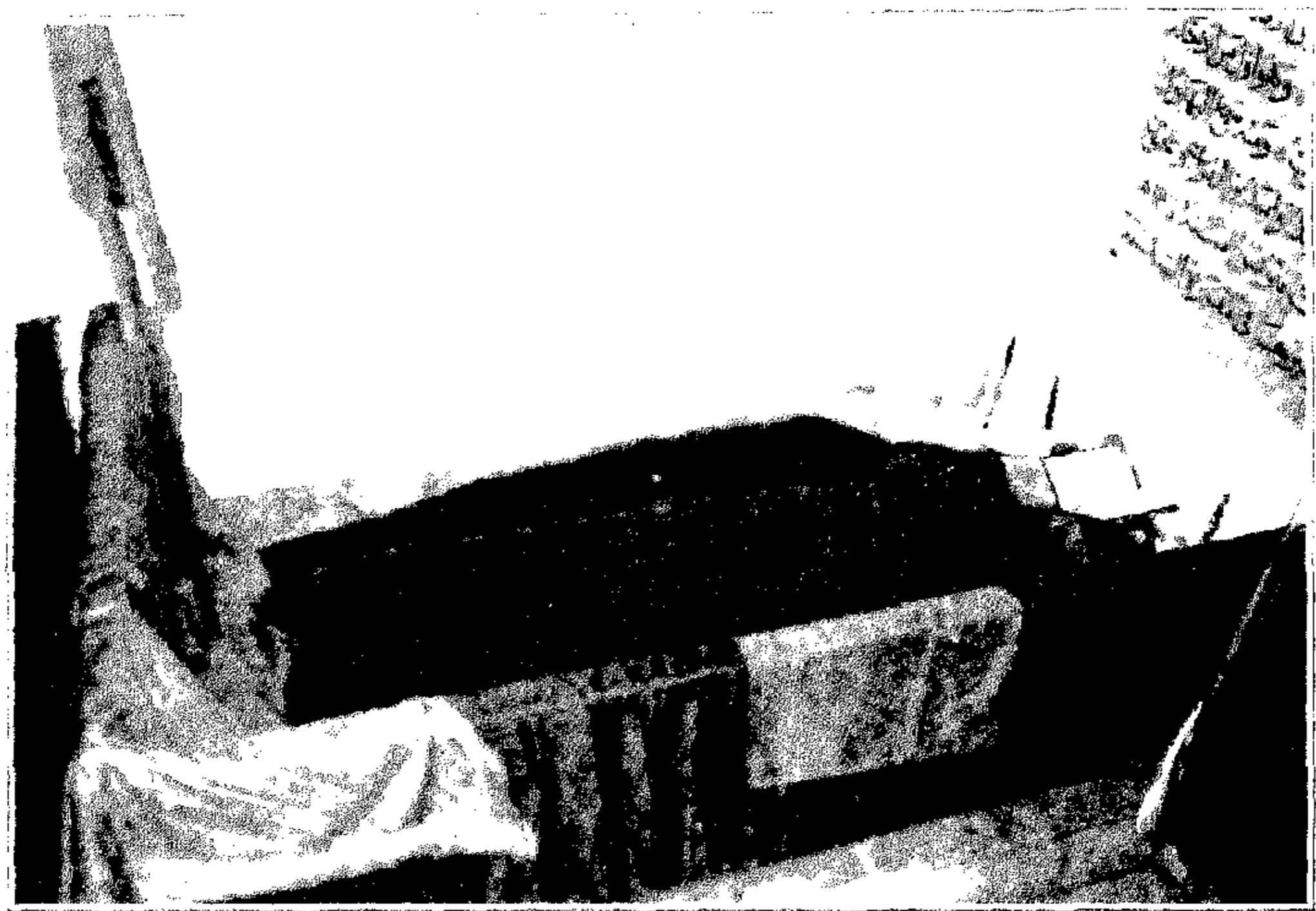
13 - لوحة جدارية بالضریع كتبت عليها سورة الإخلاص



14 - لوحة جدارية بالضریع كتبت عليها «البسمة» وآية من سورة «الفتح»



15 - لوحة جدارية في ضريح الشیخ الفقیہ علی بن زیاد الطرابلسي بتونس، كتب عليها سورۃ «النصر»



16 - ضريح الإمام الفقيه علي بن زياد الطرابلسي دفين تونس - رحمه الله تعالى

الفهارس والكشافات

- 1 - الآيات القرآنية الكريمة.
- 2 - الأحاديث النبوية الشريفة.
- 3 - فهرس الأشعار.
- 4 - الأعلام والقبائل.
- 5 - البلدان والمواضع.
- 6 - المصادر والمراجع.

1 - الآيات القرآنية الحكيمية

- 1 - «إِنَّ الَّذِينَ يَعْنَدُونَ اللَّهَ الْإِسْلَمَ» 19 آل عمران
 7
- 2 - «أَحِلَتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَمِ إِلَّا مَا يَنْهَا عَلَيْكُمْ غَيْرُ مُحْلِي الْقَصْيدَةِ وَأَنْتُمْ حُرُومٌ» 1 المائدة
 184
- 3 - «وَالسَّاجِدُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ» 100 التوبة
 85
- 4 - «وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَةً» 122 التوبة
 17
- 5 - «وَيَذَكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ تَعْلُمُونَ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَمِ» 28 الحج
 184
- 6 - «فَبَشِّرْ عِبَادَ ⑯ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَسْتَغْوِيُونَ أَخْسَنَهُ» 18 الزمر
 85
- 7 - «الَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَمَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ» 79 غافر
 184
- 8 - «يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكْرٍ وَأُنْثَى» 13 الحجرات
 32
- 9 - «الَّذِي عَلِمَ بِالْقَلْبِ ⑭ عَلِمَ أَلْإِنْسَنَ مَا لَزَمَ يَعْلَمُ» 4 ، 5 العلق
- 17

2 - الأحاديث النبوية الشريفة

- 1 - «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئلَ عَنِ الْحَقِيقَةِ، فَقَالَ: لَا أَحْبُّ الْعَقُوقَ، إِنَّمَا كَرِهُ
الْأَسْمَاءَ - مِنْ وَلَدِهِ وَلَدٌ؛ فَأَحْبَبَ أَنْ يَنْسِكَ عَنْ وَلَدِهِ؛ فَلَيَفْعُلُ»
177
- 2 - «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَىٰ عَنْ أَكْلِ لَحْوِ الْفَصَاحِيَا بَعْدَ ثَلَاثَةَ، ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: كُلُوا، وَتَزَوَّدُوا، وَادْخُرُوا»
177
- 3 - «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئلَ عَنْ شَاةٍ ذَبَحَهَا جَارِيَةٌ سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ؛ فَأَمْرَرَ بِأَكْلِهَا»
179
- 4 - «سُئلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَا يَأْتُونَا
بِلَحْمَانٍ؛ فَلَا نَدْرِي هُلْ تَسْمِوُ عَلَيْهِمَا أَمْ لَا، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
سَمِّوَا ثُمَّ كُلُوهَا»
179
- 5 - «سُئلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَاذَا يَتَقَىٰ مِنَ الْفَصَاحِيَا»
175
- 6 - «فَأَمْرَنِي أَنْ أَشْتَرِي لَهُ كِبِشاً فَحَلَّاً أَقْرَنَ»
176
- 7 - «فَأَمْرَهُ ﷺ أَنْ يَعُودَ بِضَحْيَةِ أَخْرَى»
176
- 8 - فَزَعَمَ «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمْرَهُ أَنْ يَعُودَ بِضَحْيَةِ أَخْرَى»
176
- 9 - «فَسُئلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ ذَلِكَ، فَقَالَ: لَيْسَ بِهَا بَأْسٌ فَكُلُوهَا»
179
- 10 - «مَنْ يَرِدَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يَفْقَهُهُ فِي الدِّينِ»
17

- 11 - «نحرنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية البدنة عن سعة والبقرة»
176
- 12 - «هو الطّهور ماؤه، الخلال متنه»
186
- 13 - «يُتقى من الضحايا والبدن التي لم تنس، والتي نقص من خلقها»
175
- 14 - «يوشك الناس أن تضرب أكباد الإبل في طلب العلم؛ فلا يجدون أعلم
أو أفقه من عالم المدينة»
83

3 – فهرس الأشعار

- | | | |
|----------------------------------|----|------------------------------------|
| ولو لا ضيق لأطربنا في ذكر مناقبه | 13 | 1 – قليل لا يفي بحقه البتة |
| على صفحات الماء وهو رفيع | 12 | 2 – تواضع تكن كالبدر لاح لنظر |
| وابكي إن سمعت لها حنينا | 25 | 3 – أحن إذا رأيت جمال قومي |
| مالم يروا عنده آثار إحسان | 12 | 4 – والناس أكيس من أن يمدحوا رجلاً |
| ولكن عين السخط تبدي المساواها | 11 | 5 – وعين الرضا عن كل عيب كليلة |

4 – الأعلام والقبائل

حرف الهمزة	أحمد بن يحيى : 72 ، 74 .
إبراهيم بن الأغلب : 14	أحمد بن يزيد المعلم : 164 .
إبراهيم بن المضاء : 163	أسد بن الفرات : 65 ، 95 ، 100 ، 104 ، 104 ، 141 ، 129 ، 128 ، 123 ، 113 ، 112 ، 157 ، 154 ، 150 ، 149 ، 148 ، 142 ، 171 ، 162 ، 158 .
إيليس : 106 ، 197 .	إسماعيل بن عبد الله (أبو المهاجر) : 39 .
أحمد باكير : 145 ، 66 .	ابن أشرس : 97 ، 100 ، 104 .
أحمد بن تميم القيرواني : 59 ، 70 ، 104 ، 106 ، 110 ، 113 ، 134 ، 151 ، 153 ، 155 .	الأمويون : 39 .
أحمد بن حنبل : 81 .	حرف الباء
أحمد بن خلكان : 155 .	بسير بن أرطأة : 35 ، 36 .
أحمد زروق البرنسى : 14 .	بشير بن صفوان : 39 .
أحمد بن أبي الضياف : 59 ، 61 ، 110 ، 111 .	ابن بكر : 155 .
أحمد بن عبد الله العجلبي : 14 .	البلخي : 134 .
أحمد بن قفند القسطنطيني : 111 – 110 .	البهلول بن راشد : 83 ، 99 ، 100 ، 105 ، 107 ، 108 ، 109 ، 110 ، 112 ، 141 ، 141 ، 154 ، 153 ، 152 ، 151 ، 148 ، 144 ، 171 ، 163 ، 161 ، 160 .
أحمد بن لبدة : 163 .	
أحمد بن مغیث : 163 .	
أحمد النائب الانصاري : 14 ، 19 ، 109 .	
أحمد بن وزان : 163 .	

خالد بن يزيد الفارسي : 99، 106.	حرف التاء
الخشني : 137، 140، 154، 156، 157، 169.	تمام بن تميم التميمي : 41.
خلف بن جرير بن فضالة : 123.	أبو تمام القاضي : 143.
خلفية محمد التلبيسي : 14.	ابن تيمية : 85، 122.
خير الدين الزركلي : 62، 108، 109، 111.	حرف الجيم
حرف الدال	جبلة بن حمود : 70.
أبو داود العطار : 161، 162.	جعفر بن أبي طالب : 161.
ابن دراج : 97، 152، 153، 160.	أبو جعفر بن قطويه : 106.
أبو درار إسماعيل بن درار : 45، 80.	جعفر بن محمد عياض : 163.
حرف الراء	أبو جعفر المنصور : 41، 161، 162.
رياح بن يزيد : 162.	حرف الحاء
الرصاص : 154.	أبو حاتم الرازي : 122.
روح بن حاتم بن قبيض : 41، 102، 105.	ابن العمارث : 134.
رويفع بن ثايث الانصاري : 97.	الحافظ الذهبي : 81، 104، 113، 137.
حرف الرزي	الحبيب الجنحاني : 171.
زهير بن قيس : 38.	حبيب بن سعيد التنوخي : 130.
زياد بن عبد الرحمن : 83.	حسان بن النعمان : 38.
حرف السين	حسن بن أحمد : 127.
سحنون بن سعيد : 19، 30، 44، 46، 47، 48، 56، 64، 65، 67، 68، 70، 71، 76، 104، 107، 108، 109، 127، 128، 129، 130، 134، 142، 148، 151، 152، 153، 154، 155، 156، 157، 158، 159، 160، 161، 163، 164، 168.	حسن حسني عبد الوهاب : 63، 60، 57، 137، 125، 124، 111، 110، 95، 64، 157.
سعيد بن إسحاق : 110.	أبو الحسن بن أبي طالب القيرواني : 130.
سعيد بن عبدوس : 83.	حسن بن زيارات : 129.
سعيد بن عياد السرتى : 163.	الخطاب الجد والابن والحفيد : 14.
	حمدليس القطان : 159، 163.
	أبو حنيفة النعمان : 123، 150.
	حرف الخاء
	خالد بن أبي عمران : 44، 48، 75، 76، 80، 81، 82، 83، 93، 98، 144، 167.

- سعید بن هند: 83.
- أبو سعید بن یونس: 90، 124، 156.
- أبو سلیمان الطرابلسی: 46، 68.
- سفیان الثوری: 18، 49، 88، 90، 97، 99، 100، 104، 113، 124، 135، 151، 153، 169.
- سفیان بن سعید بن مسروق: 89.
- سلیمان البارونی: 12.
- سلیمان بن سالم التونسی: 30، 40، 74، 168.
- سمی الخطیفی: 38.
- حروف الشین**
- الشافعی: 124.
- شجرة بن عیسی: 100، 123، 160، 171.
- شرحبیل (قاضی طرابلس الغرب): 56، 64، 65، 67، 93.
- ابن شعبان: 57.
- شيخ المغرب: 19.
- حروف الصاد**
- الصدیق بشیر نصر: 11، 14، 25.
- صلاح الدین الصدفانی: 19، 56، 58، 59، 60، 111، 113.
- الصید محمد أبو دیب: 21، 66، 108، 109.
- حروف الطاء**
- الطاہر أحمد الزاوی: 14، 57، 65، 104، 110.
- ابن طولون: 48.
- حروف العین**
- عاصم: 127.
- Abbas al-Jarari: 150، 156، 157.
- العباسیون: 39، 41.
- عبس: 72، 57.
- عبد الجبار بن خالد بن عمران: 76، 163.
- عبد الحمید عبد الله الهرامة: 14.
- عبد الرحمن البوصیری: 14.
- عبد الرحمن الدباغ (أبو زید): 19، 63، 156.
- عبد الرحیم بن أشرس: 83، 130، 144.
- عبد السلام بن عثمان التاجوري: 14.
- عبد العزیز بن یحیی: 123.
- عبد اللطیف البرغوثی: 109.
- عبد الله بن أبي حسان: 143.
- عبد الله بن الجبھاب: 39، 40، 97.
- عبد الله بن أبي سرح: 38.
- عبد الله بن سعد: 37.
- عبد الله بن سهل القبریانی: 162.
- عبد الله بن عمر بن غانم: 41، 83، 144، 153.
- عبد الله بن عمر القیروانی: 123.
- عبد الله بن فروج: 83، 143، 144.
- عبد الله بن المبارک: 12.
- عبد المجید ترکی: 126.
- عبد الملک بن أبي کریمة: 104.
- ابن عبدالوس: 164.
- ابن عذاری: 36، 102.
- عثمان بن عفان: 37.
- عقبة بن الحجاج السلوی: 40.
- عقبة بن قدامة: 39.
- عقبة بن النافع: 35، 38، 139.

حرف الكاف

ابن كنانة: 65، 95، 128، 129.

حرف اللام

ابن لهيعة: 18، 49، 81، 82، 90، 94، 160.

الليث بن سعد: 18، 49، 80، 81، 82، 83، 55، 90، 94، 104، 113، 160، 169.

حرف الميم

ابن ماكولا: 110.

مالك بن أنس: 13، 18، 19، 45، 46، 47، 83، 82، 81، 76، 68، 66، 49، 47، 99، 95، 90، 88، 87، 86، 85، 84، 118، 117، 113، 104، 103، 100، 135، 133، 128، 124، 123، 122، 151، 150، 146، 145، 137، 136، 160، 158، 157، 156، 154، 153، 161.

مالك بن دينار: 71.

أبو محرز: 106، 107، 143.

محمد بن إبراهيم الكتاني: 122.

محمد أبو دينة: 60، 62، 112.

محمد أبو زهرة: 137.

محمد بن إدريس الشافعي: 81، 84، 122.

محمد الأنصاري: 100.

أبو محمد التجاني: 59، 60، 63، 72.

محمد بن حارث الخشنبي: 59.

محمد بن الحسن الشيباني: 123، 150.

محمد الحكيمي: 25.

محمد بن خالد: 106.

عكاشة بن أبي الغزارى: 40.

علي الجارم: 13.

علي بن زياد الاسكندرانى: 68.

علي مصطفى المصراتي: 14.

عمار محمد جحيدر: 14.

عمر بن حفص بن أبي صفرة: 101.

عمر بن الخطاب (ال الخليفة): 29، 30، 37.

عمر رضا: 62.

عمر بن عبد العزيز: 39، 40، 43، 44.

عمر بن يزيد: 163.

عمرو بن العاص: 29، 35، 36.

أبو عياش موسى: 151.

عياض السبتي: 19، 47، 48، 57، 59، 123، 101، 93، 82، 68، 64، 60، 154، 152، 147، 140، 137، 124، 160، 158.

حرف الغين

الغازي بن قيس: 89.

ابن غلبون: 14.

حرف الفاء

فؤاد سزكين: 62، 63، 109.

ابن الفرضي: 14.

الفضل بن روح بن حاتم: 41.

الفضل بن عياض: 71.

حرف القاف

قاسم علي سعد: 110، 125.

ابن القاسم: 156، 157، 158.

ابن العاطن: 158.

أبو القاسم محمد كرو: 66، 125، 126.

القطان: 123.

- مُصطفى بن زكْريٰ: 12.
- مُصطفى صادق الرافعِي: 13، 14.
- أبو مصعب: 123.
- مطروح بن قيس الخياط: 163.
- معاوية بن خديج: 38.
- معقب بن رياح: 163.
- موسى القطان: 50، 88.
- موسى بن معاوية: 100، 101، 102، 103، 104، 105، 106، 107، 108، 109، 110، 111، 112، 113، 114، 115، 116، 117، 118، 119، 120، 121، 122، 123، 124، 125، 126، 127، 128، 129، 130، 131، 132، 133، 134، 135، 136، 137، 138، 139، 140، 141، 142، 143، 144، 145، 146، 147، 148، 149، 150، 151، 152، 153، 154، 155، 156، 157، 158، 159، 160، 161، 162، 163، 164، 165، 166، 167، 168، 169، 170، 171.
- موسى بن نصیر: 38.
- أبو ميسرة: 97.
- ميكلوس موراني: 162.
- حرف النون**
- ابن ناجي: 63، 157.
- نافع: 87، 127، 137، 171.
- نصر بن حبيب المهلبي: 41.
- حرف الهاء**
- هارون الرشيد: 14، 102.
- هاشم قريشه: 60، 62، 144، 164.
- هرثمة بن أعين: 41.
- أبو هريرة: 83.
- هشام بن عبد الملك: 39، 40.
- هند شلبي: 161.
- أبو الهيثم خالد الفارسي: 52، 160، 161.
- حرف الواو**
- ورش (عثمان بن سعيد): 87، 137، 171.
- ابن وضاح: 163.
- ابن وهب: 157.
- حرف الياء**
- أبو يوسف: 150.
- محمد بن ربيعة الطرايلسي: 46، 168.
- محمد بن زرقون: 163.
- محمد بن سحنون: 30، 163.
- محمد الشاذلي النيفر: 20، 21، 24، 40، 57، 76، 75، 68، 65، 61، 60، 58.
- معقب بن رياح: 77، 125، 111، 110، 98، 81، 79.
- موسى العلَمي: 50، 88.
- محمد بن شوال الطائي: 163.
- محمد بن صالح: 86.
- محمد عبد الغني الباحظني: 62، 63.
- محمد عبد المنعم خفاجي: 76.
- محمد العنابي: 67، 97.
- محمد الفاضل ابن عاشور: 21، 43، 57، 66، 94، 95، 110، 126، 129، 137، 157، 156، 150، 144، 143، 141، 158.
- محمد القيروانى: 63.
- محمد كامل بن مصطفى: 14.
- محمد محفوظ: 64.
- محمد مخلوف: 59، 124، 111، 61، 142.
- محمد مسعود جبران: 11، 12، 13، 14، 26.
- محمد بن مقاتل العكي: 41، 102.
- محمد بن يزيد: 154.
- محمود تيمور: 13، 14.
- محمود شاكر: 13.
- ابن المدنى: 83.

5 – البلدان والمواقع

حرف الهمزة	
إجدابية: 63.	
أريا: 31.	
إسبانيا: 31.	
الإسكندرية: 35.	
إفريقية: 56، 151، 155، 158، 161، 162، 168، 169، 170، 171، 172.	. 169.
الأندلس: 19، 40، 50، 70، 83، 59.	
الأندلس: 19، 40، 50، 70، 83، 59.	. 147.
حرف الباء	
البصرة: 45.	
بغداد: 89.	
بنغازي: 29.	
حرف التاء	
تونس: 13، 18، 25، 29، 31، 37، 39، 40، 41، 43، 44، 48، 49، 50.	
رحبة بني دراج: 152، 153، 160.	64، 63، 60، 59، 58، 56، 55، 53
الروم: 31، 36.	79، 75، 74، 73، 69، 67، 66، 65
حرف الراء	
حرفة بنى دراج: 152، 153، 160.	
الروم: 31، 36.	
حرف الجيم	
الجزائر: 19، 70.	
جمعية الدعوة الإسلامية: 25.	
حرف الحاء	
حبلة: 127.	
الحجاز: 40، 45، 63، 89، 169، 170.	
الحرمان الشريفان: 79، 80، 81.	
حمص: 154.	

حرف العين	حرف الزاي
العراق: 40، 45، 49، 63، 79، 80، 81، 170، 169، 150، 113، 105، 89، 88	. 67
حرف الغين	حرف السين
غدامس: 45، 80	سرت: 31، 76 سوريا: 30، 31
حرف القاف	حرف الشين
قزان: 29، 31 قسطنطينة: 67	الشام: 154 شرواس: 29، 37 شيراز: 154، 156
القيروان: 50، 71، 75، 97، 98، 99، 149، 147، 145، 142، 139، 106 . 172، 170، 159، 155، 151	حروف الصد
حرف اللام	صبرة: 37 চচلية: 149، 150، 171
لبدة: 31	حرف الطاء
ليبيا: 14، 22، 23، 25، 30، 31، 31، 65، . 66	طرابلس الشام: 29، 30، 48، 65، 68 طرابلس الغرب: 13، 14، 17، 18، 19، 35، 32، 31، 30، 29، 24، 23، 22
حرف الميم	
المدينة المنورة: 46، 47، 49، 83، 84، 150، 133، 124، 122، 121، 89، 87 . 171، 169، 168، 156	، 46، 45، 44، 43، 41، 40، 37، 36 ، 58، 56، 55، 53، 50، 49، 48، 47 ، 68، 67، 66، 65، 64، 63، 62، 59
مصر: 39، 40، 45، 47 و 49، 49، 71، 165، 159، 155، 151، 149، 147 . 172، 170، 169، 168	، 77، 75، 74، 73، 72، 71، 70، 69 ، 96، 94، 93، 90، 89، 87، 80، 78 ، 141، 136، 118، 108، 102، 101
معهد أحمد باشا: 62	، 168، 167، 166، 165، 160، 159
المغرب: 19، 62، 70	. 171، 170، 169
مكة: 46، 47، 81، 89.	طنجة: 67
حرف الواو	طيبة: 86، 81
وادي أبي كريب: 105.	

6 - المصادر والمراجع

- 1 - الأئمة الأربع، د. أحمد الشريachi، مصر، دار الهلال.
- 2 - الإباضية في موكب التاريخ، علي يحيى معمر، مصر، مكتبة وهبة.
- 3 - إتحاف أهل الزمان بأخبار تونس وعهد الأمان، أحمد بن أبي الضياف، تونس، الدار التونسية للنشر، 1990.
- 4 - اصطلاح المذهب عند المالكية، د. محمد إبراهيم علي، دولة الإمارات المتحدة، دار البحوث الإسلامية، 2002.
- 5 - الأصول التي اشتهر انفراد إمام دار الهجرة بها، د. فاتح محمد زقلام، ليبيا، كلية الدعوة الإسلامية، 1996.
- 6 - أصول الفقه الإسلامي، محمد مصطفى الزحيلي، سوريا جامعة دمشق، 1987 - 1407.
- 7 - الأعلام، خير الدين الزركلي، بيروت، دار العلم للملايين، 1980.
- 8 - أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي، محمد الفاصل ابن عاشور، تونس، مكتبة النجاح، لات.

- 9 - أعلام ليبيا، الطاهر أحمد الزاوي، ليبيا - بيروت ، دار المدار الإسلامي، 2004 أعمال المؤتمر الأول للوثائق والمخوطات في ليبيا وقف على نشرها وقدّم لها أ. عمار محمد جحيدر، ليبيا، مركز جهاد الليبيين، 1992.
- 10 - أعمال ندوة التواصل الثقافي بين أقطار المغرب العربي، مجموعة من الباحثين، إعداد د. عبد الحميد الهرامة، ليبيا، كلية الدعوة الإسلامية، 1995.
- 11 - الإكمال في رفع الارتباط، عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب ابن ماكولا، لبنان، مؤسسة التاريخ العربي - لات.
- 12 - ألف سنة من الوفيات، ابن قنف ولونشريسي وابن القاضي، تحقيق د. محمد حجي الرباط، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1976.
- 13 - البين المغرب في أخبار المغرب، ابن عذاري المراكشي، تحقيق: دوزي، برييل ليدن 1849 – 1858 .
- 14 - تاريخ الإسلام، شمس الدين الذهبي، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، بيروت ، دار الكتاب العربي ، 2000
- 15 - تاريخ إفريقيا والمغرب، ابن الرقيق القيرواني، تحقيق المنجي الكعبي، تونس ، 1967 .
- 16 - تاريخ التراث العربي ، فؤاد سركيس ، نقله إلى العربية د. محمود حجازي ود. فهمي أبو الفضل ، مصر ، الهيئة المصرية للكتاب ، 1967 .
- 17 - تاريخ الخلفاء الراشدين (عمر بن الخطاب) ، د. علي محمد الصلاibi ، دمشق بيروت ، دار ابن كثير .

- 18 - تاريخ صقلية، د. عزيز أحمد، تر. د. أمين توفيق الطيبى، تونس، ليبيا، الدار العربية 1980.
- 19 - تاريخ الفتح العربي في ليبيا، الطاهر أحمد الزاوي، القاهرة، دار المعارف بمصر، 1963.
- 20 - تاريخ ليبيا الإسلامي، د. عبد اللطيف البرغوثي، ليبيا، الجامعة الليبية، 1393.
- 21 - تاريخ المغرب العربي، محمد علي دبوز، مصر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1384 - 1964.
- 22 - تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، د. السيد عبد العزيز سالم، مصر، مؤسسة شباب الجامعة.
- 23 - تراثم أغلبية، القاضي عياض، تحقيق. محمد الطالبي، تونس، الجامعة التونسية، 1968.
- 24 - تراثم المؤلفين التونسيين، محمد محفوظ، لبنان، دار الغرب الإسلامي 1404 - 1984.
- 25 - ترتيب المدارك وتقرير المسالك، القاضي عياض السبتي، تحقيق لجنة، المغرب الأقصى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، لا ت.
- 26 - التصاريف، يحيى بن سلام، تحقيق هند شلبي، تونس، الشركة التونسية للتوزيع 1979.
- 27 - تطور المذهب المالكي في الغرب الإسلامي حتى نهاية العصر المرابطي، د. محمد حسن شرحيلي، المغرب، وزارة الأوقاف، 1421.

- 28 - تكميل الصلحاء والأعيان لمعالم الإيمان في أولياء القيروان، محمد بن صالح الكتاني، تحقيق محمد العنابي، تونس المكتبة العتيقة، 1970.
- 29 - تونس وجامع الزيتونة، محمد الخضر حسين، تحقيق علي الرضا التونسي، دمشق المطبعة التعاونية، 1391 - 1971.
- 30 - جمهرة تراجم الفقهاء المالكية، د. قاسم علي سعد، دولة الإمارات العربية، دار البحوث الإسلامية بدبي، 1423 - 2002.
- 31 - الحلل السنديمة في الأخبار التونسية، محمد بن محمد الأندلسبي، الوزير السراج، تحقيق د. محمد الحبيب الهيلة، تونس، الدار التونسية للنشر، 1970.
- 32 - خلاصة تاريخ تونس، حسن حسني عبد الوهاب، تونس، الدار التونسية للنشر، 1968.
- 33 - دراسات عن الإباضية، د. عمر خليفة، تر. ميخائيل خوري، لبنان، دار الغرب الإسلامي، 2001.
- 34 - دراسات في التاريخ والتراث، أبو القاسم محمد كرو، تونس، دار المعارف، 1990.
- 35 - دراسات في مصادر الفقه المالكي، ميكلوس موراني، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1988.
- 36 - الدولة الأموية، د. علي محمد الصلايبي، لبنان، دار المعرفة، 1426 - 2005.

- 37 - الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، برهان الدين بن فردون، لبنان، دار الكتب العلمية.
- 38 - رحلة التجانی، أبو محمد التجانی، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، تونس - المطبعة الرسمية 1378 - 1958 .
- 39 - رياض النفوس، أبو بكر المالکي، تحقيق بشير البکوش، لبنان، دار الغرب الإسلامي ، 1983 .
- 40 - سفيان الثوری، أمیر المؤمنین في الحديث عبد الغنی الدقر، دمشق، دار القلم ، 1994 .
- 41 - صحة أصول أهل المدينة، أحمد بن تیمیة .
- 42 - شجرة النور الزکیة، محمد مخلوف، لبنان، دار الفكر، لات.
- 43 - طبقات علماء إفريقيا، محمد الخشنی، تحقيق محمد زینهم، القاهرة، مكتبة مدبولي 1993 .
- 44 - طبقات علماء إفريقيا وتونس، أبو العرب القیروانی، تحقيق علي الشابی ونعیم الیافی ، تونس الدار التونسية ، 1968 .
- 45 - طبقات الفقهاء، أبو إسحاق الشیرازی، تحقيق خلیل المیس، لبنان، دار القلم .
- 46 - العبر وديوان المبتدأ والخبر، عبد الرحمن بن خلدون، بيروت، دار الكتاب، 1967 .
- 47 - عمل أهل المدينة بين مصطلحات مالك وآراء الأصوليين، أحمد محمد نور سيف، الإمارات العربية المتحدة، دار البحث للدراسات الإسلامية، 2002 - 1423 .

- 48 - عنوان الأريب عما نشأ بالبلاد التونسية من عالم أديب، محمد النifer، تذيل علي النifer، لبنان، دار الغرب الإسلامي، 1996.
- 49 - فتوح مصر وأخبارها، ابن عبد الحكم، مصر، دار التعاون، 1968 - 1974.
- 50 - فهرست الرصاع، محمد الأنصارى، تحقيق محمد العنابي، تونس، المكتبة العتيقة، 1967.
- 51 - قطعة من موطن ابن زياد، علي بن زياد، تحقيق محمد الشاذلي النifer، تونس، مركز البحث.
- 52 - الكافي الوافي في أصول الفقه الإسلامي، مصطفى سعيد الحسن، لبنان، مؤسسة الرسالة، 2000.
- 53 - كتاب العمر في المصتفات والمؤلفين التونسيين، حسن حسني عبد الوهاب، لبنان، دار الغرب الإسلامي، 1990. كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، أحمد بابا التنبكتي، تحقيق محمد مطيع، المغرب، وزارة الأوقاف، 2000.
- 54 - لسان الميزان، ابن حجر العسقلاني، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1971.
- 55 - ليبيا في كتب الجغرافية والرحلات، د. إحسان عباس، لبنان.
- 56 - ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة إلى مصر، صالح مفتاح، ليبيا، الشركة العامة للنشر، لات.
- 57 - المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس، محمد بن أبي القاسم الرعيني، لبنان، دار المسيرة، 1993.

- 58 - مالك (حياته وعصره - آراؤه وفقهه)، محمد أبو زهرة، مصر، دار الفكر العربي ، 1964 .
- 59 - مجلل تاريخ الأدب التونسي، حسن حسني عبد الوهاب، تونس، مكتبة المنار ، 1968 .
- 60 - مجموع فتاوى ابن تيمية، أحمد بن تيمية .
- 61 - المحاضرات المغribيات، محمد الفاضل ابن عاشور، تونس، الدار التونسية ، للنشر 1974 .
- 62 - مدخل إلى أصول الفقه المالكي، د. محمد المختار ولد أباه، تونس، ليبيا، الدار العربية للكتاب ، 1987 .
- 63 - المدخل إلى دراسة المذاهب الفقهية، د. علي جمعة محمد، مصر، مطبعة دار السلام ، 1424 - 2004 .
- 64 - المدرسة البغدادية للمذهب المالكي، د. محمد العلمي، الإمارات العربية المتحدة، دبي ، دار البحوث للدراسات الإسلامية ، 1424 - 2003 .
- 65 - مشاهير التونسيين، محمد بو دينة، تونس، منشورات بودينة ، 2001 .
- 66 - معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، عبد الرحمن الدباغ، مصر، مكتبة الخانجي ، 1968 .
- 67 - ملتقى الإمام محمد بن عرفة، مجموعة من الباحثين، تونس وزارة الشؤون الثقافية 1977 .
- 68 - معالم الحضارة الإسلامية في ليبيا، باحثون جامعيون، ليبيا، المغرب، الايسسكو وأمانة الثقافة بليبيا ، 2007 .

- 69 - معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، لبنان، دار إحياء التراث، لات.
- 70 - المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، أحمد النائب الأنصاري، طرابلس الغرب، مكتبة الفرجاني، لات.
- 71 - مواهب الجليل على مختصر خليل، محمد بن محمد الطرابلسي.
- 72 - موسوعة أعلام العلماء والأدباء المسلمين، مجموعة من الباحثين، الالكسو - بيروت، دار الجيل، 2006.
- 73 - موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها، د. شاكر مصطفى، لبنان، دار العلم للملائين، 1993.
- 74 - موطأ مالك بن أنس، اعتنى به محمود بن الجميل، مصر، مكتبة الصفا، 1427 - 2006.
- 75 - ندوة الإمام مالك (3ج)، عدد من الباحثين، المغرب، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية 1400 / 1980.
- 76 - نفحات النسرين والريحان، أحمد النائب الأنصاري، تحقيق علي مصطفى المصراتي، لبنان.
- 77 - نيل الابتهاج، أحمد بابا التشكيلي، إشراف د. عبد الحميد الهرامة، ليبيا، كلية الدعوة الإسلامية.
- 78 - هدية العارفين، إسماعيل البغدادي - استانبول.
- 79 - الوافي بالوفيات، صلاح الدين الصفدي، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، لبنان، دار إحياء التراث العربي، 1420 - 2000.
- 80 - ورقات عن الحضارة العربية بأفريقيا، حسن حسني عبد الوهاب، تونس.

- 81 - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أحمد بن خلkan، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، لات.
- 82 - الواقعية الثمينة في أعيان مذهب عالم المدينة، محمد البشير ظافر الأزهري، مصر، مطبعة الملاجىء.

الفهرس

7	الإهداء
9	الرموز المستخدمة في الكتاب
11	التقديم للأستاذ الدكتور الصديق بشير نصر
17	المقدمة
27	الفصل الأول: آفاق الحياة العامة
29	المبحث الأول: الأفق التعريفي والاجتماعي
35	المبحث الثاني: الأفق التاريخي والسياسي
43	المبحث الثالث: الأفق المعرفي الفكري
51	الفصل الثاني: أطوار الحياة الخاصة
55	المبحث الأول: أوليته واسمها ونشأته
69	المبحث الثاني: الطور الأول من حياته - الطور الطرابلسي

79	المبحث الثالث: الطور الثاني من حياته «الطور المشرقي»
93	المبحث الرابع: الطور الثالث من حياته «الطور التونسي»
103	المبحث الخامس: أخلاقه ووفاته وثناء العلماء عليه
115	الفصل الثالث: تأصيله المذهب المالكي ونشره له
121	المبحث الأول: روایته الموطأ وتأليفه كتاب «خير من زنته»
133	المبحث الثاني: أسمعته وفتاویه ورواية القرآن
139	المبحث الثالث: تكوين المركزين الفقهيين
147	المبحث الرابع: تلاميذ الفقهاء وطلابهم
165	الخاتمة
173	الملاحق
175	الملحق الأول: نماذج وقطوف من الأصل المتبقى من موطأ مالك
187	الملحق الثاني: صور ومشاهد تمثل المدينة القديمة بطرابلس الغرب
197	الملحق الثالث: مشاهد من ضريح ابن زياد وقبره في مدينة تونس
205	الفهارس والكتشافات
207	1 - الآيات القرآنية الكريمة
209	2 - الأحاديث النبوية الشريفة
211	3 - فهرس الأشعار

213	4 - الأعلام والقبائل
219	5 - البلدان والمواضع
221	6 - المصادر والمراجع

من كتب مؤلف الكتاب ومحفقاته

﴿أولاً - المطبوعات﴾

- 1 - أحمد الفقيه حسن (الحفيد) حياته وأدبه. ليبيا، تونس، الدار العربية للكتاب، ط1، 1395 1975، ط2، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية 1421 – 2000.
- 2 - محمد كامل بن مصطفى وأثره في الحياة الفكرية في ليبيا. ط1، ليبيا، مركز جهاد الليبيين 1402 / 1981، ط2، 1471 / 1996. ط3 جمعية الدعوة الإسلامية 2008.
- 3 - مصطفى بن ذكري في أطوار حياته وملامح أدبه. ليبيا، المنشأة العامة للنشر والتوزيع، ط1، 1405 – 1981، ط2، مع تحقيق ديوانه، مركز جهاد الليبيين، 2007.
- 4 - أحمد الفقيه حسن (الجد) وتحقيق ما تبقى من آثاره ووثائقه، ليبيا، ط1، مركز جهاد الليبيين 1409 / 1998.
- 5 - سليمان الباروني (آثاره). ليبيا، تونس، الدار العربية للكتاب، 1412 / 1991.

- 6 - سبك المقال لفك العقال (تحقيق). تأليف عبد الواحد بن الطواح التونسي، بيروت، دار الغرب الإسلامي ط1، 1417/1996، ط2 جمعية الدعوة الإسلامية العالمية 2007.
- 7 - أديب العدوتين مالك بن المرحال (دراسة تحليلية في أخباره، وتحقيق نصوصه الأدبية الباقية). الإمارات العربية المتحدة، المجتمع الثقافي أبو ظبي، 2005.
- 8 - ديوان الجوالات لمالك بن المرحال. (تحقيق) بيروت، دار المدار الإسلامي ، 1424/2004.
- 9 - فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب (المضامين والخصائص الأسلوبية). لبنان، طرابلس الغرب، دار المدار الإسلامي ، 1424/2004.
- 10 - إيضاح المبهم من لامية العجم (دراسة وتحقيق) تأليف أبي جمعة سعيد الماغوسي المراكشي، طرابلس الغرب، لبنان، دار المدار الإسلامي ، 2009.
- 11 - علي الفقيه حسن في جهوده العلمية والسياسية. ليبيا، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، 2000.
- 12 - عبد الواحد بن الطواح من الأعلام المعمورين في القرن الثامن الهجري. ليبيا، لبنان، دار المدار الإسلامي 1424/2004.
- 13 - اللغة العربية قواعد وتدريبات ونصوص. (بالاشراك)، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، 1424/2004.
- 14 - محمد عبد الله السندي، ترجمته وتحقيق ما تبقى من آثاره ليبيا، مركز جهاد الليبيين 2007.
- 15 - أبحاث وتحقيقات في تراث الغرب الإسلامي. ليبيا، بيروت، دار المدار الإسلامي 2009.

- 16 - اللمحـة الـبـدرـية فـي الدـولـة الـضـرـيرـية (تحـقـيق) تـأـلـيف مـحـمـد لـسان الدـين بـن الـخطـيب، ليـبيـا، ليـبانـ دـار المـدار الإـسـلامـي، 2008.
- 17 - عـلـيـ بنـ زـيـادـ الطـرابـلـسيـ وـدوـرـهـ فـيـ نـشـرـ المـذـهـبـ الـمـالـكـيـ. ليـبيـاـ جـمـعـيـةـ الدـعـوـةـ الـإـسـلامـيـةـ الـعـالـمـيـةـ، 2009.

ثانياً: كتب قيد الإعداد

- 1 - أعلام الحركة الفكرية والأدبية في الغرب الإسلامي.
- 2 - ارتسامات الأسفار (كتاب في فن الرحلة).
- 3 - الحركة الأدبية والفكرية في نيجيريا.
- 4 - أعلام الإسلام (العصر الحديث).
- 5 - الحركة الأدبية والفكرية في ليبيا (معالم وأعلام).
- 6 - مدخلات أو بحوث ودراسات.
- 7 - تراجم الأعلام في طرابلس الغرب.
- 8 - جهد المقل (قصائد ومقاطع).
- 9 - الأدب العربي الحديث في ليبيا.
- 10 - أصول البحث والتحقيق.
- 11 - شرح أسماء الله الحسني (تحقيق).
- 12 - التعريف بالأدب وفنونه.



الدكتور محمد مسعود جبران

- ولد في مدينة طرابلس الغرب سنة (1365-1946) مسيحي.
- تلقى تعليمه من مرحلة الكتاب إلى حين حصوله على درجة الماجستير في الأدب الحديث سنة (1403-1982) مسيحي في مسقط رأسه، ثم نال درجة دكتوراه الدولة في الدراسات المغربية والأندلسية من جامعة محمد الخامس بالرباط في سنة (1418-1997) مسيحي.
- أنفق أكثر من أربعين سنة من سنوات عمره في مزاولة التعليم العام ثم التعليم الجامعي والعالي في ليبيا وفي بعض الدول الأفريقية وأشرف على انجاز رسائل كثيرة في مستوى الماجستير والدكتوراه، كما ناقش رسائل علمية في المستوى المذكور.
- كتب مقالات وبحوثاً وفيرة في الجرائد والصحف والدوريات الجامعية المحكمة.
- شارك في ندوات ومؤتمرات داخل ليبيا وخارجها.
- ألف العديد من الكتب المطبوعة والمخطوطة تجاوز خمساً وعشرين كتاباً.
- يشغل الآن منصب رئيس قسم اللغة العربية بكلية الدعوة الإسلامية، وينهض إلى جانب ذلك بالتدريس في الدراسات العليا بكلية الدعوة الإسلامية، وأكاديمية الدراسات العليا ومركز التكوين التربوي.
- زار في رحلات علمية وسياحية أكثر من عشرين دولة من دول العالم.

لـه عضويات في المؤسسات الآتية:

- مجمع اللغة العربية عضو مراسل.
- رابطة اتحاد الكتاب والأدباء في ليبيا.
- رابطة الدراسات الأنجلوسaxonية بكلية عبد الملك السعدي بجامعة طنطا - المغرب.
- رابطة الأدب الإسلامي العالمية.
- اللجنة العلمية بكلية الدعوة الإسلامية واللجنة العلمية بجمعية الدعوة الإسلامية العـ

Bibliotheca Alexandrina



1110507

ISBN 978-9959-28-234-7



9 789959 282347